خلاصة البرهان
في اختصار وترتيب إعجاز القرآن

للباقلاني (ت٤٠٣هـ)
أبي بكر محمد بن الطيب

ويليه

الإيجاز
بمنهج الإمام الباقلاني في الإعجاز

اختصار وترتيب

أ.د.محمد بن عبدالعزيز بن محمد العواجي
عضو هيئة التدريس بقسم التفسير
بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية

kolasa-borhan

خلاصة البرهان
في اختصار وترتيب إعجاز القرآن

للباقلاني (ت٤٠٣هـ)
أبي بكر محمد بن الطيب

ويليه

الإيجاز
بمنهج الإمام الباقلاني في الإعجاز

اختصار وترتيب
أ.د.محمد بن عبدالعزيز بن محمد العواجي
عضو هيئة التدريس بقسم التفسير
بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الملحوظات ترسل على عنوان المؤلف
المدينة المنورة ص.ب: ٧١١٩ الرمز: ٤١٤٦٢
aboayob@hotmail.com
aboayob@yahoo.com

kolasa-borhan

خلاصة البرهان
في اختصار وترتيب إعجاز القرآن للباقلاني

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فقد جرت سنة الله في ابتعاث رسله إلى خلقه، لتبصيرهم بعظمته وجمعهم على عبادته، أن يؤيدهم بأمور حسية تخالف السنن الكونية، وتخرج عن النواميس الطبيعية، وتكون من قبيل ما استحكم في زمانهم، وعظم في نفوس عامتهم، لتكون آية ومعجزة وبرهان الرسول المرسل إليهم، مفحمة لأعجب الأمور في أنظارهم، ومبطلة لأقوى الأشياء في حسبانهم، لئلا يجد المبطلون والمعاندون شيئاً يتشبثون به.

فقد أيد الله موسى عليه السلام ـ وكان عصره عصر سحر ـ بفلق البحر،

وانقلاب العصا حية تسعى، وبياض اليد، وانبجاس الحجر الصلب بعيون الماء.

وأيد عيسى عليه السلام ـ وكان عصره عصر الطب ـ بإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وخلق الطير من الطين بإذن الله.

ولما أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى الناس جميعاً، وجعله خاتم الأنبياء، أيده بمعجزات حسية كمعجزات من سبقه، كانشقاق القمر، ونبع الماء...

وخصه بمعجزة خالدة وهي إنزال القرآن الكريم؛ الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وكان ذلك في زمن سما فيه شأن البلاغة والفصاحة والبيان، وجلت مكانتهما في صدور أهلهما، وعرفوا باللسن والفصاحة وقوة العارضة في الإعراب عن خوالج النفوس والإبانة عن مشاعر القلوب.

فتحداهم الله عز وجل بما كانوا يعتقدون في أنفسهم القدرة عليه، والتمكن منه، ولم يزل يقرعهم بعجزهم، ويكشف نقصهم، من خلال ما ينزله على رسوله ﷺ من آيات هذا الكتاب العظيم؛ الذي يصرح بتحديهم به كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس] وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]، فتحداهم مراراً ثم توعدهم وخوفهم بمصيرهم إن لم يفعلوا.. فاستكانوا وذلوا أمامه، وصاروا حيال فصاحته في أمر مريج[1]، ولقد أدهش العرب جميعاً لما سمعوه، وحير لبابهم وعقولهم بسحر بيانه، وروعة معانيه، ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه.

(١) المريج: الملتوي الأعوج، ومرج الأمر: التبس واختلط. اللسان ٢/٣٦٥.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر فحقت عليه كلمة الوعيد، وافترقت كلمة الكافرين في وصفه، وتباينت في نعته:

فقال بعضهم: هو شعر!! وقال آخرون: إنه سحر!!

وزعمت طائفة: بأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه...!!

وقال قوم: إنه افتراه!!.. حتى قال المفترون: لو نشاء لقلنا مثل هذا!! ولكنهم لم يقولوا هم ولا غيرهم ما يقاربه...

وقد أقبل عليه علماء هذه الأمة بالتدبر والتفكر في آياته، وتفسيرها بإجلال واحترام، وعمل بالأوامر، واجتناب للزواجر ...

وفي المقابل أقبل عليه أعداء الإسلام، فاتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة بتأويلها، وتحريف الكلم عن مواضعه، حتى لقد نفى فريق منهم إعجازه، بل ووصفه ـ نعوذ بالله ـ بأنه فاسد النظم، متناقض المعنى[١]!!

ولما بدأت المطاعن في القرآن تسري، وأوشكت الشبهات على الظهور، نهض فريق من العلماء يدرؤون عنه وينافحون دونه بالأدلة القاطعة، والحجج النيرة الواضحة[٢].

فكانت مسألة إعجاز القرآن من أبرز المسائل التي تناولها العلماء بالبحث في ثنايا كتبهم وتفسيرهم للقرآن، والرد على منكري النبوة.

وألف فيه بعضهم باستقلال وتكاثر الكلام فيه حتى صار فناً مستقلاً عن غيره، له مسائله وخصائصه.

ولما كان الشيخ أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن

(١) منهم ابن الراوندي والمزدارية والحسنية. إعجاز القرآن د/ سيد صقر في مقدمة الباقلاني.

(٢) هذه المقدمة مما ذكره السيد أحمد صقر في تحقيقه لكتاب إعجاز القرآن للباقلاني (بتصرف).

القاسم المعروف بالباقلاني ـ المتوفى يوم السبت لسبع بقين من ذي الحجة سنة ٤٠٣هـ رَحِمَهُ اللَّهُ من العلماء الأفذاذ المشهورين ذي باع في العلم والعمل، وكان له إسهام في مجال إعجاز القرآن الكريم بالبيان ومناقشة المخالفين، لا سيما في كتابه «الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة». اهـ الرافعي.

وقد طبع الكتاب مراراً، وأفضلها بلا مراء طبعة السيد أحمد صقر رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد رزقني الله تدريس مقرر إعجاز القرآن في كلية القرآن الكريم أكثر من عشرين عاماً، وكتابة رسالة الماجستير في إعجاز القرآن الكريم، ومناقشة رسائل في إعجاز القرآن، أو الإشراف عليها.

ونظراً لطول الكتاب، وكثرة استطرادات المؤلف ـ كما هي سمة أهل الشأن في عصره، **ولضعف علوم البلاغة اليوم، وقلة الصبر على أمثاله من الموسوعات، وعدم تدبيجها بما يكملها من المؤلفات، ولسؤال عدد من مشايخي في كلية القرآن الكريم خاصة، وغيرهم عامّة؛ تسهيل الكتاب على الطلاب، رأيت من الواجب عليّ أن أبرز هذا البينة العلمية من الكتب الأصلية، وجعلتها بهذا العنوان: «خلاصة البرهان في اختصار وترتيب إعجاز القرآن للباقلاني»**.

❋ ❋ ❋

منهج الاختصار والترتيب

١. جمع المكرر عن المسألة في أقرب مواضعها.

٢. الاستغناء بالنص الأشمل من النصوص المتكررة في المسألة الواحدة.

٣. حذف المسائل غير المتعلقة بمسألة الإعجاز كالمسائل الأشعرية والفلسفية وهي قليلة، وقد تناولتها بالمناقشة جملة في بحث «الإيجاز بمنهج الإمام الباقلاني في الإعجاز».

٤. حذف الاستطرادات البلاغية والأدبية، مع الإبقاء على النتيجة وملخص الكلام، وما يربطهما بالكلام على الإعجاز.

٥. إضافة عناوين لتحديد المسائل التي يناقشها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإبرازها بين قوسين [هكذا].

٦. لم أدخل في النص الأصلي سوى كلام المصنف.

٧. أبقيت من تعليقات السيد أحمد صقر ما كان مهماً لفهم الكلام، وبينت التعليقات مني وهي قليلة بكلمة بعد التعليق (* المختصر).

٨. ذكرت طرفاً موجزاً من ترجمة الإمام الباقلاني تمهيداً للكتاب.

٩. ميزت الكلمات التي تلخص الكلام بالسواد لينتبه لها القارئ والطالب ويربطها.

أسأل الله العلي القدير العون والتوفيق، والسداد والرشاد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

حرر المختصر في ١٤٢٥/٨/٤هـ
وحرر مبيضة في ١٤٣٢/٠١/١٦هـ
المدينة النبوية

كتبه
أ.د. محمد بن عبدالعزيز بن محمد العواجي
عضو هيئة التدريس بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

تمهيد في ذكر طرف من ترجمة الإمام الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ

١ ـ اسمه:

هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني.

ولد في البصرة، وسكن بغداد، وبها تعلم العلم، ثم رجع إلى البصرة بعد بلوغه الأستاذية حتى استدعاه عضد الدولة إلى شيراز[(١)]. قال السيد صقر: «ولم يعين أحد من المؤرخين عام ولادته». وكان أبوه يبيع الباقلاء وإليها نسب.

٢ ـ شيوخه:

١ ـ محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي[(٢)]: وهو من طبقة الأشعري، وأخذ عنه الباقلاني العقيدة.

٢ ـ أبو الحسن الباهلي[(٣)]: أكثر عنه الباقلاني ولم أعرف اسمه بعد البحث.

(١) بلد كبير مشهور من بلاد فارس وسط آسيا. وانظر معجم البلدان ٣/٣٨٠.
(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/٣٠٥.
(٣) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/٣٠٤.

٣ ـ القطيعي: أحمد بن جعفر بن حمدان[١] ينسب إلى منطقة سكنه سمع منه الباقلاني علم الحديث.

٤ ـ الدارقطني: علي بن عمر بن أحمد بن مهدي[٢] الحافظ الكبير، أخذ عنه الباقلاني علم الحديث ومصطلحه.

٥ ـ العسكري: الحسن بن عبدالله بن سعيد[٣] أخذ عنه الباقلاني مسائل في النقد والبلاغة وعلم البيان.

٣ ـ تلاميذه:

١ ـ أبو ذر الهروي[٤]. واسمه عبد بن أحمد بن محمد الخرساني الهروي.

٢ ـ عبدالله بن نصر الحراني[٥].

٣ ـ أبو عمران قاضي المغرب[٦]. واسمه موسى بن عيسى الفاسي.

٤ ـ علي بن محمد الحربي[٧].

٥ ـ أبو جعفر السمناني[٨]. واسمه محمد بن أحمد السمناني.

٤ ـ ثقافته:

بعد أن وصل الإمام الباقلاني إلى مرتبة الأستاذية في عصره بدأ التدريس والتصنيف فكان ورده في كل ليلة عشرين ترويحة في الحضر

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/٢١٠.
(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/٤٤٩.
(٣) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/٤١٣.
(٤) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧/٥٥٤.
(٥) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٢/١٨٢.
(٦) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧/٥٤٥.
(٧) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/٣٢٩.
(٨) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧/٦٥١.

والسفر، فإذا فرغ منها: كتب خمساً وثلاثين ورقة من تصنيفه»[١].

وقال علي الحربي: «جميع ما كان يذكر أبو بكر ابن الباقلاني من الخلاف بين الناس صنفه من حفظه، وما صنف أحد خلافاً إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين سوى ابن الباقلاني»[٢].

وضم إلى التدريس والتصنيف رحلات ومناظرات علمية فمنها أن أرسله أمير المؤمنين إلى طاغية الروم وجرت له هناك أمور ففطن لها وأفحم الطاغية.

٥ ـ صفاته:

وكان حافظاً قوي الاستذكار فكان يجمع علمه وعلم الناس في صدره وكان من أفصح الناس ذا تقى وورع ودين.

وكان ثقة إماماً بارعاً، صنف في الرد على النصارى، والرافضة، والمعتزلة، والخوارج، والجهمية، والكرامية، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري وقد يخالفه في مضائق، وقد أخذ علم النظر عن أصحابه، وتفوق فيه حتى سماه بعضهم منظر المذهب الأشعري.

٦ ـ وفاته:

مات غفر الله له ورحمه في ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة (ت٤٠٣هـ).

٧ ـ مصنفاته:

وله من المصنفات الشيء الكثير ومنها:

١. التمهيد.

٢. الإبانة عن إبطال مذهب أهل الكفر والضلالة.

(١) تاريخ بغداد ٥/٢٨٠.

(٢) المصدر السابق.

٣. شرح اللمع.

٤. الأصول الكبير في الفقه.

٥. الانتصار لصحة نقل القرآن.

٦. هداية المسترشدين.

٧. إعجاز القرآن وهو أعظمها انتشاراً وشهرة، وفيه شبه بكتابه الآخر هداية المسترشدين.

ولقد حاول الأستاذ السيد أحمد صقر حصر مؤلفاته وبيان موضوعاتها في مقدمة تحقيقه لكتاب إعجاز القرآن، وكذلك د. عبدالرؤوف مخلوف في مقدمة دراسته لكتاب إعجاز القرآن.

٨ ـ مصادر ترجمته:

- تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ ـ ٣٨٣.
- الأنساب ٥١/٢ ـ ٥٢.
- سير أعلام النبلاء ١٩٠/١٧ ـ ١٩٣.
- شذرات الذهب ٣٥١/٣.
- البداية والنهاية ٣٧٣/١١.
- مقدمة تحقيق السيد أحمد صقر لكتاب إعجاز القرآن للباقلاني.
- مقدمة د. عبدالرؤوف مخلوف لدراسة كتاب إعجاز القرآن للباقلاني.

وغيرها مما لم أذكره، وإنما قصدت الإشارة فقط.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

قال الإمام الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم إليه من الايمان، والمتمم إحسانه بما أقام لهم من جلي البرهان، الذي حمد نفسه بما أنزل من القرآن، ليكون بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وهادياً إلى ما ارتضى لهم من دينه، وسلطاناً أوضح وجه تبيينه، ودليلاً على وحدانيته، ومرشداً إلى معرفة عزته وجبروته، ومفصحاً عن صفات جلاله، وعلو شأنه وعظيم سلطانه، وحجة لرسوله الذي أرسله به، وعَلَماً على صدقه، وبيِّنَةً على أنه أمِيْنُهُ على وحيه، وصادعٌ بأمره. فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله، ورسالة تشتمل على قول مؤديها. بيَّن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية، لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها، أو حجة تتلوها، وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات، والتشكك في المشاهدات.

ولذلك قال عز ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام]. وقال ﷻ: ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[1] [الحجر]. فله الشكر على جزيل إحسانه، وعظيم مننه. والصلاة على محمد المصطفى وآله وسلم.

(١) يعرجون: يصعدون. سكرت: صارت سكرى، أي غشيهم ما غطى أبصارهم، كما غشي السكران ما غطى عقله، القرطبي ١٠ / ٨ ـ ٩.

[أسباب الاهتمام بالإعجاز]:

١. ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قَوَاماً، ولقاعدة توحيدهم عِمَاداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهاناً، ولمعجزته ثبتاً وحجة.

٢. ولا سيما أن الجهل ممدود الرواق، شديد النَّفَاق[١]، مستول على الآفاق، والعلم إلى عَفَاء ودُرُوس، وعلى خفاء وطموس، وأهله في جفوة الزمن البهيم[٢]، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم[٣] حتى صار ما يكابدونه قاطعاً عن الواجب من سلوك مناهجه، والأخذ في سبله.

[موقف الناس من البحث في الإعجاز]:

فالناس بين رجلين: ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته، مكدود في صنعته. فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين، في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين. وقد قل أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله. فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره. فمن قائل قال: إنه سحر[٤]، وقائل يقول: إنه شعر[٥]، وآخر يقول: إنه أساطير الاولين[٦]، وقالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا[٧]. إلى الوجوه التي حكى الله ﷻ عنهم أنهم قالوا فيه، وتكلموا به، فصرفوه إليه.

---

(١) الرواق: الفسطاط. النفاق: الرواج.

(٢) البهيم: الاسود.

(٣) في اللسان ١٥/٢١١: «أسد شتيم: عابس».

(٤) قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

(٥) قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، وقال في سورة الصافات: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾.

(٦) قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾.

(٧) قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

٣. وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يُفَضِّله عليه! وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر، وقد سبقهم إلى عظم ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم. إلا أن أكثر من كان طعن فيه في أول أمره استبان رشده، وأبصر قصده، فتاب وأناب، وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه، وقوة إتقانه، لا لتصرف لسانه، بل لهداية ربه وحسن توفيقه. والجهل في هذا الوقت أغلب، والملحدون فيه عن الرشد أبعد، وعن الواجب أذهب.

[تقصير الناس في الكتابة في الإعجاز]:

٤. وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانه. فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في: الجزء والطفرة، ودقيق الكلام في الأعراض[(١)]، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو. فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به أوجب.

وقد قصر بعضهم في هذه المسألة، حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها، ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة

(١) الجزء والطفرة والأعراض: مصطلحات فلسفية يقصد بها:
الجزء: ما يتركب الشيء منه ومن غيره، أو الجوهر الفرد الذي لا يتجزأ. أ.هـ التعريفات للجرجاني ص١٠٢، والحدود الأنيقة لزكريا الأنصاري ص٧١.
الطفرة: هي دعوى النظّام أن الجسم قد يكون في مكان ثم يصير منه الى المكان الثالث أو العاشر منه من غير مرور بالأمكنة المتوسطة بينه وبين العاشر ومن غير أن يصير معدوماً فى الأول ومعاداً فى العاشر. اهـ الفرق بين الفرق ص١٢٤، والفصل في الملل ٤١/٥.
الأعراض: جمع العرض: الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع أي محل يقوم به كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحله ويقوم به. التعريفات ص١٩٢.
*المختصر.

هذه المعجزة يوجب أن لا مستنصر فيها، ولا وجه لها، حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا.

٥. ثم رأوا ما صنفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه، ولا مستوفى في وجهه، قد أخل بتهذيب طرقه، وأهمل ترتيب بيانه.

وقد يعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه، وذهاب عنه، لأن هذا الباب مما لا يمكن إحكامه إلا بعد التقدم في أمورٍ شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك لطيفة المأخذ. وإذا انتهينا إلى تفصيل القول فيها، استبان ما قلناه من الحاجة إلى هذه المقدمات، حتى يمكن بعدها إحكام القول في هذا الشأن.

وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى.

٦. وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة. فأجبناه إلى ذلك، متقربين إلى الله ﷻ، ومتوكلين عليه وعلى حسن توفيقه ومعونته.

[منهج كتاب إعجاز القرآن]:

ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا، ونشير إليه ولا نبسط القول، لئلا يكون ما ألفناه مكرراً ومقولاً[(١)]، بل يكون مستفاداً من جهة هذا الكتاب خاصة. ونصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق البلاغة، وتتفاوت من جهته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية، والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع. ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام، من شعر ورسائل وخطب، وغير

(١) ولذا يُنصح طالب العلم بقراءة كتاب «القول في بيان إعجاز القرآن» للخطابي رحمه الله فقد سبق المصنف وأوجز وأفاد. *المختصر.

ذلك من مجاري الخطاب. وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يَبِيْنُ فيه التفاصح، وتقصد فيه البلاغة، لأن هذه أمور يُتَعَمَّلُ لها في الأغلب، ولا يتجوز فيها. ثم من بعد هذا الكلام الدائر في محاوراتهم. والتفاوت فيه أكثر، لأن التَعَمُّل فيه أقل، إلا من غزارة طبع، أو فطانة تصنع وتكلف[١].

[هدف الكتاب وغايته]:

ونشير إلى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق، ليعرف عظيم محل القرآن، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها، أو يشتبه ذلك على متأمل.

[شروط الكلام في الإعجاز]:

ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه، وأردنا شرحه وتفصيله، لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً وعن وجه اللسان غافلاً، لأن ذلك مما لا سبيل إليه، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه:

أ ـ من أهل صناعة العربية.

ب ـ قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه.

ج ـ وعرف جملة من طرق المتكلمين[٢].

د ـ ونظر في شيئ من أصول الدين.

وإنما ضمن الله ﷻ فيه البيان لمثل من وصفناه، فقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت]. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف].

---

(١) يُشير المصنف إلى كل ما يتكلف له ويُتَصنَّع له فلا يقع به الإعجاز، وسيأتي تفصيله في مسألة السجع. *المختصر.

(٢) يُشير إلى ضرورة معرفة طرق الاحتجاج لإثبات الإعجاز، وهي ليست قاصرة على المتكلمين. *المختصر.

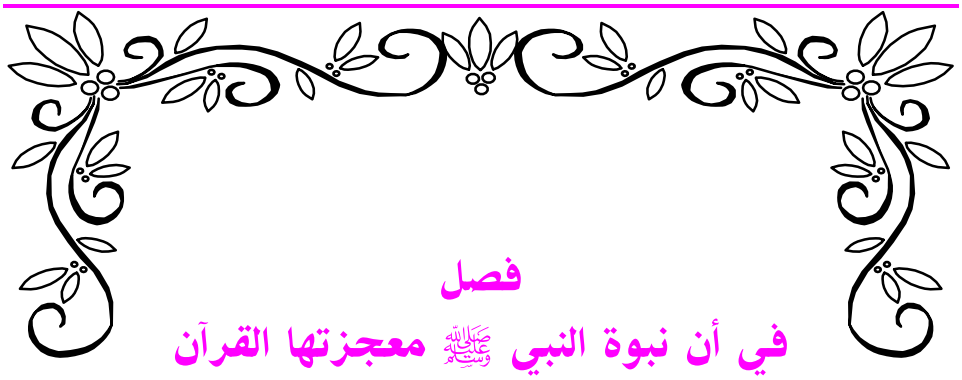

فصل
في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت[١] على **هذه المعجزة، وإن كان قد أُيِّدَ بعد ذلك بمعجزات كثيرة.**

[الفرق بين القرآن وسائر المعجزات]:

إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة. ونقل بعضها نقلاً متواتراً يقع به العلم وجوداً. وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً، إلا أنه حُكِيَ بمشهد من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه، فلو كان الأمر على خلاف ما حُكِيَ لأنكروه، أو لأنكره بعضهم، فحل محل المعنى الأول، وإن لم يتواتر أصل النقل فيه. وبعضها مما نقل من جهة الآحاد، وكان وقوعه بين يدي الآحاد.

[طريق المعجزة النظر والاستدلال]:

فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين. ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله ـ وجه

(١) هذا اختيار المصنف، والصحيح أن المعجزة دليل النبوة، وليست شرطاً فيها. *المختصر.

دلالته، فيغني ذلك عن نظر مجدد في عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله. وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، عن النظر في حال أهل العصر الأول. وإنما ذكرنا هذا الفصل، لما حكي عن بعضهم أنه زعم أنه وإن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه، ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة، لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم[1]. ونحن نبين خطأ هذا القول في موضعه، إن شاء الله.

[دلالة القرآن على أنه حجة النبي ﷺ]:

فأما الذي يُبَيِّنُ ما ذكرناه من **أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن**، وبنى أمر نبوته عليه ـ فسور كثيرة وآيات نذكر بعضها، وننبه بالمذكور على غيره، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم] فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا يكون حجة إن لم يكن معجزة. وقال ﷻ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه. ولا يكون حجة إلا وهو معجزة. وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾. وهذا بَيِّنٌ جداً فيما قلناه، من أنه جعله سبباً لكونه مُنْذِراً. ثم أوضح ذلك بأن قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ

(١) ليس القرآن وإعجازه على ذلك، فإن أهل العصر الأول لم يخصوا بالتحدي دون غيرهم، وذلك لأن القرآن معجزة باقية على الزمن، فالتحدي باق معها على الزمن، فهو تحد لأهل كل عصر، كما كان لأهل العصر الأول، وقد حبا الله هذا الرسول العربي الكريم بالرسالة «مؤيداً بدلالة على الأيام باقية، وعلى الدهور والأزمان ثابتة، وعلى ممر الشهور والسنين دائمة. يزداد ضياؤها على كر الدهور إشراقاً، وعلى مر الليالي والأيام ائتلاقاً» كما قال الطبري في مقدمة تفسيره ٣/١. فالإعجاز فيها واقع في كل عصر. والتحدي بها لازم لأهل كل زمان.

مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]. فلولا أن كونه بهذا اللسان حجة، لم يعقب كلامه الأول به.

وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة إلا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه. ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده. وكثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته. فمن ذلك سورة المؤمن[1]. قوله ﷻ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ فدل على أن الجدال في تنزيله كفر وإلحاد.

ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم، بقوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ فتوعدهم بأنه آخذهم في الدنيا بذنبهم في تكذيب الأنبياء وردِّ براهينهم فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾. ثم توعدهم بالنار، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾. ثم عظم شأن المؤمنين بهذه الحجة، بما أخبر من استغفار الملائكة لهم، وما وعدهم عليه من المغفرة، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾. فلولا أنه برهان قاهر لم يذم الكفار على العدول عنه، ولم يحمد المؤمنين على المصير إليه.

ثم ذكر تمام الآيات في دعاء الملائكة للمؤمنين، ثم عطف على وعيد الكافرين، فذكر آيات، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾. فأمر بالنظر في

(١) هي سورة غافر.

آياته وبراهينه، إلى أن قال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ فجعل القرآن والوحي به كالروح، لأنه يؤدي إلى حياة الأبد، ولأنه لا فائدة للجسد من دون الروح. فجعل هذا الروح سبباً للإنذار، وعلماً عليه، وطريقاً إليه. ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يصح أن يقع به الإنذار والإخبار عما يقع عند مخالفته، ولم يكن الخبر عن الواقع في الآخرة عند ردهم دلالته من الوعيد ـ حجة ولا معلوماً صدقه، فكان لا يلزمهم قبوله. فلما خلص من الآيات في ذكر الوعيد على ترك القبول، ضرب لهم المثل بمن خالف الآيات، وجحد الدلالات والمعجزات، فقال: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾. ثم بيّن أن عاقبتهم صارت إلى السوآى، بأن رسلهم كانت تأتيهم بالبينات، وكانوا لا يقبلونها منهم. فعُلِمَ أن ما قدَّم ذكره في السورة بَيَّنَهُ رسول الله ﷺ.

ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام، ومجيئهما بالبينات، ومخالفتهم حكمها، إلى أن قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

فأخبر أن جدالهم في هذه الآيات لا يقع بحجة، وإنما يقع عن جهل، وأن الله يطبع على قلوبهم، ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان. لجحودهم وعنادهم واستكبارهم. ثم ذكر كثيراً من الاحتجاج على التوحيد، ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾. ثم بيّن هذه الجملة، وأن من آياته الكتاب، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾. إلى أن قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾. فدل على أن الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف، والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر، ويقع عندها العلم الضروري، وأنها إذا جاءت ارتفع التكليف،

ووجب الإهلاك. إلى أن قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾. فأعلمنا أنه قادر على هذه الآيات، ولكنه إذا أقامها زال التكليف، وحقت العقوبة على الجاحدين.

وكذلك ذكر في (حم) السجدة[١] على هذا المنهاج الذي شرحنا، فقال ﷻ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلولا أنه جعله برهاناً لم يكن بشيراً ولا نذيراً، ولم يختلف بأن يكون عربياً مفصلاً أو بخلاف ذلك. ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم، بقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾. ولولا أنه حجة لم يضرهم الإعراض عنه. ثم رجع إلى ذكر القرآن، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾.

ثم أثنى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟﴾. ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾. وهذا ينبه على أن النبي ﷺ يعرف إعجاز القرآن، وأنه دلالة له على جهة الاستدلال، لأن الضروريات لا يقع فيها نزغ الشيطان[٢]. ونحن نبيّن ما يتعلق بهذا الفصل في موضعه.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾، إلى أن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. وهذا وإن كان متأولاً على أنه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أقاصيص الأولين وأخبار المرسلين، وكذلك لا يوجد خُلْفٌ فيما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي ـ فلا يخرج عن أن يكون متأولاً على ما يقتضيه نظام الخطاب، مع أنه لا يأتيه ما

(١) هي سورة فصلت.

(٢) انظر: جامع البيان ٢٠/٤٤٣ ـ ٤٤٥، والبحر المحيط ٩/٣١٠ ـ ٣١١. والقاعدة استنباط من المؤلف. *المختصر.

يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته أو تعارضه في طريقه. وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته وإعجازه. وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه.

ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده: إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه وبأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه. لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم، أو بغير ذلك من الأمور، وأنه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه ـ وجبت الحجة عليهم به، على ما نبينه في وجه هذا الفصل. إلى أن قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

والذي ذكرناه من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور، فكرهنا سرد القول فيها. فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك.

ثم مما يدل على هذا قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١] فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من أعلامه، وأن ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء، صلوات الله عليهم. ويدل عليه قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ١ ـ ٢]. ويدل عليه قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ﴾ [الشورى: ٢٤]. فدل على أنه جعل قلبه مستودعاً لوحيه، ومستنزلاً لكتابه، وأنه لو شاء صرف ذلك عنه إلى غيره. وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق، وإبطال الباطل مع صرفه عنه. ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التي وصفناها.

[هل تحتاج الحجة لحجة أخرى؟]:

وليس لقائل أن يقول: قد يكون حجة ولكن يحتاج في كونه حجة إلى دلالة أخرى[١]، كما أن الرسول ﷺ حجة، ولكنه يحتاج إلى دلالة على صدقه، وصحة نبوته. وذلك: أنه إنما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل، ولم يذكر حجة غيره. ويبيّن ذلك: أنه قال عقيب هذا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت:٦]. فأخبر أنه مثلهم لولا الوحي. ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾. ومعناه: الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل، وعرفوا هذه الحجة. ثم تصرف في الاحتجاج على الوحدانية والقدرة، إلى أن قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾، فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المكذبين بآيات الله من قوم عاد وثمود في الدنيا. ثم توعدهم بأمر الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾، إلى انتهاء ما ذكره فيه.

[الفرق بين القرآن وسائر معجزات الأنبياء عليهم السلام]:

فبان بهذا وبنظائره ما قلناه، من أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في **دلالته على نفسه وصدقه** أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء، لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد عليها، ووصف منضاف إليها، لأن نظمها ليس معجزاً، وإن كان ما تتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزاً. وليس كذلك القرآن، لأنه يشاركها في هذه الدلالة، ويزيد عليها في **أن نظمه معجز**، فيمكن أن يستدل به عليه. والذي نرومه الآن هو: أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال، وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال.

---

(١) هذا السؤال مبنيٌ على قولهم بأنَّ المعجزة شرط في إثبات النبوة. وعند السلف لا حاجة لهذا الإلزام لأنَّ المعجزة عندهم دليل النبوة. *المختصر.

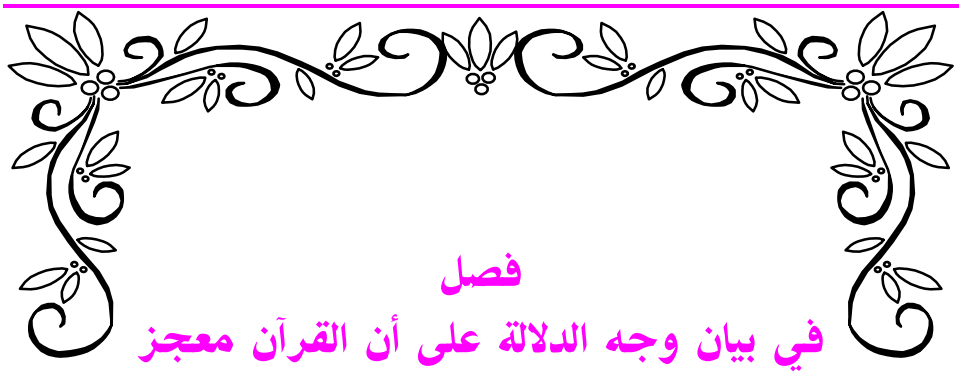

فصل
في بيان وجه الدلالة على أن القرآن معجز

قد ثبت بما بيّنا في الفصل الأول أن نبوة نبينا ﷺ مبنِيَّة على دلالة معجزة القرآن. فيجب أن نبيّن وجه الدلالة من ذلك:

١ ـ [أنّ النبي ﷺ هو الذي جاء بالقرآن]:

قد ذكر العلماء أن الأصل في هذا هو: أن يعلم أن القرآن ـ الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف ـ هو الذي جاء به النبي ﷺ، وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثاً وعشرين سنة. والطريق إلى معرفة ذلك هو **النقل المتواتر**، الذي يقع عنده العلم الضروري به. وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها من تابعه، وأورده على غيره ممن لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشتبه على أحد، ولا يخيل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه، ويأخذه على غيره، ويأخذه غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها، وتعدى إلى الملوك المصاقبة لهم، كملك الروم والعجم والقبط والحبش، وغيرهم من ملوك الأطراف.

ولما ورد ذلك مضاداً لأديان أهل ذلك العصر كلهم، ومخالفاً لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر ـ **وقف جميع أهل الخلاف على جملته، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفاصيله**، وتظاهر بينهم، حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير

والصغير، إذ كان **عمدة دينهم، وعَلَماً عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم.**

ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا، على ما وصفناه من حاله. فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك، مع وجود هذه الأسباب، في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله تعالى. فهذا أصل.

٢ ـ [وقوع التحدي به]:

وإذا ثبت هذا الأصل وجوداً، فإنا نقول: إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم على ترك الإتيان به، طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك. وهذا أصل ثان.

والذي يدل على هذا الأصل: أنا قد علمنا أن ذلك مذكور في القرآن في المواضع الكثيرة، كقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]. وكقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود]. **فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلاً على أنه منه، ودليلاً على وحدانيته.**

وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم أنه لا يمكن أن تعلم بالقرآن الوحدانية، وزعم أن ذلك مما لا سبيل إليه إلا من جهة العقل، لأن القرآن كلام الله ﷻ، ولا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولاً.

فقلنا: إذا ثبت بما نبينه إعجازه، وأن الخلق لا يقدرون عليه ـ ثبت أن الذي أتى به غيرهم، وأنه إنما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم، وأنه صدق. وإذا كان كذلك كان **ما يتضمنه صدقاً**، وليس إذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع أن يعرف من طريق القرآن، بل يمكن عندنا أن

يعرف من الوجهين. وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل، لأنه خارج عن مقصود كلامنا، ولكنا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء] وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور] فقد **ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله.** وفي هذا أمران: أحدهما التحدي إليه. والآخر أنهم لم يأتوا له بمثل. والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين.

[نتيجة التحدي]:

ولولا هذه الوجوه التي بيّناها[1]، لم يتحير فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التَّعَمُّل للمقابلة، والتصنع للمعارضة، وكانوا ينظرون في أمرهم، ويراجعون أنفسهم، أو كان يراجع بعضهم بعضاً في معارضته ويتوقفون لها. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، عُلِمَ أن أهل المعرفة منهم بالصنعة ـ **إنما عدلوا عن هذه الأمور، لعلمهم بعجزهم عنه، وقصور فصاحتهم دونه.**

ولا يمتنع أن يلتبس ـ على من لم يكن بارعاً فيهم، ولا متقدماً في الفصاحة منهم ـ هذا الحال، حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل، وحتى يعرف حال عجز غيره.

إلا أنَّا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم **سلَّموا** ولم يشتغلوا بذلك، **تحققاً بظهور العجز وتبييناً له.**

وأما قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]:

(١) أي في هذا الكتاب ـ سيأتي في وجوه الإعجاز في نظمه وما بعده ـ، وغيره من كتب هذا الشأن.

أ ـ فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم!!

ب ـ وقد يمكن أن يكون قاله منهم أهل الضعف في هذه الصناعة دون المتقدمين فيها!

ج ـ وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم، وهو يدل على عجزهم!!

ولذلك أورده الله مورد تقريعهم، لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا **يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز**، والضمان إلى الوفاء، فلما لم يفعلوا ذلك ـ مع **استمرار التحدي وتطاول زمان الفسحة** في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه ـ عُلِمَ عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط.

ومعلوم من **حالهم وحميتهم** أن الواحد منهم يقول في الحشرات والهوام والحيات، وفي وصف الأزِمَّة والأنْسَاع[1]، والأمور التي لا يؤبه لها، ولا يحتاج إليها، ويتنافسون في ذلك أشد التنافس، ويتبجحون به أشد التبجح، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته في هذه المعاني الفسيحة، والعبارات الفصيحة، مع تضمن **المعارضة لتكذيبه، والذب عن أديانهم** القديمة، **وإخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم، وتضليله إياهم.**

والتخلص من منازعته، ثم من محاربته ومقارعته؛ ثم لا يفعلون شيئاً من ذلك، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل، ويعللونها بالأباطيل!! هذا مُحَالٌ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) **الأزِمَّة**: زمّ فِعْلٌ من الزِّمام تقول زَمَمْتُ الناقة أَزُمُّها زَمّاً، والزِّمام الخيط الذي في أنفها والجميع الأزمّة. العين ٣٥٤/٧ والمحيط في اللغة ٢١/٩.

الأنْسَاع: النِّسْعُ: سَيْرٌ يُضْفَرُ تُشَدُّ به الرِحَال، والجَميع الأنْسَاعُ والنسوْع. العين ٣٣٨/١ والمحيط في اللغة ٣٦٧/١.

فصل
في التحدي

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن: يدعوا فيها أنها من دلالتهم وآياتهم، لأنه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة، ويؤيد بآية، لأن النبي لا يتميز من الكاذب بصورته، ولا يُقَوِّل نفسه، ولا بشيء آخر، سوى البرهان الذي يظهر عليه، فيستدل به على صدقه. فإن ذكر لهم أن هذه آيتي، وكانوا عاجزين عنها ـ صح له ما ادعاه. ولو كانوا غير عاجزين عنها ـ لم يصح أن يكون برهاناً له. وليس يكون معجزاً إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله. فإذا تحداهم وبان عجزهم ـ صار ذلك معجزاً.

وإنما احتيج في باب القرآن إلى التحدي، لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزاً، فإنما يعرف أولاً إعجازه بطريق[1]، لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزاً. فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه، فيجب أن يعرف هذا، حتى يمكنه أن يستدل به.

ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي إليه، والتقريع به، والتمكين منه ـ صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء،

(١) هكذا وردت، ولعل صوابها «بطريقه» ـ أي: طريق التحدي. *المختصر.

وانقلاب العصا ثعباناً تتلقف ما يأفكون.

وأما من كان من أهل صنعة العربية، والتقدم في البلاغة، ومعرفة فنون القول، ووجوه المنطق ـ فإنه يعرف ـ حين يسمعه ـ عجزه عن الإتيان بمثله، ويعرف أيضاً أهل عصره، ممن هو في طبقته أو يدانيه في صناعته، عجزهم عنه، فلا يحتاج إلى التحدي حتى يعلم به كونه معجزاً.

ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بينا لا يعرفون كونه معجزاً حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه ـ لم يجز أن يعرف النبي ﷺ أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي إليه، وإذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي إلى التحدي إلى أقصاهم، وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه، ثم يعرف حينئذ كونه معجزاً. وهذا القول ـ إن قيل ـ أفحش ما يكون من الخطأ!! فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة في معرفة إعجاز القرآن بأنفسهم منزلة من رأى اليد البيضاء وفلق البحر، بأن ذلك معجز.

وأما من لم يكن من أهل الصنعة، فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة، يعرف بها كونه معجزاً، فيساوي حينئذ أهل الصنعة، فيكون استدلالها في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه على سواء، إذا ادَّعَاه ـ دلالة على نبوته وبرهاناً على صدقه.

فأما من قدَّر أن القرآن لا يصير معجزاً إلا بالتحدي إليه، فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى ـ عليهما السلام، ليست بآيات حتى التحدي إليها والحض عليها، ثم يقع العجز عنها، فيعلم حينئذ أنها معجزات[١]. وقد سلف من كلامنا في هذا المعنى ما يغني عن الإعادة.

(١) فالمقصود أننا نؤمن أنَّ آياتهم كانت معجزة لمن رآها في عصرهم. ويكفي هذا دليلاً. وحُجَّة القرآن ثابتةٌ من الوجهين معاً: النظر والاعتبار، والإيمان بعجز من نزل عليهم. وكليهما صحيح. وهذا ممَّا يبطل دعوى أن المعجزة شرط للنبوة. *المختصر.

ويُبَيِّن ما ذكرناه في غير البليغ: أن الأعجمي الآن لا يعرف إعجاز القرآن إلا بأمور زائدة على الأعجمي الذي كان في ذلك الزمان مشاهداً له، لأن من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولاً أن العرب عجزوا عنه، وإنما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة إليه أن النبي ﷺ قد تحدى العرب إليه فعجزوا عنه، ويحتاج في النقل إلى شروط، وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزاً، كذلك لا يصير معجزاً بأن يعلم العربي الذي ليس ببليغ أنهم قد عجزوا عنه بأجمعهم، بل هو معجز في نفسه، وإنما طريق معرفة هذا **وقوفهم على العلم بعجزهم عنه.**

[هل بلغ التحدي جميعهم؟]:

وإن قال قائل: لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن ـ: كان ذلك قولاً باطلاً، يعلم بطلانه بمثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا! وهو يبلغ حِمْلَ جَمَلٍ! وأنه كُتِم وسيظهره المهدي!!! أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي ﷺ، وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان رضي الله عنهما، حيث وضع المصحف. أو يدعي فيه زيادة أو نقصاناً. وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ووعده الحق. **وحكاية قول من قال ذلك يغني عن الرد عليه.** لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي، وفي الأسفار والحضر، وضبطوه حفظاً، من بين صغير وكبير، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف ـ لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان. ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا لظهر.

وقد عَلِمْتَ أن شعر امرئ القيس وغيره ـ على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه إمساسها إلى القرآن ـ لو زِيْدَ فيه بيت، أو نُقِصَ منه بيت ـ لا ـ بل لو غُيِّر فيه لَفْظٌ؛ لتبرأ منه أصحابه، وأنكره أربابه.

[أسباب ضبط القرآن]:

فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون في شعر امرئ القيس ونظرائه، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن!! مع شدة الحاجة إليه في الصلاة التي هي أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، **واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه**: فمنهم من يضبطه **لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها، وصحة أدائها**. ومنهم من يحفظه **للشرائع والفقه**. ومنهم من يضبطه ليعرف **تفسيره ومعانيه**. ومنهم من يقصد بحفظه **الفصاحة والبلاغة**. ومن الملحدين من يُحَصِّلُه لينظر في **عجيب شأنه**.

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة ـ على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم ـ أن **يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان؟!!**

[شبهات أعدائه]:

ويبيّن ذلك: أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور مما بينا، ومن نظائره في رد قومه عليه ورد غيرهم، وقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] وقول بعضهم: إن ذلك سحر، وقول بعضهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [صٓ] إلى الوجوه التي يصرف إليها قولهم في الطعن عليه.

فمنهم من يستهين بها ويجعل ذلك سبباً لتركه الإتيان بمثله. ومنهم من يزعم أنه مفترى، فلذلك لا يأتي بمثله، ومنهم من يزعم أنه دارس، وأنه أساطير الأولين.

وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحديه، لئلا يقع التطويل. ولو جاز أن يكون بعضه مكتوماً لجاز على كله. ولو جاز أن يكون بعضه موضوعاً لجاز ذلك في كله. فثبت بما بيناه أنه تحداهم به، وأنهم لم يأتوا بمثله. وهذا الفصل قد بَيَّنَا أن الجميع قد ذكروه وبنوا عليه.

فإذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعده **أن تركهم للإتيان بمثله كان لعجزهم عنه.**

[الإخبار بعجزهم هل يؤثر في التحدي إليه؟]:

فإن قيل: الذي بُنِيَ عليه الأمر في تثبيت معجزة القرآن: أنه وقع التحدي إلى الإتيان بمثله، وأنهم عجزوا عنه بعد التحدي إليه، فإذا نظر الناظر وعرف وجه النقل المتواتر في هذا الباب ـ وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه. وما ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدي، وأن ما أتى به قد عرف العجز عنه بكل حال.

قيل: إنما احتيج إلى التحدي لإقامة الحجة، وإظهار وجه البرهان على الكافة. لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه، ولا تظهر على مدع لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله. فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدي وجب فيها التحدي. لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل، وينكشف للجميع أن العجز واقع في المعارضة.

وإلَّا كان مقتضى ما قدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب، ويَفْتَنُّ في مصارف الكلام، وكان كاملاً في فصاحته، جامعاً للمعرفة بوجوه الصناعة ـ لو أنه احتج عليه بالقرآن، وقيل له، إن الدلالة على النبوة والآية للرسالة ما تلوته عليك منه، لكان ذلك بالغاً في إيجاب الحجة عليه، وتماماً في إلزامه فرض المصير إليه.

ومما يؤكد هذا، أن النبي ﷺ قد دعا الآحاد إلى الإسلام، محتجاً عليهم بالقرآن، لأنا نعلم ضرورة أنه لم يلزمهم تصديقه تقليداً، ونعلم أن السابقين الأولين إلى الإسلام لم يقلدوه، إنما دخلوا على بصيرة. ولم نعلمه قال لهم: ارجعوا إلى جميع الفصحاء، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فقد ثَبَتَتْ حُجَتي. بل لما رآهم يعلمون إعجازه، ألزمهم حكمه فقبلوه، وتابعوا الحق، وبادروا إليه مستسلمين، ولم يشكوا في صدقه، ولم يرتابوا في وجه دلالته.

[حال من ادعى معارضته]:

فأما كلام «مسيلمة» الكذاب، وما زعم أنه قرآن، فهو أخس من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه. وإنما **نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ، وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته قد أَضَلَّ، وعلى ركاكته قد أَزَلَّ**، وميدان الجهل واسع! ومن نظر فيما نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان جديراً أن **يحمد الله على ما رزقه من فهم، وآتاه من علم.**

فمِمَّا كان يزعم أنه نزل عليه من السماء: «والليل الأضخم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم»! وذلك قد ذكر في خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه!

وقال أيضا: «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس»! وكان يقول: «والشاء وألوانها، وأعجبها السود، وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تجتمعون»!

وكان يقول: «ضفدع بنت ضفدعين، نُقِّي ما تَنُقِّين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تُكَدِّرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون»! وكان يقول: «والمبديات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لَقْماً، إِهَالَة وسَمْناً، لقد فُضِّلْتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمُعْتَرَّ فآووه، والباغي فناوئوه»!

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان ـ وكانت تَتَنَبَّأُ، فاجتمع مسيلمة معها ـ فقالت له: ما أوحى إليك؟ فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، ما بين صَفَاق وحشاً»! وقالت: فما بعد ذلك؟ قال: أوحى إليَّ: «إن الله خلق النساء أفواجاً، وجعل الرجال لهن أزواجاً،

فنولج فيهن قعساً إيلاجاً، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجاً، فينتجن لنا سخالاً نتاجاً»! فقالت: أشهد أنك نبي[١]!! ولم ننقل كل ما ذكر من سخفه، كراهية التثقيل.

وروي: أنه سأل أبو بكر الصديق ﷺ أقواماً قدموا عليه من بني حنيفة، عن هذه الألفاظ؟ فحكوا بعض ما نقلناه، فقال أبو بكر: سبحان الله! ويحكم، إن هذا الكلام لم يخرج عن إلٍّ، فأين كان يُذْهَب بكم؟! ومعنى قوله: «لم يخرج عن إل»: أي عن ربوبية. ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سُخْف هذا الكلام![٢].

وقد حُكِي عن المتنبي أنه كان ينظر في المصحف، فدخل إليه بعض أصحابه، فأنكر نظره فيه، لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده، فقال له: هذا المكي على فصاحته كان مفحماً!! فإن صحت هذه الحكاية عنه في إلحاده.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) انظر قصة اجتماعهما، وبقية حوارهما، وما قاله الأغلب العجلي في قصة زواجهما، في كتاب الأغاني ١٨/١٦٥ ـ ١٦٦ وطبقات فحول الشعراء ص٥٧٣ ـ ٥٧٥.

(٢) قال المؤلف في كتاب التمهيد ص١٢٨: «هذا الكلام دال على جهل مورده، وضعف عقله ورأيه، وما يوجب السخرية منه والهزء به، وليس هو مع ذلك خارجاً عن وزن ركيك السجع وسخيفه. وعلى أنه لو كان معجزاً لتعلقت العرب وأهل الردة به، ولعرف أتباع النبي ﷺ أنه عارضه، ولوقع لهم العلم اليقين بأنه قد قوبل. وفي عدم ذلك دليل على جهل مدعي ذلك، وعلى أن مسيلمة لم يدع هذا الكلام معجزاً، ولا تحدى العرب بمثله فعجزوا عنه، بل كان في نفسه ونفس كل سامع له أخف وأسخف وأذل من أن يتعلق به. ولذلك لا نجد له نبأ ولا أحداً من العرب تعلق به».

فصل
في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن

[١ ـ حال الأعجمي]:

قد بَيَّنَا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن إلا **بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك**. فإذا عرفوا هذا ـ بأن علموا أنهم قد تحدوا إلى أن يأتوا بمثله، وقرعوا على ترك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به ـ تبينوا أنهم عاجزون عنه. **وإذا عجز أهل ذلك اللسان، فهم عنه أعجز.**

لأن الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمورٍ لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عجز أهل الصنعة حَلَّ محلهم، وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه.

[٢ ـ حال غير البليغ من أهل اللسان العربي]:

وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان، من هذا الشأن، ما يعرفه العالي في هذه الصنعة، فنقول: إن من كان من أهل اللسان العربي ـ إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرف اللغة، وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره ـ فهو كالأعجمي: في أنه **لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، إلا بمثل ما بَيَّنَا أن يعرف به الفارسي**

الذي بدأنا بذكره، وهو ومن ليس من أهل اللسان، سواء.

فربما حَلَّ في ذلك محل الأعجمي، في أن لا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه. وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل وحدهما ـ من غَوْرِ هذا الشأن ـ ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة. فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه لعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه.

[٣ ـ وصف من يتهيأ له إدراك الإعجاز]:

فأما من كان **متناهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون في اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه.** فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة ـ فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، **لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه،** فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو.

كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر، وكما يميز بين الشعر الجيد والرديء، والفصيح والبديع، والنادر والبارع والغريب.

وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره، ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره، وإن كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر:

[تفاوت الناس في إدراك إعجازه]:

فمن كانت بصيرته أقوى، ومعرفته أبلغ، كان إلى القبول منه أسبق. ومن اشتبه عليه وجه الإعجاز، أو خفي عليه بعض شروط المعجزات وأدلة النبوات ـ كان أبطأ إلى القبول، حتى تكاملت أسبابه، واجتمعت له بصيرته

وترادفت عليه مواده.

ويبين ما قلناه: أن هذه الآية عَلَمٌ يلزم الكل قبوله والانقياد له، وقد علمنا تفاوت الناس في إدراكه، ومعرفة وجه دلالته.

[والخلاصة]:

أن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالاً، وكذلك من لم يكن بليغاً، فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة ـ فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه، كما أنه إذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك، فهو يعلم عجز غيره استدلالاً.

[هل مجرد العجز عنه آية؟]:

فإن قيل: فإن من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر، ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه. فكذلك البليغ؛ وإن علم عجز نفسه عن مثل القرآن، فهو يخفى عليه عجز غيره!!

قيل: هو مع مستقر العادة، وإن عجز عن قول الشعر، وعلم أنه مُفْحَم، فإنه يعلم أن الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم. ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن، علم عجز غيره عنه، وأنه كهو، لأنه يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء. . إذ **ليس في العادة مِثْلٌ للقرآن يجوز أن يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه.** فإذا لم يكن لذلك مِثْلٌ في العادة ـ وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام، وأنواع الخطاب، ووجد القرآن مُبَايناً لها ـ علم خروجه عن العادة، وجرى مجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات، فهو لا يُجَوِّزَه من نفسه، وكذلك لا يُجَوِّز وقوعه من غيره، إلا على وجه نقض العادة، بل يرى وقوعه موقع المعجزة.

[الفرق بين نتيجة عجزهم عن القرآن والمعجزات الأخرى]:

وهذا وإن كان يفارق فلق البحر، وإخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه، فهو أنه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه، بكونه ناقضاً للعادة، من غير تأمل شديد، ولا نظر بعيد. فإن النظر في **معرفة إعجاز القرآن يحتاج إلى تأمل، ويفتقر إلى مراعاة مقدمات، والكشف عن أمور** نحن ذاكروها بعد هذا الموضع. فكل واحد منهما يؤول إلى مثل حكم صاحبه، في الجمع الذي قدمناه.

[شواهد أن عجزهم عن القرآن حجةٌ]:

ومما يبين ما قلناه ـ: من أن البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة يعرف إعجاز القرآن، وتكون معرفته حجة عليه، إذا تُحُدِّيَ إليه وعجز عن مثله، وإن لم ينتظر وقوع التحدي في غيره، وما الذي يصنع ذلك بالغير؟! ـ فهو ما روي في الحديث أن جبير بن مطعم ورد على النبي ﷺ في مُعَنًّى حليف له، أراد أن يفاديه، فدخل والنبي ﷺ يقرأ سورة ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ في صلاة الفجر، قال: فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾، قال: خشيت أن يدركني العذاب. فأسلم[(١)].

وفي حديث آخر، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة (طه) فأسلم[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب الجهر بالمغرب ٧٣١، و٢٨٨٥، ٣٧٩٨، ٤٥٧٣، ومسلم كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح ٤٦٣ بلفظ: «في المغرب»، والآية في البخاري ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾. *المختصر.
وانظر: فتح الباري ٢٤٩/٧، والاصابة ٢٣٥/١ ـ ٢٣٦.

(٢) أخرج القصة ابن الجوزي في مناقب عمر ص١٥، والمقدسي في المختارة ١٣٩/٧، وابن سعد في الطبقات ٢٦٧/٣، والبزار في مسنده ٤٠١/١، والبيهقي في الدلائل ٢١٩/٢، والسنن ٨٨/١، والحاكم في المستدرك ٦٥/٤، وابن سعد في الطبقات ٢٦٧/٣ ـ ٢٦٩، وابن شبه في تاريخ المدينة ٢٢٢/٢ ـ ٢٢٤، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٣/١ ـ ٤٢٦، والاصابة ٢٨٠/٤، والسيرة النبوية الصحيحة ١٨٠/١ ـ ١٨١، ودراسة نقدية في رسالة: المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، لعبدالسلام بن محسن آل عيسى. *المختصر.

وقد روي أن قوله ﷻ في أول (حم) السجدة إلى قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [فصلت] نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، وأبي جهل. وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش، بعتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليكلمه، وكان حسن الحديث، عجيب البيان بليغ الكلام، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده فقرأ النبي ﷺ سورة (حم) السجدة، من أولها حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾، فوثب مخافة العذاب، فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يفهم منه كلمة واحدة، ولا اهتدى لجوابه[١].

ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد، فقال له عثمان بن مظعون: لتعلموا أنه من عند الله، إذ لم يهتد لجوابه[٢]. وأبين من ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦] فجعل سماعه حجة عليه بنفسه، فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه.

[لماذا تأخر إسلام بعض الفصحاء؟]:

فإن قيل: لو كان كذلك على ما قلتم، لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، على طريقة واحدة في إسلامهم عند سماعه.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢٠٣/٢، والحاكم بنحوه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي ـ المستدرك ٢٥٣/٢ ـ ٢٥٤، وذكره ابن كثير في التفسير ١٦٢/٧ بسند أبي يعلى والبغوي وفيهما الأجلح الكندي وقد ضُعِّفَ بعض الشيء. قال الهيثمي: وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد ١٩/٦، وحسن الألباني إسناده ـ هامش فقه السيرة للغزالي /١١٣. وانظر: الدر المنثور للسيوطي ٣١٠/٧ ـ ٣١١. والبداية والنهاية ٦٢/٣، وتاريخ الإسلام للذهبي قسم السيرة ص١٥٨. *المختصر.

(٢) لم أجد نسبة هذا القول عند غيره رَحِمَهُ اللَّهُ. *المختصر.

قيل له: لا يجب ذلك، لأن صوارفهم كانت كثيرة، منها أنهم كانوا يَشُكُّون:

١ ـ ففيهم من يشك في إثبات الخالق.

٢ ـ وفيهم من يشك في التوحيد.

٣ ـ وفيهم من يشك في النبوة، ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب، لما جاء إلى رسول الله ﷺ ليسلم عام الفتح، قال له النبي عليه السلام: أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى. فشهد، قال: أما آن لك أن تشهد أني رسول الله؟ قال: أما هذه ففي النفس منها شيء؟![1].

فكانت وجوه شكوكهم مختلفة، وطرق شبههم متباينة:

أ ـ فمنهم من قَلَّت شُبَهه، وتأمل الحجة حق تأملها ولم يستكبر، فأسلم.

ب ـ ومنهم من كَثُرت شُبَهه.

ج ـ أو أعرض عن تأمل الحجة حقَّ تأملها.

د ـ أو لم يكن في البلاغة على حدود النهاية.

فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر، وراعى واعتبر، واحتاج إلى أن يتأمل عجز غيره عن الإتيان بمثله، فلذلك وقف أمره.

ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة ـ لتوافوا إلى القبول جملة واحدة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) أخرج الرواية الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣٢٣/٣. وابن عساكر ٤٥٠/٢٣ ح٣٩١٠٤ قال الحافظ في المطالب ٤٦١/١٧ ح٤٣٠١ هذا حديث صحيح، وصححه البوصيري في إتحاف المهرة ٩٠/٥ ح٤٦٠٣، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٧/٦ رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح. *المختصر.

فصل
[عموم التحدي لأهل الأعصار المتتابعة]

فإن قال قائل: قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن كان من بعدهم من أهل الأعصار لم يعجزوا.

قيل: هذا سؤال معروف، وقد أجيب عنه بوجوه، منها ما هو صواب، ومنها ما فيه خلل: لأن من كان يجيب عنه: بأنهم لا يقدرون على معارضته في الأخبار عن الغيوب إن قدروا على مثل نظمه ـ فقد سَلَّم المسألة، لأنا ذكرنا أن نظمه معجز لا يُقْدَر عليه، فإذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده.

والوجه أن يقال فيه طرق:

منها: أنا إذا علمنا أن **أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول، مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم**، وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم، فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم، فلا.

ومنها: أنَّا قد عَلِمْنَا **عجز سائر أهل الأعصار كعِلْمِنَا بعجز أهل العصر الأول، والطريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد، لأن التحدي في الكل على جهة واحدة، والتنافس في الطباع على حَدٍ واحد، والتكليف على منهاج لا يختلف.** ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ

وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء].

❋ ❋ ❋

[القول بالصرفة: والجواب عليه عموماً]:

١ ـ فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟ وهلا قلتم: إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة ـ كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما **يصرفه الله عنه** ـ ضرباً من الصرف، أو **يمنعه** من الإتيان بمثله ضرباً من المنع، أو **تقصر دواعيه** إليه دونه، مع قدرته عليه ـ ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية والسورة؟

فالجواب: أن لو صح ذلك لصح لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت ـ أن ينظم القصائد ويقول الأشعار، وصح لكل ناطق ـ قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة ـ نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة! ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن.

٢ ـ على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه، ومنع من مقدار الفصاحة في نظمه، **كان أبلغ في الأعجوبة**، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا من معارضته، وعدلت دواعيهم عنه[(١)]، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب.

(١) وهذا القول ضعيف عنده وعند الأئمة لكن يقولون هذا على سبيل التقدير ـ فرض صحته ـ والتنزيل ـ أي مع الخصم، ليتبين فساده، وانظر الجواب الصحيح ٤٢٩/٥. *المختصر.

٣ ـ على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه، **لم يكن من قَبْلَهم من أهل الجاهلية مصروفين** عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف. لأنهم لم يتحدوا إليه، ولم تلزمهم حجته. فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله، علم أن ما ادعاه القائل «بالصرفة» ظاهر البطلان.

٤ ـ وفيه معنى آخر، وهو: أن أهل الصنعة في هذا الشأن **إذا سمعوا كلاماً مطمعاً لم يخف عليهم، ولم يشتبه لديهم**. ومن كان متناهياً في فصاحته لم يجز أن يطمع في مثل هذا القرآن بحال. فإن قال صاحب السؤال: إنه قد يطمع في ذلك.

قيل له: أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمي قد يضارع القرآن، وقد يزيد عليه في الفصاحة ولا يتحاشاه، ويحسب أن ما ألفه في الجزء والطفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظاً ومعنى! ولكن **ليس الكلام على ما يقدره مقدر في نفسه، ويحسبه ظان من أمره. والمرجوع في هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد**. ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، ونميزه في ذلك عن سائر أجناس الخطاب، ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بَيِّن الغلط، وأن هذا التقدير من جنس من حكى الله تعالى قوله في محكم كتابه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر] فهم يعبرون عن دعواهم: أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله، وأن ذلك من قول البشر، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذي يتجاوز إمكان معارضته.

٥ ـ ومما يبطل ما ذكروه من القول «بالصرفة» أنه لو كانت المعارضة ممكنة ـ وإنما منع منها «الصرفة» ـ **لم يكن الكلام معجزاً. وإنما يكون المنع هو المعجز**، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه.

وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم: أن الكل قادرون على

الإتيان بمثله، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به. ولا بأعجب من قول فريق منهم: إنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب، وأنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد.

[الردّ على قول: أنّ هِمَمَهُم لمعارضته ضعيفة]:

والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن: أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه ونبوته، وضَمَّن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم، **فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه، بأمر قريب، هو عادتهم في لسانهم، ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي. فلما لم تحصل هناك معارضة منهم، عُلِم أنهم عاجزون عنها.**

[الردّ على قول: أنّ بواعثهم لمعارضته غير متوفرة]:

يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد، لا سيما مع استعظامه ما بدهه بالمجيء من خلع آلهته، وتسفيه رأيه في ديانته، وتضليل آبائه، والتغريب عليه بما جاء به، وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته، والتصرف على حكم إرادته، والعدول عن إلفه وعادته، والانخراط في سلك الأتباع بعد أن كان متبوعاً، والتشييع بعد أن كان مشيعاً، وتحكيم الغير في ماله، وتسليطه إياه على جملة أحواله، والدخول تحت تكاليف شاقة، وعبادات متعبة، بقوله!! وقد عُلِم أن **بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه.** هذا، **والحمية حميتهم، والهمم الكبيرة هممهم**، وقد بذلوا له السيف فأخطروا بنفوسهم وأموالهم. فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين، أو ينقطع

دونه وتين، أو يشتمل به خاطر، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها متطلع، والرتبة التي ليس فوقها منزع؟!

ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، وتكذيب قوله، وتفريق جمعه، وتشتيت أسبابه، وكان من صَدَّق به يرجع على أعقابه، ويعود في مذهب أصحابه. فلما **لم يفعلوا شيئاً من ذلك، مع طول المدة، ووقوع الفسحة**، وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً، ويعلو شيئاً فشيئاً، وهم على العجز عن القدح في آيته، والطعن بما يؤثر في دلالته ـ **علم مما بينا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته، ولا على توهين حجته**. وقد أخبر الله تعالى عنهم: أنهم ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم]، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل].

❋ ❋ ❋

[الردّ على القول بالصرفة ـ صيغة أخرى]:

ويمكن أن يقال: إنهم لو كانوا قادرين على معارضته والإتيان بمثل ما أتى به:

١ ـ لم يجز أن **يتفق منهم ترك المعارضة**، وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلاقة[(١)]، والمعرفة بوجوه الفصاحة، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته، وأنهم يضعفون عن مجاراته. ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به، ويقرعهم ويؤنبهم عليه، ويدرك آماله فيهم، وينجح ما سعى له في تركهم المعارضة.

٢ ـ وهو **يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه، وتفخيم أمره**، حتى يتلو قوله

(١) في اللسان ١٢/٢٥: «وسلقه بلسانه يسلقه سلقاً: أسمعه ما يكره فأكثر، وسلقه بالكلام سلقاً: إذا آذاه، وهو شدة القول باللسان، وفي التنزيل: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي بالغوا فيكم بالكلام وخاصموكم في الغنيمة أشد مخاصمة وأبلغها».

تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر] وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. إلى غير ذلك من الآيات التي تتضمن تعظيم شأن القرآن. فمنها ما يتكرر في السورة في مواضع منها، ومنها ما ينفرد فيها. وذلك مما يدعوهم إلى المباراة، ويحضهم على المعارضة، وإن لم يكن متحدياً إليه؛ ألا ترى أنهم قد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضاً؟ ولهم في ذلك مواقف معروفة، وأخبار مشهورة، وآثار منقولة مذكورة. وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة، ويتبجحون بذلك، ويتفاخرون بينهم. **فلن يجوز ـ والحال هذه ـ أن يتغافلوا عن معارضته، لو كانوا قادرين عليها ـ تحداهم أو لم يتحدهم إليها.**

٣ ـ ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر، لوجب في ذلك أمر آخر، وهو: أنه لو كان مقدوراً للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه، وتعمل نظمه في الحال. فلما **لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق**، وخطبة متقدمة ورسالة سالفة، ونظم بديع، ولا عارضوه به فقالوا: هذا أفصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله ـ **علم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل**، وأنه لم يوجد له نظير.

٤ ـ وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب، وجاهدوه ونابذوه، وقطعوا الأرحام، وأخطروا بأنفسهم، وطالبوه بالآيات والإتيان بالملائكة وغير ذلك من المعجزات، **يريدون تعجيزه ليظهروا عليه بوجه من الوجوه.**

فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم ـ وذلك يدحض حجته، ويفسد دلالته، ويبطل أمره ـ فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة، ويتركون الأمر الخفيف؟! هذا مما يمتنع وقوعه في العادات، ولا يجوز اتفاقه من العقلاء. وإلى هذا الموضع قد استقصى أهل العلم الكلام، وأكثروا في هذا المعنى وأحكموه.

❋ ❋ ❋

[الردّ على قول: أنّهم عارضوه ولم ينقل إلينا]

ولو كان وجد له مثل لكان ينقل إلينا، ولعرفناه، كما نُقِلَ إلينا أشعار أهل الجاهلية، وكلام الفصحاء والحكماء من العرب، وأُدِّيَ إلينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد، وغير ذلك من أنواع بلاغاتهم، وصنوف فصاحاتهم.

وعُلِم أيضاً ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن، مما حكى الله ﷻ عنهم في قولهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال] وقولهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص] ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر] وقالوا: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] وقالوا: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان]، ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر].

إلى آيات كثيرة في نحو هذا، تدل على أنهم **كانوا متحيرين في أمرهم، متعجبين من عجزهم، يفزعون إلى نحو هذه الأمور**: من تعليل وتعذير، ومدافعة بما وقع التحدي إليه، ووجد الحث عليه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فصل
في قدر المعجز من القرآن

الذي ذهب إليه عامة أصحابنا ـ وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري في كتبه ـ أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها. قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة، وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز[(١)]. قال: ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر.

وذهبت المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة. وقد حُكِيَ عنهم نحو قولنا، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة، بل شرط الآيات الكثيرة.

وقد علمنا أنه تحداهم تحدياً إلى السور كلها، ولم يخص، ولم يأتوا لشيء منها بمثل، فعلم أن جميع ذلك معجز. وأما قوله ﷻ: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] فليس بمخالف لهذا، لأن الحديث التام لا

(١) أكثر العلماء على أن السورة القصيرة معجزة أو ما هو بقدر السورة القصيرة من الآيات. وانظر اعجاز القرآن للباقلاني ٢٥٤، قال ابن كثير ٦٢/١ ط. دار المعرفة ١٣٨٨هـ وط. ابن الجوزي ١٤٣١ ـ ٣٠٨/١: «فالاعجاز حاصل في طوال السور وقصارها وهذا **ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً**». اهـ. وانظر أيضاً البرهان ١٠٨/٢، والإتقان ١٧/٤ وذكروا لذلك أقصر سورة وهي الكوثر وما فيها من وجوه الإعجاز. ولا عبرة بمن شذَّ قوله عمَّا ذكر ابن كثير كبعض المعتزلة والمزدارية والحسينية. *المختصر.

تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة. وهذا يؤكد ما ذهب إليه أصحابنا ويؤيده، وإن كان قد يُتَأول قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ على أن يكون راجعاً إلى القبيل دون التفصيل[١].

وكذلك يحمل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] على القبيل، لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الإتيان بجميعه من أوله إلى آخره.

فإن قيل: هل تعرفون إعجاز السور القصار بما تعرفون إعجاز السور الطوال؟

وهل تعرفون إعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذي قدرتموه بمثل ما تعرفون به إعجاز سورة البقرة ونحوها؟

فالجواب: أن شيخنا أبا الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ أجاب عن ذلك: بأن **كل سورة قد عُلِم كونها معجزة بعجز العرب عنها.**

وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن، يقول: إن ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفاً. والطريقة الأولى أَسَدُّ. وليس هذا الذي ذكرناه أخيراً بمناف له، لأنه **لا يمتنع أن يعلم إعجازه بطرق مختلفة تتوافى عليه وتجتمع فيه.** واعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبة ضرباً من الفائدة، لأن الطريقة الأولى تبين أن **ما عُلِم به كون جميع القرآن معجزاً ـ موجود في كل سورة،** صَغُرت أو كَبُرت، فيجب أن يكون الحكم في الكل واحداً.

والطريقة الأخيرة تتضمن تعذر معرفة إعجاز القرآن بالطريقة التي سلكناها في كتابنا من التفصيل الذي بينا، فيما تعرف به في الكلام الفصاحة، وتتبين به البلاغة، حتى يعلم ذلك بوجه آخر، فيستوي في هذا

(١) لم نتوصل لمن يُشير الإمام إلى قولهم، ولكن هذا رأي شيخ الاسلام ابن تيمية، وذكره عن بعض أصحاب الإمام أحمد **أن الآية والآيتين معجزة.** وانظر: مجموع الفتاوى ٢٠/٤٨١ ـ ٤٨٢، و١٦/٥٣٦، ورسالة: ابن تيمية ومنهجه في التفسير د.ناصر بن محمد الحميد دكتوراه جامعة الإمام ج١ ص٢٢٧. *المختصر.

القدر البليغ وغيره في أن لا يعلمه معجزاً حتى يستدل به من وجه آخر سوى ما يعلمه البلغاء من التقدم في الصنعة، وهذا غير ممتنع. ألا ترى أن **الإعجاز في بعض السور والآيات أظهر، وفي بعضها أغمض وأدق؟** فلا يفتقر البليغ في النظر في حال بعضها إلى تأمل كثير، ولا بحث شديد، حتى يتبين له الإعجاز. ويفتقر في بعضها إلى نظر دقيق وبحث لطيف، حتى يقع على الجلية، ويصل إلى المطلب. ولا يمتنع أن **يذهب عليه الوجه في بعض السور، فيحتاج أن يفزع فيه إلى إجماع أو توقيف، أو ما علمه من عجز العرب** قاطبة عنه.

فإن ادعى ملحد، أو زعم زنديق، أنه لا يقع العجز عن الإتيان بمثل السور القصار أو الآيات بهذا المقدار! قلنا له: إن الإعجاز قد حصل بما بيناه، وعرف بما وقفنا عليه من عجز العرب عنه.

ثم فيه شيء آخر، وهو: أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد، لأنه يزعم أنه ليس في القرآن كله إعجاز، فكيف يجوز أن نناظره على تفصيله؟! **وإذا ثبت لنا معه إعجازه في السور الطوال، قامت الحجة عليه، وثبتت المعجزة،** ولا معنى لطلبه لكثرة الأدلة والمعجزات. ونحن نعلم أن إعجاز البعض بما بيناه، والبعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا، لأنا عرفنا في البعض الإعجاز بما بينا، ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف، ونحو ذلك. وليس بممتنع اختلاف حال الكلام، حتى **يكون الإعجاز على بعضه أظهر، وفي بعضه أغمض،** ومن آمن ببعض دون بعض كان مذموماً، على ما قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع، وإن كنا نقول: إنه يدل على أن الشفاء في جميعه.

فأما ما قلنا: من أن ما بلغ قدر السورة معجز، فإن ذلك صحيح.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

[الفرق بين إعجاز القرآن وغيره]

[١ ـ الكتب المنزلة من الله]:

فإن قيل: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله ﷻ معجز، كالتوراة والإنجيل والصحف؟ قيل: **ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن** من الأخبار عن الغيوب. وإنما لم يكن معجزاً لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن. ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن.

ولمعنى آخر؛ وهو: أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة، ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز، ولكنه يتقارب. وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة، ويقولون: ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب.

ويمكن بيان ذلك بأنَّا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد، من الأسماء ما نعرف من اللغة، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات، ووجوه الاستعمالات البديعة، التي يجيء تفصيلها بعد هذا. ويشهد لذلك من القرآن: أن الله تعالى وصفه بأنه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]، وكرر ذلك في مواضع كثيرة، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجمياً. فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد مثل فصاحته، لم يكن

ليرفعه عن هذه المنزلة. وأنه وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله: إنه عربي مبين، أنه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم، ولا يحتاجون في تفسيره إلى سواهم، فلا يمتنع أن يفيد ما قلناه أيضاً، كما أفاد بظاهره ما قدمناه. ويبين ذلك أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة، وهم من أهل البراعة فيها، وفي العربية، فقد وقفوا على أنه ليس فيها من التفاضل والفصاحة، ما يقع في العربية. ويبين هذا أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة، على ما قد اتفق في العربية. وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية، وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية.

ومعنى آخر؛ وهو أنا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم، ولا ادعى لهم المسلمون. فعلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن.

[٢ ـ كتب الديانات والحكماء]:

فإن قيل: فإن المجوس تزعم أن كتاب زرادشت، وكتاب ماني معجزان؟ قيل: الذي يتضمنه كتاب ماني، من طرق النيرنجات[١] **وضروب من الشعوذة، ليس يقع فيه إعجاز**. ويزعمون أن في الكتاب الحكم، وهي **حكم منقولة، متداولة على الألسن لا تختص بها أمة دون أمة**، وإن كان بعضهم أكثر اهتماماً بها، وتحصيلاً لها، وجمعاً لأبوابها.

[٣ ـ كتب الأدباء]:

وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى: الدرة والتليمية؛ وهما كتابان: أحدهما يتضمن حِكَماً منقولة، توجد عند حكماء

(١) النيرنجات: ضروب من السحر وليست به، إنما هي تخييل وتلبيس. كما في تاج العروس ٢/١٠٥.

كل أمة مذكورة بالفضل. **فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى.**

والآخر في شيء من الديانات، وقد **تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل.** وكتابه الذي بيناه في الحكم، منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة. فأي صنع له في ذلك؟ وأي فضيلة حازها فيما جاء به؟

وبعد، فليس يوجد له كتاب يدعي مدع أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه **اشتغل بذلك مدة، ثم مزق ما جمع، واستحيا لنفسه من إظهاره.** فإن كان كذلك، فقد أصاب وأبصر القصد. ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء ثم يلوح له رشده، ويتبين له أمره، وينكشف له عجزه. **ولو كان بقي على اشتباه الحال عليه، لم يخف علينا موضع غفلته،** ولم يشتبه لدينا وجه شبهته.

ومتى أمكن أن تدَّعِيَ الفرس في شيء من كتبها أنه معجز في حسن تأليفه، وعجيب نظمه؟

فصل
في جملة وجوه إعجاز القرآن

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز:

أحدها: أنه يتضمن الإخبار عن الغيوب، والصدق والإصابة في ذلك كله ـ وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه. فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام؛ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]، ففعل ذلك.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله، من إظهار دينه. ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل كذلك في أيامه، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه، فكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وغيره من أمراء الجيوش ـ من جهته ـ يذكر ذلك لأصحابه، ويحرضهم به، ويوثق لهم. وكانوا يلقون الظفر في متوجهاتهم، حتى فتح إلى آخر أيام عمر رضي الله عنه إلى بلخ، وبلاد الهند، وفتح في أيامه مرو الشاهجان، ومرو الروذ، ومنعهم من العبور إلى جيحون. وكذلك فتح في أيامه فارس إلى إصطخر، وكرمان، ومكران، وسجستان، وجميع ما كان من مملكة كسرى، وكل ما كان يملكه ملوك فارس، بين البحرين من الفرات إلى جيحون. وأزال ملك ملوك الفرس، فلم يعد إلى اليوم ولا يعود أبداً ـ إن شاء الله تعالى ـ ثم إلى حدود أرمينية، وإلى باب

الأبواب. وفتح أيضاً ناحية الشام، والأردن، وفلسطين، وفسطاط مصر، وأزال ملك قيصر عنها، وذلك من الفرات إلى بحر مصر، وهو ملك قيصر. وغزت الخيول في أيامه إلى عمورية، فأخذ الضواحي كلها، ولم يبق منها إلا ما حجز دونه بحر، أو حال عنه جبل منيع، أو أرض خشنة، أو بادية غير مسلوكة.

وقال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران]، فصدق فيه. وقال في أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، ووفى لهم بما وعد.

وكقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] فأغزاهم أبو بكر وعمر ﷺ، إلى قتال العرب والفرس والروم.

وكقوله: ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]، وراهن أبو بكر الصديق ﷺ في ذلك، وصدق الله وعده. وكقوله في قصة أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] وكقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] وكقوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾ [الفتح: ٢٤]. وكقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]. وصدق الله تعالى وعده في ذلك كله.

وقال في قصة المخلفين عنه في غزوته: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ﴾ [التوبة: ٨٣]. فحق ذلك كله وصدق، ولم يخرج من المنافقين الذين خوطبوا بذلك معه ـ أحد.

وكقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة ٢٣]، وكقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران]،

فامتنعوا من المباهلة، ولو أجابوا إليها اضطرمت عليهم الأودية ناراً، على ما ذُكِر في الخبر[(١)].

وكقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٥] ولو تمنوه لوقع بهم. فهذا وما أشبهه فصلٌ.

وجمع الآيات التي يتضمنها القرآن ـ من الأخبار عن الغيوب ـ يكثر جداً، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل.

❋ ❋ ❋

والوجه الثاني: إخباره من قصص الأولين، وسير المتقدمين فمن العجيب الممتنع على من لم يقف على الأخبار، ولم يشتغل بدرس الآثار[(٢)]. وقد حَكَى في القرآن تلك الأمور حِكَاية من شَهِدَها وحضرها.

مع أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ، أنه كان أُمِيًّا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجُمَل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام،

(١) معالم التنزيل للبغوي ٤٨/٢ والبسيط للواحدي ٣٢١/٥ وأسباب نزول القرآن له ص٩٩، وأصل القصة في البخاري، وما ذكره ضَعِيف رِوَاية. وانظر: العُجاب لابن حجر ٦٨٢/٢ ـ ٦٨٧. *المختصر.

(٢) قال المؤلف في كتاب التمهيد ص١٣٠: «والوجه الآخر: ما انطوى عليه القرآن من قصص الاولين وسير الماضين، وأحاديث المتقدمين، وذكر ما شجر بينهم وكان في أعصارهم، مما لا يجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السير، ودرسه لها وعنايته بها، ومجالسته لأهلها، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها، مع العلم بأن النبي ﷺ لم يكن يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه، وأنه لم يكن ممن يعرف بدراسة الكتب ومجالسة أهل السير والأخذ عنهم، ولا لقي إلا من لقوه، ولا عرف إلا من عرفوه، وأنهم يعرفون دأبه وديدنه، ومنشأه وتصرفه، في حال إقامته بينهم وظعنه عنهم، فدل ذلك على أن المخبر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه علام الغيوب».

إلى حين مبعثه، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له: قصة آدم عليه السلام، وابتداء خلقه. وما صار أمره إليه من الخروج من الجنة. ثم جُمَلاً من أمر ولده وأحواله وتوبته، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه، وما انتهى إليه أمرهم. وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام، إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين في القرآن، والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء، صلوات الله عليهم.

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه، إلَّا عن تَعَلُّم، وإذ كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ـ عُلِم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي. ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص]. وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]. فبين وجه دلالته من إخباره بهذه الأمور الغائبة السالفة. وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

وقد بَيَّنَا أن من كان يختلف إلى تَعَلُّم عِلْم، ويشتغل بملابسة أهل صنعة، لم يخف على الناس أمره، ولم يشتبه عندهم مذهبه، وقد كان يُعرف فيهم من يحسن هذا العلم، وإن كان نادراً، وكذلك كان يعرف من يختلف إليه للتعلم، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره.

❋ ❋ ❋

والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعْلَم عجز الخلق عنه. والذي أطلقه العلماء هو على هذه

الجملة، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها.

فالذي يشتمل عليه بديع نظمه، المتضمن للإعجاز وجوه:

١ ـ منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه ـ **خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم**، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى: أعاريض الشعر، على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالاً، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يُتَعَمَّل فيه، ولا يتصنع له.

وقد علمنا أن **القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق.** ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع، ومنهم من يدعي فيه شعراً كثيراً. والكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع. فهذا إذا تأمله المتأمل تبين ـ بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم ـ **أنه خارج عن العادة، وأنه معجز.** وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتَمَيُّز حاصل في جميعه.

❋ ❋ ❋

٢ ـ ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر. وإنما تُنْسَبُ إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نبديه من التَعَمُّل والتكلف،

والتجوز والتعسف. وقد حصل **القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة**، على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء] فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إنْ امتد وقع فيه التفاوت، وبان عليه الاختلال.

وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره، فتأمله تعرف الفصل.

❋ ❋ ❋

٣ ـ وفي ذلك معنى ثالث: وهو **أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين**، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة. وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المُفْلِق، والخطيب المُصْقِع ـ يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من يُجَوِّد في المدح دون الهجو. ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح. ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين. ومنهم من يُجَوِّد في التأبين دون التقريظ. ومنهم من يُغْرِب في وصف الإبل أو الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام، ولذلك ضُرِب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب. ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ، رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم، لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر، ولا شك

في تبريزهم في مذهب النظم. فإذا كان الاختلال يتأتى في شعرهم، لاختلاف ما يتصرفون فيه، استغنينا عن ذكر من هو دونهم. وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها. ثم نجد من الشعراء من يجود في الرجز، ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً. ومنهم من ينظم القصيد، ولكن يقصر تقصيراً عجيباً، ويقع ذلك من رجزه موقعاً بعيداً. ومنهم من يبلغ في القصيدة الرتبة العالية، ولا ينظم الرجز، أو يقصر فيه مهما تكلفه أو تعمله. ومن الناس من يجود في الكلام المرسل، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاناً بيناً. ومنهم من يوجد بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه ـ التي قدمنا ذكرها ـ **على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا**، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا **ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف**. وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بيناً، ويختلف اختلافاً كبيراً. ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة. فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب التي يتضمن.

❋ ❋ ❋

٤ ـ ومعنى رابع: وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بَيِّناً في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع. ألا ترى أن كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه. حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري، مع جودة نظمه، وحسن وصفه ـ في الخروج من النسيب إلى

المديح. وأطبقوا على أنه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيء، وإنما اتفق له ـ في مواضع معدودة ـ خروج يرتضى، وتنقل يستحسن. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب. ونحن نفصل بعد هذا، ونفسر هذه الجملة، ونبين أن القرآن ـ على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة ـ **يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد**. وهذا أمر عجيب، تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

❋ ❋ ❋

٥ ـ ومعنى خامس: وهو أن **نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن**، كما يخرج عن عادة كلام الإنس. فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

فإن قيل: هذه دعوى منكم، وذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن الإتيان بمثله، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله، وإن كنا عاجزين، كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة، وأسباب غامضة دقيقة، لا نقدر نحن عليها، ولا سبيل لنا ـ للطفها ـ إليها. وإذا كان كذلك، لم يكن إلى علم ما ادعيتم سبيل.

قيل: قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله ﷻ.

وقد يمكن أن يقال: إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن، وما يروون لهم من الشعر، ويحكون عنهم من الكلام، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم. والقدر الذي نقلوه من ذلك قد تأملناه، فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس، ولعله يقصر عنها. ولا يمتنع أن يسمع كلامهم، ويقع بينهم وبينهم محاورات في عهد

الأنبياء، صلوات الله عليهم، وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات. وإذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم، ويحكون عنهم، وذلك القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب ـ صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه كعجز الإنس.

ويبين ذلك من القرآن: أن الله تعالى حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف] إلى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه. فإذا ثبت أنه وصف كلامهم، ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم، صح أن يوصف الشيء المألوف بأنه ينحط عن درجة القرآن في الفصاحة.

وهذان الجوابان أسد عندي من جواب بعض المتكلمين عنه، بأن عجز الإنس عن القرآن يثبت له حكم الإعجاز، فلا يعتبر غيره. ألا ترى أنه لو عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه، فقال لنا قائل: فدلوا على أن الملائكة تعجز عن الإتيان بمثله، لم يكن لنا في الجواب غير هذه الطريقة التي قد بيناها. وإنما ضعفنا هذا الجواب، لأن الذي حكى وذكر عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله ـ فيجب أن نعلم عجز الجن عنه، كما علمنا عجز الإنس عنه. ولو كان وصف عجز الملائكة عنه، لوجب أن نعرف ذلك أيضاً بطريقه[1].

فإن قيل: أنتم قد انتهيتم إلى ذكر الإعجاز في التفاصيل، وهذا الفصل إنما يدل على الإعجاز في الجملة؟ قيل: هذا كما أنه يدل على الجملة، فإنه يدل على التفصيل أيضاً، فصح أن يلحق هذا القبيل. كما كان يصح أن يلحق بباب الجُمل.

❋ ❋ ❋

(١) هذه من المسائل الكلامية الافتراضية، والفرق بين الجن ـ المذكورون قرناء مع الإنس في آيات التحدي، والمخاطبون بالعبادة والتكليف ـ وبين الملائكة يُكْتَفى فيه بالنص دون العلل التي ربما خفيت دلالتها. *المختصر.

٦ ـ ومعنى سادس: وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب، من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من **الوجوه التي توجد في كلامهم ـ موجودة في القرآن. وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم**، في الفصاحة والإبداع والبلاغة. وقد ضَمِنَّا بيان ذلك من بعد، لأن الوَجْه هاهنا ذكر المقدمات، دون البسط والتفصيل.

❋ ❋ ❋

٧ ـ ومعنى سابع، وهو أن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع، وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا **برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب** من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه ـ بان التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر ـ فالبراعة أظهر، والفصاحة أتَمَّ.

❋ ❋ ❋

٨ ـ ومعنى ثامن، وهو أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها بادياً غامراً سائر ما تقرن به، كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد. وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه **بتميزه وتخصصه**، برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه، وهذا الفصل أيضاً مما يحتاج فيه إلى

تفصيل وشرح ونص، ليتحقق ما ادَّعيناه منه.

[إعجاز القرآن في الأحرف المقطعة]

٩ ـ ومعنى تاسع، وهو:

أ ـ أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً. وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة. وجملة ما **ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً**. ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم. ويشبه أن يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الألف، لأن الألف قد تلغى، وقد تقع الهمزة وهي موقعاً واحداً.

ب ـ والذي تنقسم إليه هذه الحروف على ما قَسَّمَه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها ـ أقسام، نحن ذاكروها: فمن ذلك أنهم قسموها إلى حروف مهموسة وأخرى مجهورة. فالمهموسة منها عشرة، وهي: الحاء، والهاء، والخاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء، والتاء، والصاد، والسين. وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة.

وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور. وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء، لا زيادة ولا نقصان.

والمجهور معناه: أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع أن يجري معه النفس حتى ينقضي الاعتماد، ويجري الصوت. والمهموس: كل حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس. وذلك مما يحتاج إلى معرفته لتُبنى عليه أصول العربية.

وكذلك مما يقسمون إليه الحروف، يقولون: إنها على ضربين: أحدهما حروف الحلق، وهي ستة أحرف: العين، والحاء، والهمزة، والهاء، والخاء، والغين. والنصف الآخر من هذه الحروف مذكور في جملة

الحروف التي تشتمل عليها الحروف المثبتة في أوائل السور، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق.

وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين: أحدهما حروف غير شديدة، وإلى الحروف الشديدة، وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه، وهي الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والظاء، والذال، والطاء، والباء[١]. وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضاً هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بنى عليها تلك السور.

ومن ذلك الحروف المطبقة، وهي أربعة أحرف، وما سواها منفتحة، فالمطبقة: الطاء، والظاء، والصاد، والضاد. وقد علمنا أن نصف هذه الحروف في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور.

وإذا كان القوم ـ الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ ـ رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد **نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر، على حد التنصيف الذي وصفنا ـ دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه ـ بعد العهد الطويل ـ لا يجوز أن يقع إلا من الله** ﷻ، **لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب.** وإن كان إنما تنبهوا على ما بني عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان، فذلك أيضاً من البديع الذي **يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان.** فإن كان أصل اللغة توقيفاً فالأمر في ذلك أَبْيَن. وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً، لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى. وكل ذلك **يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه.**

(١) لعل العبارة فيها تصحيف!! والصحيح أنها «التاء والدال» وليست «الظاء والذال». *المختصر.

ج ـ وكذلك بنى أمر الحروف التي ابتدئ بها السور على هذا: **فأكثر هذه السور التي ابتدئت بذكر الحروف، ذكر فيها ثلاثة أحرف. وما هو أربعة أحرف سورتان. وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان.**

فأما ما بدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه: فمنهم من لم يجعل ذلك حرفاً، وإنما جعله فعلاً واسماً لشيء خاص. ومن جعل ذلك حرفاً قال: أراد أن يحقق الحروف مفردها ومنظومها. ولضيق ما سوى كلام العرب، أو لخروجه عن الاعتدال ـ يتكرر في بعض الألسنة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيراً، كنحو تكرر الطاء والسين في لسان يونان، وكنحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك، ولذلك لا يمكن أن ينظم من الشعر في تلك الالسنة على الأعاريض التي تمكن في اللغة العربية. والعربية أشدها تمكناً، وأشرفها تصرفاً وأعدلها، ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن، وعلق بها الإعجاز، وصار دلالة في النبوة.

د ـ وقد يمكن أن **تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها في النظم**، إذا كانت حروفاً، كنحو ﴿الٓمٓ﴾ لأن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلعاً، واللام متوسطة، والميم متطرفة، لأنها تأخذ في الشفة. فنبه بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين.

❋ ❋ ❋

١٠ ـ ومعنى عاشر، وهو: أنه **سهل سبيله**، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة. وجعله قريباً إلى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس. وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه، أو يظفر به.

فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل، والقول المسفسف، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة، فيطلب فيه الممتنع،

أو يوضع فيه الإعجاز. ولكن لو وضع في وحشي مستكره، أو غمر بوجوه الصنعة، وأطبق بأبواب التعسف والتكلف ـ لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر، أو يعيب ويقرع. ولكنه **أوضح مناره، وقرب منهاجه، وسهل سبيله، وجعله في ذلك متشابهاً متماثلاً، وبين مع ذلك إعجازهم فيه.**

وقد علمت أن كلام فصحائهم، وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف في غريب مستنكر، أو وحشي مستكره، ومعان مستبعدة. ثم عدولهم إلى كلام مبتذل وضيع لا يوجد دونه في الرتبة، ثم تحولهم إلى كلام معتدل بين الأمرين، متصرف بين المنزلتين.

فمن شاء أن يتحقق هذا نظر في قصيدة امرئ القيس: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف إليه هذه القصيدة ونظائرها ومنزلتها من البلاغة، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها، على وجه يؤخذ باليد، ويتناول من كثب، ويتصور في النفس كتصور الأشكال، ليتبين ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن.

[العلل العقلية تصلح وجهاً في الإعجاز غير مستقل بنفسه]:

واعلم أن من قال من أصحابنا: إن الأحكام معللة بعلل موافقة لمقتضى العقل ـ جعل هذا وجهاً من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالة فيه، كنحو ما يعللون به الصلاة، ومعظم الفروض وأصولها. ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة، ووجوه تستحسن. وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك، ولكن الأصل الذي يبنون عليه عندنا غير مستقيم.

وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من المعاني الزيادة والإفراد، فإنا جمعنا بين أمور، وذكرنا المزية المتعلقة بها، وكل واحد من تلك الأمور مما قد يمكن اعتماده في إظهار الإعجاز فيه.

[تكرار القصص ووجه الإعجاز فيه]:

والفائدة عندنا هي: أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب، الذي تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة. وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونُبِّهُوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدءاً به ومكرراً. ولو كان فيهم تَمَكُّن من المعارضة لقصدوا تلك القصة وعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي تلك المعاني ونحوها، وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه، وإلى مساواته فيما حكى وجاء به. وكيف وقد قال لهم: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور].

فعلى هذا يكون المقصد ـ بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها ـ إظهار الإعجاز على الطريقين جميعاً، دون السجع الذي توهموه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فصل
في شرح ما بينا من وجوه إعجاز القرآن

[خروج القرآن عن نظام كلام العرب المعتاد]:

فأما الكلام في أنَّا قلنا: إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم، ومن ادَّعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر، ولا السجع، ولا الكلام الموزون غير المقفى، لأن قوماً من كفار قريش ادَّعوا أنه شعر، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعراً، ومن أهل الملة من يقول: إنه كلام مُسَجَّع، إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم. ومنهم من يَدَّعي أنه كلام موزون. فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب.

قد نسخت لك جُمَلا من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن.

فتأمل ذلك، وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف، وأهل البيان واللسن، والفصاحة والفطن، والألفاظ المنثورة، والمخاطبات الدائرة بينهم، والأمثال المنقولة عنهم. ثم انظر ـ بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل ـ في ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن **نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة.** فإن خُيِّل إليك، أو

شُبِّه عليك، وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن، لأن الشعر أفصح من الخطب، وأبرع من الرسائل، وأدق مسلكاً من جميع أصناف المحاورات ـ ولذلك قالوا له ﷺ: هو شاعر أو ساحر ـ وسَوَّل إليك الشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب، وأرق وأبرع، وأحسن الكلام وأبدع ـ فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين، وكلام بين المحققين.

[ليس القرآن خارجاً عن لغة العرب]:

فإن قال قائل: القرآن مختلط من أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطبهم، ورسائلهم وشعرهم وسجعهم، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفى، ولكنه أبدع فيه ضرباً من الإبداع، لبراعته وفصاحته.

قيل: قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى نظم ونثر، وكلام مقفى غير موزون وكلام موزون غير مقفى، ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع، ونظم مقفى موزون له روي.

ومن هذه الأقسام ما هو سجية الأغلب من الناس، فتناوله أقرب، وسلوكه لا يتعذر. ومنه ما هو أصعب تناولاً، كالموزون عند بعضهم، والشعر عند الآخرين. وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن تقع لهم بأحد أمرين: إما بِتَعَمُّل وتكلف وتَعَلُّم وتصنع، أو باتفاق من الطبع وقذف من النفس على اللسان للحاجة إليه. ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع؛ لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم، ويعرض على ألسنتهم، وتجيش به خواطرهم، ولا ينصرف عنه الكل، مع شدة الدواعي إليه. ولو كان طَرِيْقُه التَّعَلُّم لتصنعوه ولتعلموه، والمهلة لهم فسيحة، والأمد واسع.

[فصاحة وبلاغة وبراعة القرآن متميزة عمّا يتصنعه الناس]:

فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن، وموقع بلاغته، وعجيب براعته ـ فما عليك منه، إنما يخبر عن نقصه، ويدل على عجزه، ويبينُ عن جهله، ويُصَرِّح بسخافة فهمه، وركاكة عقله.

وإنما قدمنا ما قدمناه في هذا الفصل، لتعرف أن ما ادَّعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه، أمر لا يجوز غيره، ولا يحتمل سواه، ولا يشتبه على ذي بصيرة، ولا يخيل عند أخي معرفة، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية، وبين المخضرمين، وبين المُحْدَثين، ويميز بين من يجري على شاكلة طبعه وغريزة نفسه، وبين من يشتغل بالتكلف والتصنع، وبين من يصير التكلف له كالمطبوع، وبين من كان مطبوعه كالمتعمل المصنوع.

هيهات هيهات!! هذا أمر ـ وإن دَقَّ ـ فله قوم يقتلونه علماً، وأهل يحيطون به فهماً، ويعرِّفونه إليك إن شئت، ويصورونه لديك إن أردت، ويجلونه على خواطرك إن أحببت، ويعرفونه لفطنتك إن حاولت، وقد قال القائل:

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا ولـلـدواويـن كُـتَّـاب وحُـسَّـاب

ولكل عمل رجال، ولكل صنعة ناس، وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط، ولكن قد قل من يميز في هذا الفن خاصة، وذهب من يحصل في هذا الشأن، إلَّا قليلاً! فإن كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها ـ من التناهي في معرفة الفصاحات، والتحقق بمجاري البلاغات ـ فإنما يكفيك التأمل، ويغنيك التصور. وإن كنت في الصنعة مُرْمِداً، وفي المعرفة بها متوسطاً، فلا بد لك من التقليد، ولا غنى بك عن التسليم. إن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها، والشادي فيها كالبائن منها. فإن أراد أن نُقَرِّب عليه أمراً، ونفسح له طريقاً، ونفتح له باباً ـ ليعرف به إعجاز القرآن ـ فإنَّا نضع بين يديه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصور له صور كل قبيل من النظم والنثر، ونحضره من كل فن من القول شيئاً يتأمله حقَّ تأمله، ويراعيه حق رعايته، فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد، ويقع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية، الطالع عن الإلٰهية، الجامع بين الحُكْم والحِكَم، والأخبار عن الغيوب والغائبات، والمتضمن لمصالح الدنيا والدين، والمستوعب لجلية اليقين، والمعاني المخترعة في تأسيس

أصل الشريعة وفروعها بالألفاظ الشريفة، على تفنُّنِها وتصرفها. ونعمد إلى شيء من الشعر المُجْمَع عليه، فنبين وجه النقص فيه، وندل على انحطاط رتبته، ووقوع أبواب الخلل فيه، حتى إذا تأمل ذلك، وتأمل ما نذكره ـ من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته، وعجيب براعته ـ انكشف له واتضح، وثبت ما وصفناه لديه ووضح، وليعرف حدود البلاغة، ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة.

والذي يصور عندك ما ضَمِنَّا تصويره، ويحصل لديك معرفته ـ إذا كنت في صنعة الأدب متوسطاً، وفي علم العربية متبيناً ـ أن تنظر أولاً في نظم القرآن، ثم في شيء من كلام النبي ﷺ، فتعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين.

فإن تبين لك الفصل، ووقعت على جَلِّية الأمر وحقيقة الفرق ـ فقد أدركت الغرض، وصادفت المقصد. وإن لم تفهم الفرق، ولم تقع على الفصل ـ فلا بد لك من التقليد، وعلمت أنك من جملة العامة، وأن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان.

❋ ❋ ❋

نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه:

فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضل في وصفه.

ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض، وتستولي به على الأمد، وتصل به إلى المقصد، وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر، وأقرب عليك الغامض، وأسهل لك العسير. واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه. وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر. وكيف لا يكون كذلك: وأنت تحسب أن وضع «الصبح» في موضع «الفجر» يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً؟ وليس كذلك، فإن إحدى

اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرانها، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى ـ لو وضعت موضعها ـ في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار. ولا أكثر عليك المثال، ولا أضرب لك فيه الأمثال، وأرجع بك إلى ما وعدتك من الدلالة، وضمنت لك من تقريب المقالة.

فإن كنت لا تعرف الفصل الذي بَيَّنَا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام، ومتصرفات مجاري النظام، لم تستفد مِمَّا نقربه عليك شيئاً، وكان التقليد أولى بك، والاتباع أوجب عليك. ولكل شيء سبب، ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه، ولا بلوغ غايته من غير سبيله.

❋ ❋ ❋

خذ الآن ـ هداك الله ـ في تفريغ الفكر، وتخلية البال، وانظر فيما نعرض عليك، ونهديه إليك، متوكلاً على الله، ومعتصماً به، ومستعيذاً به، من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم.

[١ ـ إعجاز القرآن في أسمائه وأوصافه وأثره]:

[أ ـ أسماؤه]:

سماه الله عز ذكره: «حكيماً»، و«عظيماً»، و«مجيداً».

وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد: ٣١].

وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني، حدثنا أبو عبدالرحمٰن أحمد بن عثمان، حدثنا أبو يوسف الصيدلاني، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري الطائي، عن الحارث الأعور، عن علي ﷺ، قال: قيل: يا رسول الله، إن أمتك ستفتتن من بعدك، فسأل أو سُئِل: ما المخرج من ذلك؟ فقال: «بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى العلم في غيره أضله الله، ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله، وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم. فيه خبر من قبلكم، وتبيان من بعدكم، وهو فصل، ليس بالهزل. وهو الذي لما سمعته الجن قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن] لا يخلق على طول الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه»[(١)].

وأخبرني أحمد بن علي بن الحسن، أخبرنا أبي، أخبرنا بشر بن عبدالوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد الله، حدثنا المسيب بن شريك، عن عبيدة[(٢)]، عن أسامة بن أبي عطاء[(٣)]، قال: أرسل النبي ﷺ إلى علي ﷺ في ليلة، فذكر نحو ذلك في المعنى، وفي بعض ألفاظه اختلاف.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦) ١٧٢/٥، وأخرجه أحمد ٩١/١ (٧٠٤)، وابن أبي شيبة ١٢٥/٦ (٣٠٠٠٧)، والدارقطني في الأفراد ـ أطراف ابن طاهر ١٩٤/١ (٢٦٩)، والبزار ١٢٥/٦ (٨٣٤)، وأبو يعلى ٣٠٢/١ (٣٦٧). قال الألباني في شرح الطحاوية ص٧١: «هذا حديث جميل المعنى، ولكن اسناده ضعيف ولعل أصله موقوف، وقد ضعفه الترمذي نفسه». انظر: السلسلة الضعيفة (١٧٧٦)، وضعيف الجامع (٢٠٨١)، و«قال المناوي: «بإسناد حسن» الجامع الكبير للسيوطي ٦٠٣/١ (٣٢٣). وقال حسين سليم أسد: «إسناده حسن» سنن الدارمي ٥٢٧/٢ (٣٣٣٢). *المختصر.

(٢) «عبيدة» بضم العين المهملة، وهو ابن الاسود بن سعيد الهمداني الكوفي، راجع ترجمته في التهذيب ٨٦/٧.

(٣) أسامة بن أبي عطاء هذا: تابعيّ، يروي عن علي بن أبي طالب، ترجمه البخاري في التاريخ الكبير ج١ ق١ ص٢٣، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ج١ ق٢ ص٢٨٣ ـ ٢٨٤.

[ب ـ أثره]:

ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طَبَّق الأرض أنواره، وجَلَّل الآفاق ضياؤه، ونَفَذَ في العالم حكمه، وقُبِلَ في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرِوَاق، ممدود الأطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علو جلالته، أو يتفكر في حكمته.

[ج ـ أوصافه]:

فكان كما وصفه الله تعالى ـ جل ذكره ـ من أنه نور، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى] فانظر إن شئت ـ إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف، كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾: يدل على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الإلهية. وهذه الكلمة بمنفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير ـ تميز عن جميعه، وكان واسطة عِقْده، وفاتحة عَقْده، وغُرَّة شهره، وعين دهره.

وكذلك قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾، فجعله روحاً، لأنه يحيي الخلق، فله فضل الأرواح في الأجساد. وجعله نوراً، لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق. ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف وقوع الاسترشاد به على إرادته، وبين أنه لم يكن ليهتدي إليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه، وأنه لم يكن ليَهْتَدِي ـ فكيف كان يَهْدِي ـ لولاه، فقد صار يهدي، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدي، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان، وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ كلمة منفصلة مباينة للأولى، قد **صيرهما شريف النظم أشد ائتلافاً من الكلام المؤالف، وألطف انتظاماً من الحديث الملائم. وبهذا يبين فضل الكلام، وتظهر فصاحته وبلاغته.**

الأمر أظهر ـ والحمد لله ـ والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف.

تأمل قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]. انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألف بينها، واحتج بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غُرَّة؟ وبمنفردها دُرَّة؟ وهو ـ مع ذلك ـ يبين أنه يصدر عن علو الأمر، ونفاذ القهر، ويتجلى في بهجة القدرة، ويتحلى بخالصة العزة، ويجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، والرونق الصافي، والبهاء الضافي. ولست أقول: إنه شمل الإطباق المليح، والإيجاز اللطيف، والتعديل والتمثيل، والتقريب والتشكيل ـ وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه ـ لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة، أو وجه قصيدة أو فقرة. فإذا ألفت ازدادت به حسناً وإحساناً، وزادتك ـ إذا تأملت ـ معرفة وإيماناً.

❋ ❋ ❋

[٢ ـ إعجاز القرآن في بديع نظم آياته وكلماته]:

ثم تأمل قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس] هل تجد كل لفظة، وهل تعلم كل كلمة، تستقل بالاشتمال على نهاية البديع، وتتضمن شرط القول البليغ؟ فإذا كانت الآية تنتظم من البديع، وتتألف من البلاغات، فكيف لا تفوت حد المعهود، ولا تجوز شأو المألوف؟ وكيف لا تحوز قصب السبق، ولا تتعالى عن كلام الخلق؟

ثم اقصد إلى سورة تامة، فتصرف في معرفة قصصها، وراع ما فيها من براهينها وقصصها. تأمل السورة التي يذكر فيها **النمل** وانظر في كلمة كلمة، وفصل فصل.

بدأ بذكر السورة، إلى أن بَيَّن أن القرآن من عنده، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل]. ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام، وأنه رأى ناراً، فـ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ [القصص: ٢٩]، ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل]. وقال في سورة طه في هذه القصة: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه]. وفي موضع: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص]. قد تصرف في وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروب، **ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك**. ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤]. ليكون أبلغ في تعجيزهم، وأظهر للحجة عليهم. وكل كلمة من هذه الكلمات ـ وإن أنبأت عن قصة ـ فهي بليغة بنفسها، تامة في معناها.

ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ [النمل] فانظر إلى ما أجرى له الكلام، من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية، وما دلّ به عليها من قلب العصا حية، وجعلها دليلاً يدله عليه، ومعجزة تهديه إليه؟

وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة: من اليد البيضاء ـ عن نور البرهان ـ من غير سوء.

ثم انظر في آية آية، وكلمة كلمة: هل تجدها كما وصفنا: من عجيب النظم، وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي

الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضَامَّتها ذواتها: مما تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟

ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلاً، ببديع التأليف، وبليغ التنزيل.

❋ ❋ ❋

[٣ ـ إعجاز القرآن في بديع نظم قصصه]:

وإن أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين، وتتحقق بما ادعيناه زيادة تحقق ـ فإن كنت من أهل الصنعة فاعمد إلى قصة من هذه القصص، وحديث من هذه الأحاديث، فعبر عنه بعبارة من جهتك، وأخبر عنه بألفاظ من عندك، حتى **ترى فيما جئت به النقص الظاهر، وتتبين في نظم القرآن الدليل الباهر.**

ولذلك أعاد قصة موسى في سور، وعلى طرق شتى، وفواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى. فلعلك ترجع إلى عقلك، وتستر ما عندك، إن غلطت في أمرك، أو ذهبت في مذاهب وهمك، أو سلطت على نفسك وجه ظنك.

متى تهيأ لبليغ أن يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة، فيجعلها مؤتلفة، من غير أن يبين على كلامه إعياء الخروج والتنقل، أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتَّعَمُّل؟ وأحسب أنه لا يسلم من هذا ـ ومحال أن يسلم منه ـ متى يظفر بمثل تلك الكلمات الأفراد، والألفاظ الأعلام، حتى يجمع بينها، فيجلو فيها فقرة من كلامه، وقطعة من قوله. ولو اتفق له في أحرف معدودة، وأسطر قليلة، فمتى يتفق له في قدر ما نقول: إنه من القرآن معجز؟ هيهات هيهات! إن الصبح يطمس النجوم وإن كانت زاهرة، والبحر يغمر الأنهار وإن كانت زاخرة.

متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام؛ بعد ذكر العنوان والتسمية، هذه الكلمة الشريفة العالية: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل]. والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير، واشتغلت به من المشورة، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها، بتلك الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة.

ثم كلامها بعد ذلك، ألا تعلم تمكن قولها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل]. وذكر قولهم: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل]، لا تجد في صفتهم أنفسهم أبرع مما وصفهم به.

وقوله: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، تعلم براعته بنفسه، وعجيب معناه، وموضع اتفاقه في هذا الكلام، وتمكن الفاصلة، وملاءمته لما قبله، وذلك قوله: ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؟ ثم إلى هذا الاختصار، وإلى البيان مع الإيجاز.

[العيوب التي تقع في كلام الآدميين]:

فإن الكلام قد يفسده الاختصار، ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه، ويتضمن الإيجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه. وكم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الإفهام، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام، ثم لو وقع على الإفهام والتمام، أخل بما يجب فيه من شروط الإحكام، أو بمعاني القصة وما تقتضي من الإعظام. ثم لو ظفرت بذلك كله، رأيته ناقصاً في وجه الحكمة، أو مدخولاً في باب السياسة، أو مضعوفاً في طريق السيادة، أو مشترك العبارات إن كان مستجود المعنى، أو مستجود العبارة مشترك المعنى، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع.

وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما **إذا بسط أفاد، وإذا**

اختصر كمل في بابه وجاد، وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره، وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه، لم يقع إلا على محاسن تتوالى، وبدائع تترى[(١)].

[كمال أسلوب القرآن]:

ثم فكر بعد ذلك في آية آية، أو كلمة كلمة، في قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل]. هذه الكلمات الثلاث، كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره. ثم تأمل تمكن الفاصلة ـ وهي الكلمة الثالثة ـ وحسن موقعها، وعجيب حكمتها، وبارع معناها. وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكني قد بينت بما فسرت، وقررت بما فصلت ـ الوجه الذي سلكت، والنحو الذي قصدت، والغرض الذي إليه رميت، والسمت الذي إليه دعوت.

ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه: وهو **تعادل هذا النظم في الإعجاز**، في مواقع الآيات القصيرة، والطويلة، والمتوسطة. **فأجِل الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم، والفواتح، والبوادي، والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول**، ثم اقض ما أنت قاض. وإن طال عليك تأمل الجميع، فاقتصر على سورة واحدة، أو على بعض سورة.

❋ ❋ ❋

[٤ ـ إعجاز القرآن في بديع ما تضمنه في المعنى]:

ما رأيك في قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا

(١) «تترى» اسم بمعنى: متواترين، ولذلك يجوز تنوينها، ففي اللسان ١٣٧/٧ ـ ١٣٨ «وجاؤوا تترى وتتراً، أي: متواترين. التاء مبدلة من الواو. قال ابن سيده: وليس هذا البدل قياساً، إنما هو في أشياء معلومة».

يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص]؟ هذه تشتمل على ست كلمات، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف. وهي تشتمل على **جملة وتفصيل، وجامعة وتفسير**: ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تَحَكَّم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما!؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور.

ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التظليم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره. ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص]. وهذا من التأليف بين المؤتلف، والجمع بين المستأنس.

كما أن قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص]. وهي خمس كلمات، متباعدة في المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد تألفاً من الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع. ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص]. ومثلها: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص].

ومن المؤتلف قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص]. وهذه ثلاث كلمات، كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر.

ومن الباب الآخر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص].

[ترابط المعاني مع اختلاف الأساليب]:

كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها، لم تستوف ما استوفته. ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم، ونفور الطبع، وشراد الكلام، وتهافت القول، وتمنع جانبه، وقصورك في الإيضاح عن واجبه.

ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة، وفصل إلى فصل، حتى تتبتر عليك مواضع الوصل، وتستصعب عليك أماكن الفصل، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، وأمثالاً سائرة وحكماً جليلة، وأدلة على التوحيد بينة، وكلمات في التنزية والتحميد شريفة.

وإن أردت أن تتحقق ما وصفت لك، فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو يجري مجرى كلامه في ذكر القصص؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف وقعة، أو نقل خبر؛ عَامِّيُ الكلام، سوقي الخطاب، مسترسلاً في أمره، متساهلاً في كلامه، عادلاً عن المألوف من طبعه، وناكباً عن المعهود في سجيته. فإن اتفق له في قصة كلام جيد، كان قدر ثنتين أو ثلاثة، وكان ما زاد عليها حشواً، وما تجاوزها لغواً.

ولا أقول: إنها تخرج من عادته عفواً، لأنه يقصر عن العفو، ويقف دون العرف، ويتعرض للركاكة.

[دراسة المثال تكفي في وصف الإعجاز]:

فإن لم تقنع بما قلت لك من الآيات، فتأمل غير ذلك من السور، هل تجد الجميع على ما وصفت لك؟ **لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت في الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى، وأقنع وشفى. ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء،**

لما طلبت بينة سواها. بل قصة من قصصه، وهي قوله: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء] إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء] حتى قال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]. ثم قصة إبراهيم عليه السلام.

ثم لم تكن إلا الآيات التي انتهى إليها القول في ذكر القرآن، وهي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]. وهذه كلمات مفردة بفواصلها، منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة، ومنها ما هي فاتحة وواسطة وفاصلة، ومنها كلمة بفاصلتها تامة. دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيراً، وبين أنه آية لكونه نبياً، ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء].

فتأمل آية آية، لتعرف الإعجاز، وتتبين التصرف البديع، والتنقل في الفصول إلى آخر السورة. ثم راع المقطع العجيب، وهو قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء]. هل يحسن أحد أن يأتي بمثل هذا الوعيد؟ وأن ينظم مثل هذا النظم، وأن يجد مثل هذه النظائر السابقة؟ ويصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة؟ ولولا كراهة الإملال، لجئت إلى كل فصل، فاستقريت على الترتيب كلماته، وبينت لك ما في كل واحدة منها من البراعة، وعجيب البلاغة.

ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده، وتستضيء بنوره، وتهتدي بهداه.

❋ ❋ ❋

[٥ ـ إعجاز القرآن في بديع نظم سوره]:

ونحن نذكر آيات أخر، لتزداد استبصاراً، وتتيقن تيقناً: تأمل من الكلام المؤتلف قوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر]. أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعاني وحسن الفاتحة والخاتمة. ثم اتل ما بعدها من الآي، واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء: من احتجاج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى، مختلفة تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم. ثم جاء إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر]. الآية الأولى أربعة فصول، والثانية فصلان.

وجه الوقوف على شرف الكلام: أن تتأمل موقع قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وهل تقع في الحسن موقع قوله: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك «ليقتلوه»، أو «ليرجموه». أو «لينفوه»، أو «ليطردوه» أو «ليهلكوه»، أو «ليذلوه»، ونحو هذا، ما كان ذلك بديعاً ولا بارعاً، ولا عجيباً ولا بالغاً.

فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب إليه من **تخير الكلام، وانتقاء الألفاظ، والاهتداء للمعاني**. فإن كنت تُقَدِّر أن شيئاً من هذه الكلمات التي عددناها عليك أو غيرها، يقوم مقام هذه اللفظة ـ لم تقف على غرضنا من هذا الكتاب، فلا سبيل لك إلى الوقوف على تصاريف الخطاب، فافزع إلى التقليد، واكف نفسك مؤونة التفكير.

وإن فطنت، فانظر إلى ما قال من رد عجز الخطاب إلى صدره، بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ ثم ذكر عقيبها العذاب في الآخرة، وأتلاها تلو العذاب في الدنيا، على الإحكام الذي رأيت. ثم ذَكَر المؤمنين بالقرآن بعد ذِكْرِ المكذبين بالآيات والرسل، فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧] إلى أن ذكر ثلاث آيات. وهذا كلام مفصول، تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى، وانتسابه إلى ما تقدم وانقضى، وعظم موقعه في معناه، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم، وحكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنى، ولطيف هذه الحكاية، وتلاؤم هذا الكلام، وتشاكل هذا النظام؟ فكيف يهتدي إلى وضع هذه المعاني بشريٌّ، وإلى تركيب ما يلائمها من الالفاظ إنسيٌّ؟ ثم ذكر ثلاث آيات في أمر الكافرين على ما ترى. ثم نبه على أمر القرآن، وأنه من آياته، بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر]. وإنما ذكر هذين الامرين اللذين يختص بالقدرة عليهما، لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء، ولأن الرزَّاق ـ الذي لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس ـ تجب طاعته والنظر في آياته.

ثم قال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]. قف على هذه الدلالة، وفكِّر فيها، وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية، والكلمات السامية، والحِكَم البالغة، والمعاني الشريفة ـ تعلم ورودها عن الإلهية، ودلالتها على الربوبية. وتتحقق أن الخطب المنقولة عنهم، والأخبار المأثورة في كلماتهم الفصيحة، من الكلام الذي تَعْلَق به الهمم البشرية، وما تحوم عليه الأفكار الآدمية، وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول.

أي خاطر يتشوف إلى أن يقول: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾؟ وأي لفظ يدرك هذا المضمار؟ وأي حكيم يهتدي إلى ما لهذا من الغور؟ وأي فصيح يهتدي إلى هذا النظم؟

ثم استقرئ الآية إلى آخرها، واعتبر كلماتها، وراع بعدها قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر]. من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث؛ على قربها، وعلى خفتها في النظم وموقعها من القلب؟

ثم تأمل قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر]. كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها: من أنه إذا رآها الإنسان في رسالة كانت عينها، أو في خطبة كانت وجهها، أو قصيدة كانت غرة غرتها، وبيت قصيدتها، كالياقوتة التي تكون فريدة العقد، وعين القلادة، ودرة الشذر، إذا وقع بين كلام وشَّحه، وإذا ضُمِّن في نظام زَيَّنه، وإذا اعترض في خطاب تميز عنه، وبان بحسنه منه. ولست أقول هذا لك في آية، دون آية، وسورة دون سورة، وفصل دون فصل، وقصة دون قصة، ومعنى دون معنى، لأني قد شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص والأخبار، وفي الشرائع والأحكام، وفي الديانة والتوحيد، وفي الحجج والتثبيت، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور. ألا ترى أن الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزهد قصَّر، والأديب إذا تكلم في بيان الأحكام وذكر الحلال والحرام، لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره. **ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء، ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى، والفضل الأسنى.** وفيما شرحناه لك كفاية، وفيما بيناه بلاغ.

❋ ❋ ❋

[٦ ـ إعجاز القرآن في بديع نظم الأحكام التي تضمَّنها]:

ونذكر في الأحكاميات وغيرها آيات أُخَر، منها قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة]. أنت تجد في هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب، والنظم البارع الغريب، ما يدلك ـ إن شئت ـ على الإعجاز، مع هذا الاختيار والإيجاز، فكيف إذا بلغ ذلك آيات، أو كانت سورة؟.

ونحو هذه الآية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]. وكالآية التي بعدها في التوحيد وإثبات النبوة، وكالآيات الثلاث في المواريث. **أيُّ بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم؟**

وإن جئت إلى آيات الاحتجاج، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

وكالآيات في التوحيد، كقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر]. وكقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان]. وكقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك]، إلى آخرها. وكقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ

إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات].

هذه من الآيات التي قال فيها الله تعالى ذكره: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر]. ارفع طرف قلبك، وانظر بعين عقلك، وراجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك، وعرضناه عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلاً وقصة، أو يتم حديثاً وسورة. لا؛ بل فكر في **جميع القرآن على هذا الترتيب، وتدبره على نحو هذا التنزيل، فلم ندع ما ادعيناه لبعضه، ولم نصف ما وصفنا إلا في كله، وإن كانت الدلالة في البعض أبين وأظهر، والآية أكشف وأبهر.**

❋ ❋ ❋

[٧ ـ إعجاز القرآن في تأثيره في النفوس]:

وإذا تأملت على ما هديناك إليه، ووقفناك عليه، فانظر هل تجد وقع هذا النور في قلبك، واشتماله على لُبِّك، وسريانه في حسك، ونفوذه في عروقك، وامتلاءك به إيقاناً وإحاطة، واهتداءك به إيماناً وبصيرة؟ أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزة تعمل في جوانبك من لون، والأريحية تستولى عليك من باب؟ وهل تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه، وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك ـ عزة، وفي أعطافك ارتياحاً وهزة، وترى لك في الفضل تقدماً وتبريزاً، وفي اليقين سبقاً وتحقيقاً، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة، ومهاويهم في ظلال القلة والذلة، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها، ومراتبهم بحيث يجب أن ترتبها؟ هذا كله في تأمل الكلام ونظامه، وعجيب معانيه وأحكامه.

فإن جئت إلى ما انبسط في العالم من بركته وأنواره، وتمكن في الآفاق من يمنه وأضوائه، وثبت في القلوب من إكباره وإعظامه، وتقرر في النفوس من حتم أمره ونهيه، ومضى في الدماء من مفروض حكمه، وإلى أنه جعل عماد الصلاة التي هي تلو الايمان في التأكيد، وثانية التوحيد في الوجوب. وفرض حفظه، ووكل الصغار والكبار بتلاوته، وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه، من قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل] لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه، فهل يدلك هذا على عظيم شأنه، وراجح ميزانه، وعالى مكانه.

❋ ❋ ❋

[٨ ـ إعجاز القرآن في بديع بلاغته في إفراده وتركيبه]:

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم إلى قسمين: أحدهما: ما يتم بنفسه، أو بنفسه وفاصلته، فينير في الكلام إنارة النجم في الظلام. والثاني: ما يشتمل على كلمتين أو كلمات، إذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة، وغاية البلاغة.

وإنما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير، أو خطاب طويل، فتراها ما بينها تدل على نفسها، وتعلو على ما قرن بها لعلو جنسها، فإذا ضُمَّت إلى أخواتها، وجاءت في ذواتها، أرتك القلائد منظومة، كما كانت تريك ـ عند تأمل الأفراد منها ـ اليواقيت منثورة، والجواهر مبثوثة. ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر لأنشدتك ألفاظاً وقعت مُضَمَّنَة، لتعلم كيف تلوح عليه، وكيف ترى بهجتها في أثنائه، وكيف تمتاز منه، حتى إنه لو تأمله من لم يقرأ القرآن لتبين أنه أجنبي من الكلام الذي تضمنه، والباب الذي توسطه، وأنكر مكانه، واستكبر موضعه. ثم تناسبها في البلاغة والإبداع، وتماثلها في السلاسة والإغراب، ثم انفرادها بذلك الأسلوب، وتخصصها بذلك الترتيب، ثم سائر ما قدمنا ذكره، مما

نكره إعادته. وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه، ويختل تصرفه في معانيه، ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقه، ويضيق به النطاق في مذاهبه، ويرتبك في أطرافه وجوانبه، ويُسْلِمُه للتكلف الوحش كثرة تصرفه، ويحيله على التصنع الظاهر موارد تنقله وتخلصه.

❋ ❋ ❋

٩ ـ [إعجاز القرآن في ائتلاف وتشابه نظمه]:

ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يؤمه، على ما وصفه الله تعالى به ـ **لا يتفاوت**، كما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]. **ولا يخرج عن تشابهه وتماثله**، كما قال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]. وكما قال: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] **ولا يخرج عن إبانته**، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وغيره من الكلام كثير التلون، دائم التغير، والتنكر، يقف بك على بديع مستحسن، ويعقبه بقبيح مستهجن، ويطلع عليك بوجه الحسناء، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كاللآلئ الزهر. وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهم، وقد يقع إليك منه الكلام المثبج[(١)]، والنظم المشوش، والحديث المشوه. وقد تجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه، ولا يتآلف ولا يتماثل، وقد قيل في وصف ما جرى هذا المجرى:

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعِيّ في القريض دخيل[(٢)]

(١) في اللسان ٣/٤٣: «الثبج: اضطراب الكلام».

(٢) في البيان والتبيين ١/٦٦ «قال أبو العاصي: وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي: وشعر... إلخ. =

وقال آخر:

وبعض قريض القوم أولاد علة يكد لسان الناطق المتحفظ[١]

فإن قال قائل: فقد نجد في آيات من القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة، وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة، وحَدٌّ يتجاوز حد الألفاظ المستندة، وإن كان الأكثر على ما وصفته به؟ قيل له: نحن نعلم أن قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، إلى آخر الآية ـ ليس من القبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه، وإبانة الفصاحة عليه وذاك يجرى عندنا مجرى ما يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة.

بل الذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب، وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى، وذلك حاصل في هذه الآية ـ إن تأملت. ألا ترى أنه بدأ بذكر الأم، لعِظَم حُرمتها، وإدلائها بنفسها، ومكان بعضيتها، فهي أصل لكل من يدلي بنفسه منهن، ولأنه ليس في ذوات الأنساب أقرب منها. ولما جاء إلى ذوات الأسباب، ألحق بها حكم الأم من الرضاع، لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه، فيتحصل بذلك أيضاً لها حكم البعضية، فنشر الحرمة بهذا المعنى، وألحقها بالوالدة. وذكر الأخوات من الرضاعة، فنبه بها

= وأما قوله: «كبعر الكبش» فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاوز. وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساء، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد».

(١) البيت لخلف الأحمر. قال الجاحظ في البيان والتبيين ١/٦٦: «أما قول خلف:
* وبعض قريض القوم أولاد علة * فإنه يقول: إذا كان الشعر مستكرهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة».

على كل من يدلي بغيرها، وجعلها تلو الأم من الرضاع.

والكلام في إظهار حِكَم هذه الآية وفوائدها يطول، ولم نضع كتابنا لهذا، وسبيل هذا أن نذكره في كتاب: معاني القرآن ـ إن سهل الله لنا إملاءه وجمعه.

فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تخلف حكمة الإعجاز في النظم والتأليف، والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترصيف. فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء، ولم يهتد للأغراض في دلالات الكلام، وفوائده ومتصرفاته، وفنونه ومتوجهاته. وقد يتفق في الشعر ذكر الأسامي فيحسن موقعه، كقول أبي ذؤاب الأسدي[١]:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم كَلَباً على أعدائه وأعزهم فقداً على الأصحاب

وقد يتفق ذكر الأسامي، فيفسد النظم، ويقبح الوزن.

والآيات الأحكاميات التي لا بد فيها من أمر البلاغة، يعتبر فيها من الألفاظ ما يعتبر في غيرها، وقد يمكن فيها، **وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في بابه ما ليس عليه مزيد في البلاغة وعجيب النظم**. ثم في جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد والألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلك مع تركب الكلمتين والثلاث، ويَطَّرِدُ ذلك في الابتداء، والخروج، والفواصل، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة، أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك ـ ما يخلف الإبداع في أفراد الكلمات، وإن كانت الجملة والمعظم على ما سبق الوصف فيه.

(١) في العقد الفريد ٣٤٩/٥ الشعر لربيعة الاشتر، والد ذؤاب بن ربيعة، قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب. بلفظ «فقد هتكت بيوتهم». و«بأحبهم فقداً إلى أعدائه * وأشدهم فقداً».

وإذا عرف ما يجرى إليه الكلام، وينهى إليه الخطاب، ويقف عليه الأسلوب، ويختص به القبيل ـ بان عند أهل الصنعة تميز بابه، وانفراد سبيله، ولم يشك البليغ في انتمائه إلى الجهة التي ينتمي إليها، ولم يرتب الأديب البارع في انتسابه إلى ما عرف من نهجه. وهذا كما يعرف طريقة مترسل في رسالته، فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه، فكأنه يرى أنه يعد عليه مجاري حركاته وأنفاسه. وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه، يعرف المتحقق به طبع كل أحد، وسبيل كل شاعر.

❋ ❋ ❋

وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها، وتقَصِّيَها يطول، وعجائبها لا تنقضي، ومنها:

١٠ ـ [إعجاز القرآن في الكلام المغلق والإشارات]:

وإذا بلغ الكلام المغلق والاشارات. وإذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغاً ربما زاد الإفهام به على الإيضاح، أو ساوى مواقع التفسير والشرح، مع استيفائه شروطه ـ كان النهاية في معناه، وذلك كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء]. فصول هذه الآية وكلماتها على ما شرحنا من قِبَل البلاغة واللطف في التقدم، وفي تضمن هذا الأمر العظيم، والمقام الكريم.

ويتلو هذه قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢] هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع، وقد تمثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره وموقع ما لا ينفك منه القول.

وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض، ويظهر عليه التشبيج والتباين، للخلل الواقع في النظم. وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلاً، ولم يبن عليه تميز الخروج.

ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب إلى ذكر نوح، وكيف أثنى عليه؟ وكيف تليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها، مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول، إلى ذكره، وإجرائه إلى مدحه بشكره، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته، وأن يستنوا بسنته، في أن يشكروا كشكره، ولا يتخذوا من دون الله وكيلاً، وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان، لما حملهم عليه ونجاهم فيه، حين أهلك من عداهم به، وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم، فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم، ثم عاد عليهم بالإفضال والإحسان، حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولدهم وهم من ذريته، فلما عادوا إلى جهالتهم، وتمردوا في طغيانهم، عاد عليهم بالتعذيب.

ثم ذكر الله ﷻ في ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة التي كانت لهم، **بكلمات قليلة في العدد، كثيرة الفوائد، لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير، والكلام الطويل**. ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة، على أعجب تدريج، وأبدع تأريج[1]، بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. ولم ينقطع بذلك نظام الكلام، وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله، وينتشر مع انتظامه، فكيف بإلقاء ما ليس منه في أثنائه، وطرح ما يعدوه في أدراجه؟ إلى أن خرج إلى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]. يعني: إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو.

ثم خرج خروجاً آخر إلى ذكر القرآن.

وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام، وما له من علو الشان، لا يطلب مطلباً إلَّا انفتح، ولا يسلك قلباً إلَّا انشرح، ولا يذهب مذهباً إلَّا استنار وأضاء، ولا يضرب مضرباً إلَّا بلغ فيه السماء، لا تقع منه على فائدة

(١) التأريج: التهييج، كما في اللسان ٢٩/٣.

فقَدَّرْت أنها أقصى فوائدها ـ إلَّا قصرت، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها ـ إلَّا وقد أخللت.

❋ ❋ ❋

[خلاصة الباب]:

وجملة الأمر أن نقد الكلام شديد، وتمييزه صعب:

وإذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس، يشق تمييزه، ويصعب نقده، ويذهب عن محاسنه الكثير، وينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحُسن، وكثير من حَسنه بعين القُبح، ثم يختلفون في الأحسن منه اختلافاً كثيراً، وتتباين آراؤهم في تفضيل ما يفضل منه ـ فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم، ولا يتأتى في مقدورهم، ولا يمثل بخواطرهم؟ وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم. ولا أتم بلاغة، ولا أحسن براعة، حتى دهشوا حين ورد عليهم، وولهت عقولهم، ولم يكن عندهم فيه جواب، غير ضرب الأمثال والتخرص عليه، والتوهم فيه، وتقسيمه أقساماً، وجعله عضين. وكيف لا يكون أحسن الكلام، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣﴾ [الزمر]. استغنم فهم هذه الآية، وكفاك، استفد علم هذه الكلمات، وقد أغناك، **فليس يوقف على حسن الكلام بطوله، ولا تعرف براعته بكثرة فصوله، إن القليل يدل على الكثير، والقريب قد يهجم بك على البعيد.**

ثم إنه سبحانه وتعالى لما علم من عظم شأن هذه المعرفة، وكبر محلها، وذهابها على أقوام ـ ذكر في آخر هذه الآية ما ذكر، وبين ما بين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٨]. **فلا تعلم ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد**، وقال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ

مِّنَ ٱلْقَوْلِۚ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد] وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ [البقرة: ٢٦]. وقد بسطنا لك القول رجاء إفهامك.

وهذا المنهاج الذي رأيته، إن سلكته، يأخذ بيدك، ويدلك على رشدك، ويغنيك عن ذكر براعة آية آية لك. واعلم أنَّا لم نقصد فيما سطرناه من الآيات، وسميناه من السور والدلالات، ذكر الاحسن والاكشف والاظهر، لأنَّا نعتقد في كل سورة ذكرناها أو أضربنا عن ذكرها اعتقاداً واحداً في الدلالة على الإعجاز، والكفاية في التمنع والبرهان.

ولكن لم يكن بد من ذكر بعض، فذكرنا ما تيسر، وقلنا فيما اتجه في الحال وخطر، وإن كنا نعتقد أن **الإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعضه أدق وأغمض**. فاحفظ عنا في الجملة ما كررنا، والسير بعد ذلك في التفصيل إليك، وحصل ما أعطيناك من العلامة، ثم النظر عليك.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فصل في وصف وجوه من البلاغة

[علم البيان وعلاقته بالإعجاز]:

ذكر بعض أهل الأدب والكلام[١]: أن البلاغة على عشرة أقسام: **الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان**[٢].

١ ـ فأما **الإيجاز**: فإنما يحسن مع ترك الاخلال باللفظ والمعنى، فيأتى باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة. وذلك ينقسم إلى: حذف، وقصر.

(١) هذا البعض الذي لم يشأ المؤلف أن يصرح باسمه هو معاصره أبو الحسن: علي بن عيسى الرماني، المعتزلي (٢٩٦ ـ ٣٨٤هـ) صاحب كتاب النكت في إعجاز القرآن، الذي نقل عنه المؤلف هذا الفصل الطويل. راجع ترجمة الرماني في ابن خلكان ٤٦١/٢، وبغية الوعاة ٣٤٤ والامتاع والمؤانسة ١٣٣/١ ومعجم الادباء ٧٣/١٤ ـ ٧٨ وفهرست ابن النديم ص١٤، ٧٣، ٧٨ ونزهة الالباب ص٣٨٩ ـ ٣٩٢.

ويلاحظ هنا أنَّ الرماني يُفسر بالمجاز كثيراً، ولا نعرف موقف المؤلف هنا من قوله، ولذا أبقينا عليه ليُفهم وجه التمثيل به. واختصار المؤلف له مع ضعفنا بالبلاغة اليوم اضطرنا لنقل أصل كلام الرماني. *المختصر.

(٢) قال الرماني بعد ذلك: «ونحن نفسرها باباً باباً: الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة فالألفاظ القليلة إيجاز. والإيجاز على وجهين: خذف وقصر، فالحذف إسقاط كلمة للأجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. والقصر: بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف».

فالحذف: الاسقاط للتخفيف، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١]. وحذف الجواب كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]. كأنه قيل: لكان هذا القرآن. **والحذف أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب**[(١)].

والإيجاز بالقصر[(٢)]: كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]. وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]. وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣][(٣)]. **والإطناب فيه بلاغة، فأما التطويل ففيه عِيّ**[(٤)].

---

(١) في النكت بعد ذلك: «ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان».

(٢) قال الرماني ص٢: «وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف، وإن كان الحذف غامضاً للحاجة إلى العلم بالمواضع التي تصلح من المواضع التي لا تصلح».

(٣) وقال الرماني بعد استشهاده بالآيات السابقة: «وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير. وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم: القتل أنفى للقتل. وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز. وذلك يظهر من أربعة أوجه: أنه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة. أما الكثرة في الفائدة ففيه كل ما في قولهم: القتل أنفى للقتل، وزيادة معان حسنة: منها إبانة العدل لذكره القصاص، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به، وأما الإيجاز في العبارة، فإن الذي هو نظير: القتل أنفى للقتل ـ قوله تعالى: ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ والأول أربعة عشر حرفاً، والثاني عشرة حروف. وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة، فإن في قولهم: القتل أنفى للقتل ـ تكريراً غيره أبلغ منه، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة. وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس، وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعد الهمزة من اللام، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام، فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ منه وأحسن، وإن كان الأول بليغاً حسناً».

(٤) قال الرماني في ص٣: «والإيجاز بلاغة والتقصير عِيّ، كما أن الاطناب بلاغة والتطويل عِيّ. والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير، لأنه لا بد فيه من الاخلال. فأما الاطناب فإنما يمكن في تفصيل المعنى وما يتعلق به =

٢ ـ وأما **التشبيه** فهو: العقد على أن أحد الشيئين يَسُدُّ مسدَّ الآخر في حسٍ أو عقل، كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩](١). وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: ١٨](٢). وقوله: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: ١٧١](٣). وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: ٢٤](٤)،

= في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل... فأما التطويل فعيب وعِيٌّ، لأنه تكلف الكثير فيما يكفي فيه القليل، فكان كالسالك طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب. وأما الإطناب فليس كذلك، لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحصل له في الطريق إلى غرضه من الفائدة نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب».

(١) قال الرماني بعد ذكره لهذه الآية ص٦: «وهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة. ولو قيل: يحسبه الرائي ماء، ثم يظهر أنه على خلاف ما قد رأى لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصاً عليه، وتعلق قلب به. ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار، نعوذ بالله من هذه الحال. وتشبيه أعمال الكفر بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة».

(٢) قال الرماني ص٧: «فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة. فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة، والموعظة البليغة».

(٣) قال الرماني ص٧: «وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة. وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهداته لذلك أو علمه به، ليطلب الفوز من قبله، ونيل المنافع بطاعته».

(٤) قال الرماني ص٧: «وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة. وقد اجتمع المشبه والمشبه به في الزينة والبهجة، ثم الهلاك بعده. وفي ذلك العبرة لمن اعتبر. والموعظه لمن تفكر في أن كل فان حقير وإن طالت مدته، وصغير وإن كبر قدره».

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر](١). وقوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾ [الرحمٰن](٢). وقوله: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: ٢٠](٣). وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١](٤). وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٤](٥). وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ [الأعراف: ١٧٦](٦). وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ

(١) قال الرماني ص٨: «وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة. وقد اجتمعا في قلع الريح لهما، وإهلاكها إياهما. وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة، والتخويف من تعجيل العقوبة».

(٢) قال الرماني: «فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في الحمرة وفي لين الجواهر السيالة، وفي ذلك الدلالة على عظيم الشأن ونفوذ السلطان، لتنصرف الهمم إلى ما هنالك بالأمل».

(٣) قال الرماني ص٨: «فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في شدة الاعجاب، ثم في التغير بالانقلاب. وفي ذلك الاحتقار للدنيا، والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها».

(٤) قال الرماني: «فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السعة».

(٥) قال الرماني ص٨: «وهذا تشبيه قد أخرج فيه ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، وقد اجتمعا في الجهل بما حملا. وفي ذلك العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية»!

(٦) قال الرماني ص٧: «فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه. قد اجتمعا في ترك الطاعة على كل وجه من وجوه التدبير، وفي التخسيس، فالكلب لا يطيعك في ترك اللهث حملت عليه أو تركته. وكذلك الكافر لا يطيعك بالإيمان على رفق ولا عنف. وهذا يدل على حكمة الله سبحانه في أنه لا يمنع اللطف».

خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة][(١)]. وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١][(٢)]. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمٰن][(٣)]. وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمٰن][(٤)]. ونحو ذلك.

❋ ❋ ❋

٣ ـ ومن ذلك: باب **الاستعارة**، وذلك يباين التشبيه[(٥)]، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان][(٦)]، وكقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر][(٧)]، وكقوله:

---

(١) قال الرماني ص٩: «هذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة. وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح. وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل».

(٢) قال الرماني: «فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة. وقد اجتمعا في ضعف المعتمد ووهي المستند. وفي ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين، مع الشعور بما فيه من التوهين».

(٣) قال الرماني: «فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له القوة فيها. وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال أعظم. وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها، وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها».

(٤) قال الرماني: «وهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له القوة. وقد اجتمعا في الرخاوة والجفاف، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالرياح».

(٥) يلاحظ أن الرماني يعتبر الاستعارة من المجاز، وهذا غير متفق عليه فمنهم من يخرجها منه. والله أعلم. *المختصر.

(٦) قال الرماني ص١٠: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أبلغ هنا، لأنه يدل على إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم. وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال. وأما ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه حاسة إلى ما تقع عليه حاسة.أ.هـ مختصراً لأنه تأول فيه على مذهبه. *المختصر.

(٧) قال الرماني ص١١: «حقيقته: بلغ ما تؤمر به. والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة. والتبليغ قد يضعف حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع. والمعنى الذي يجمعهما الإيصال، إلا أن الإيصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ».

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة][(١)] وقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤][(٢)]. وكقوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١١][(٣)]. وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٢][(٤)]. فالدمغ والقذف مستعار. وقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧][(٥)]. وقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧][(٦)]. وقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت][(٧)]. وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤][(٨)].

---

(١) قال الرماني ص١١: «حقيقته علا. والاستعارة أبلغ، لأن طغى علا قاهراً. وهو مبالغة في عظم الحال».

(٢) قال الرماني ص١٢: «حقيقته انتفاء الغضب. والاستعارة بسكت أبلغ، لأنه انتفى انتفاء مراصد بالعودة، فهو كالسكوت على مراصدة الكلام بما توجبه الحكمة في الحال، فانتفى الغضب بالسكوت عما يكره، والمعنى الجامع بينهما الامساك عما يكره».

(٣) قال الرماني ص١٢: «فمبصرة هاهنا استعارة. وحقيقتها: مضيئة. وهي أبلغ من مضيئة، لأنه أدل على موقع النعمة، لأنه يكشف عن وجه المنفعة. وقيل هو بمعنى ذات إبصار، وعلى هذا يكون حقيقة».

(٤) قال الرماني ص١٣: «القذف والدمغ هاهنا مستعار. وهو أبلغ، لأن في القذف دليلاً على القهر، لأنك إذا قلت: قذف به إليه، فإنما معناه ألقاه إليه على جهة الاكراه والقهر. فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب. ويدمغه أبلغ من يذهبه، لما في يدمغه من التأثير فيه، فهو أظهر في النكأة وأعلى في تأثير القوة».

(٥) قال الرماني: «نسلخ: مستعار، وحقيقته: نخرج. والاستعارة أبلغ، لأن السلخ إخراج الشيء مما لابسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به، فكذلك قياس الليل».

(٦) قال الرماني ص١٣: «اللفظ هاهنا بالشوكة مستعار، وهو أبلغ. وحقيقته: السلاح، فذكر الحد الذي به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكتة، وإذا كان السلاح يشتمل على ما له حد وما ليس له حد، فشوكة السلاح هي التي تبقى».

(٧) قال الرماني: «عريض هاهنا مستعار، وحقيقته: كثير. والاستعارة فيه أبلغ، لأنه أظهر بوقوع الحاسة عليه، وليس كذلك كل كثرة. وقيل: عريض لأن العرض أدل على الطول».

(٨) قال الرماني ص١٤: «وهذا مستعار. وحقيقته: حتى يضع أهل الحرب أثقالها، فجعل وضع أهلها الأثقال وضعاً لها على جهة التفخيم لشأنها».

وقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير][(١)]، وقوله: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤][(٢)]. وقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٨][(٣)]. وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء][(٤)]. وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء][(٥)]. وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب][(٦)]. وقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩][(٧)]. وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السجدة: ٢١][(٨)]. وقوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ

(١) قال الرماني ص١١: «وتنفس: هاهنا مستعار. وحقيقته: إذا بدأ انتشاره. وتنفس أبلغ منه، ومعنى الابتداء فيهما، إلا أنه في التنفس أبلغ، لما فيه من الترويح عن النفس».

(٢) قال الرماني ص١٤: «هذا مستعار. وزلزلوا أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم. ومعنى حركة الإزعاج فيهما، إلا أن الزلزلة أبلغ وأشد».

(٣) قال الرماني: «حقيقته: تعرضوا للغفلة عنه. والاستعارة أبلغ، لما فيه من الإحالة على ما يتصور».

(٤) قال الرماني ص١٦: «أصل الحصيد للنبات. وحقيقته: مهلكة. والاستعارة أبلغ، لما فيه من الإحالة على إدراك البصر». وقال: «أصل الخمود للنار، وحقيقته: هادئين. والاستعارة أبلغ، لأن خمود النار أقوى في الدلالة على الهلاك، على حد قولهم: طفئ فلأن كما يطفأ السراج».

(٥) قال الرماني ص١٦: «واد: هاهنا مستعار. وكذلك الهيمان. وهو من أحسن البيان، وحقيقته: يخلطون فيما يقولون، لأنهم ليسوا على قصد الطريق الحق. والاستعارة أبلغ، لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يقع عليه الإدراك من تخليط الإنسان بالهيمان في كل واد يعن له فيه الذهاب».

(٦) قال الرماني ص١٦: «السراج هاهنا مستعار، وحقيقته: مبيناً، والاستعارة أبلغ، للاحاطة على ما يظهر بالحاسة».

(٧) قال الرماني ص١٧: «حقيقته: لا تمنع نائلك كل المنع، والاستعارة أبلغ، لأنه جعل منع النائل بمنزلة غلق اليد إلى العنق، وذلك مما يحس الحال، والتشبيه فيه بالمنع فيهما، إلا أن حال المغلول اليد أظهر وأقوى فيما يكره».

(٨) قال الرماني ص١٧: «حقيقته: لنعذبنهم. والاستعارة أبلغ، لأن إحساس الذائق أقوى لأنه طالب لإدراك ما يذوقه ولأنه جعل بدل إحساس الطعام المستلذ إحساس الآلام لأن الأسبق في الذوق ذوق الطعام».

﴿ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١] يريد: أن لا إحساس بآذانهم من غير صمم[(١)]. وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩][(٢)]. وهذا أوقع من اللفظ الظاهر، وأبلغ من الكلام الموضوع له.

٤ ـ وأما **التلاؤم** فهو: تعديل الحروف في التأليف. وهو نقيض التنافر الذي هو كقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر[(٣)]

قالوا: هو من شعر الجن! وحروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده إلا بتتعتع فيه![(٤)]. والتلاؤم على ضربين: أحدهما في الطبقة الوسطى. قالوا: والمتلائم في الطبقة العليا: القرآن كله، وإن كان بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض، كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض.

(١) قال الرماني ص١٧: «حقيقته: منعناهم الاحساس بآذانهم من غير صمم. والاستعارة أبلغ لأنه كالضرب على الكتاب فلا يقرأ، كذلك المنع من الإحساس فلا يحس. وإنما دل على عدم الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار لأنه أدل على المراد من حيث كان يضرب على الأبصار من غير عمى فلا يبطل الادراك رأساً، وذلك بتغميض الأجفان، وليس كذلك منع السماع من غير صمم في الآذان، لأنه إذا ضرب عليها من غير صمم دل على عدم الاحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك، ولأن الأذن لما كانت طريقاً إلى الانتباه ثم ضرب عليها لم يكن سبيل إليه».

(٢) قال الرماني ص١٧: «هذا مستعار. وحقيقته: ندموا لما رأوا من أسباب الندم. إلا أن الاستعارة أبلغ للاحالة فيه على الاحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد، فكانت حاله أكشف في سوء الاختيار لما يوجب الوبال».

(٣) البيت مجهول النسبة، بل نسب إلى الجن، وحرب: هو حرب بن أمية بن عبدشمس، والد أبي سفيان بن حرب: راجع البيان والتبيين ٦٥/١ والحيوان ٢٠٧/٦ وشرح شواهد الشافية ٤٨٧ ونهاية الإيجاز في دراية الاعجاز للرازى ص٢٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٢٧٧/٢.

(٤) نص عبارة الرماني ص١٨: «وذكروا أن هذا من أشعار الجن، لأنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتعتع. وإنما السبب في ذلك ما ذكرناه من تنافر الحروف».

والتلاؤم: حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب. وذلك كالخط الحسن والبيان الشافي، والمتنافر كالخط القبيح، فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات ـ ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، وبصيراً بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر.

والمتنافر؛ ذهب الخليل إلى أنه من بُعْدٍ شديد، أو قُرْبٍ شديد، فإذا بعد فهو كالطفر[(١)]. وإذا قرب جداً كان بمنزلة مشي المقيد. ويبين بقرب مخارج الحروف وتباعدها[(٢)].

❋ ❋ ❋

٥ ـ وأما **الفواصل** فهي: حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة. والأسجاع عيب، لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة للمعاني[(٣)]. والسجع كقول مسيلمة[(٤)].

---

(١) الطفر: القفز الشديد. *المختصر.

(٢) قال الرماني ص١٨: «لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال».

(٣) قال الرماني ص١٩: «والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة، إذ كان الغرض الذي هو كمة إنما هو الابانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة وصلته إليه فهو بلاغة، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة، ومثله مثل من رصع تاجاً ثم ألبسه زنجياً ساقطاً، أو نظم قلادة دُرٍّ ثم ألبسها كلباً! وقبح ذلك وعيبه بيّن لمن له أدنى فهم... وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إظهار المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها».

(٤) **يلاحظ**: أن السجع أسلوب يُقال فيه ما يقال في غيره من أساليب الكلام، الخلاف في إطلاقه على ما جاء في القرآن وعدمه يتوقف على تحديد المعنى المقصود به. فإن المخالف لهما يقول: إنَّ ما جاء في القرآن من السجع مغاير لما عند العرب من تبعية المعنى للفظ، بل أفضل منه، كما يقال في القصص والأقسام وغيرها. * المختصر.

ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة، كما قد تقع على حروف متقاربة، ولا تحتمل القوافي ما تحتمل الفواصل، لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة، لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي وإقامة الوزن(١).

❋ ❋ ❋

٦ ـ وأما **التجانس**، فهو: بيان أنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد. وهو على وجهين: مزاوجة، ومناسبة.

المزاوجة؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤](٢)، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وأما **المناسبة**؛ فهي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧](٣) وقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور](٤).

❋ ❋ ❋

(١) قال الرماني ص٢٠: «وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة. وأما القوافي فلا تحمل ذلك، لأنها ليست في الطبقة العليا من البلاغة. وإنما حسن الكلام فيها إقامة الوزن ومجانسة القوافي، فلو بطل أحد الشيئين خرج عن ذلك المنهاج، وبطل ذلك الحسن الذي له في الأسماع، ونقصت رتبته في الافهام. والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع، وتحسينها الكلام بالتشاكل، وإبداؤها في الآي بالنظائر».

(٢) قال الرماني ص٢١: «فالمزاوجة تقع في الجزاء كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي: جازوه بما يستحق على طريق العدل، إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان».

(٣) قال الرماني ص٢٢: «والثاني من التجانس وهو المناسبة، وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد، فمن ذلك قوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾... فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير. والأصل فيه واحد، وهو الذهاب عن الشيء، أما هم فذهبوا عن الذكر، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير».

(٤) قال الرماني: «فجونس بالقلوب التقلب. والأصل واحد فالقلوب تتقلب بالخواطر، والأبصار تتقلب بالمناظر، والأصل التصرف».

٧ ـ وأما **التصريف** فهو: تصريف الكلام في المعاني، كتصريفه في الدلالات المختلفة[١]، كتصريف (الملك) في معاني الصفات؛ فصرف في معنى (مالك) و(ملك) و(ذى الملكوت) و(المليك)، وفي معنى (التمليك) والتملك و(الاملاك). وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة، كما كرر من قصة موسى في مواضع[٢].

٨ ـ وأما **التضمين** فهو: حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه[٣]. وذلك على وجهين: تضمين **توجبه البُنْيَة**، كقولنا: معلوم؛ يوجب أنه لا بد من عالم. وتضمين **يوجبه معنى العبارة** من حيث لا يصح إلا به، كالصفة بضارب، على مضروب[٤].

والتضمين كله إيجاز، وذكر: أن التضمين الذي تدل عليه دلالات القياس أيضاً إيجاز[٥]. وذكر: أن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من باب

(١) قال الرماني ص٢٣: «... وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدل عليه».

(٢) قال الرماني ص٢٣: «أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصة، منها قصة موسى عليه السلام، ذكرت في سورة الاعراف، وفي طه، والشعراء، وغيرها، لوجوه من الحكمة: منها التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة. ومنها تمكين العبرة والموعظة. ومنها حل شبهة في المعجزة...».

(٣) قال الرماني بعد ذلك ص٢٤: «والتضمين على وجهين: أحدهما ما كان يدل عليه الكلام مما كان يدل عليه دلالة الاخبار. والآخر ما يدل عليه دلالة القياس. فالاول كذكرك الشيء بأنه محدث، فهذا يدل على الحدث دلالة الاخبار، فأما حادث فيدل على المحدث دلالة القياس دون دلالة الاخبار. والتضمين في الصفتين جميعاً، إلا أنه على الوجه الذي بينا...».

(٤) قال الرماني ص٢٤: «والتضمين على وجهين: تضمين توجبه البنية، وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به، ومن حيث جرت العادة بأن يقصد به. فالذي توجبه نفس البنية فالصفة بمعلوم توجب أنه لا بد من عالم وكذلك مكرم. وأما الذي يوجبه معنى العبارة من حيث لا تصح إلا به فكالصفة بقاتل، تدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل ولا مقتول، فهو على دلالة التضمين. والتضمين الذي يوجبه معنى العبارة من جهة جريان العادة فكقولهم: الكر بستين، المعنى فيه بستين ديناراً، فهذا مما حذف وضمن الكلام معناه لجريان العادة به».

(٥) قال الرماني: «والتضمين كله إيجاز استغنى به عن التفصيل، إذ كان مما يدل دلالة الاخبار في كلام الناس، وأما التضمين الذي يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز في كلام =

التضمين، لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الامور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى، أو التبرك باسمه[١].

٩ ـ وأما **المبالغة** فهي: الدلالة على كثرة المعنى.

وذلك على وجوه: منها **مبالغة في الصفة المبينة** لذلك، كقولك: (رحمٰن) عدل عن (راحم)[٢] للمبالغة، وكذلك فعال كقوله (غَفَّار)، وفعول؛ كقوله: (شكور وغفور)، وفعيل؛ كقوله: (رحيم) و(قدير). ومن ذلك أن **يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة**[٣]، **كقوله**: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٠٢، والرعد: ١٦، والزمر: ٦٢، وغافر: ٦٢] وكقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦][٤]. وكقوله: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: ٤٠][٥]. وكقوله: ﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ][٦]. **وقد يدخل فيه**

= الله ﷻ، لأنه تعالى لا يذهب عليه وجه من وجوه الدلالة، فنصبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها من كل وجه يصح أن يدل عليه، وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة، لأنه قد يذهب عنه دلالتها من جهة القياس، ولا يخرجه ذلك عن أن يكون قد قصد بها الابانة عما وضعت له في اللغة من غير أن يلحقه فساد في العبارة».

(١) قال الرماني: «وكل آية فلا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة، فمن ذلك: (بسم الله الرحمٰن الرحيم) قد ضمن التعليم لاستفتاح الامور على جهة التبرك به والتعظيم لله بذكره، وأنه أدب من آداب الدين وشعار المسلمين، وأنه إقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التي هي من أجل نعمه، وأنه ملجأ الخائف، ومعتمد للمستنجح».

(٢) قال الرماني بعد ذلك: «ولا يجوز أن يوصف به إلا الله ﷻ، لأنه يدل على معنى لا يكون إلا له، وهو معنى وسعت رحمته كل شيء».

(٣) قال الرماني ص٢٥: «الضرب الثاني المبالغة بالصيغة العامة في موضع الخاصة» كقوله... إلخ.

(٤) هذه الآية قد مثل بها الرماني للضرب الثالث من ضروب المبالغة، وهو إخراج الكلام مخرج الاخبار عن الاعظم الاكبر للمبالغة ثم قال: «أي: أتاهم بعظيم بأسه فجعل ذلك إتياناً له على المبالغة».

(٥) مثل بها الرماني للضرب الرابع، وهو إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة.

(٦) مثل بها الرماني للضرب الخامس، وهو إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل، والمظاهرة في الحِجَاج.

الحذف الذي تقدم ذكره للمبالغة[١].

١٠ ـ وأما **حسن البيان** فالبيان على أربعة أقسام[٢]: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة.

ويقع التفاضل في البيان، ولذلك قال عز من قائل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤][٣] ونقيضه العِيُّ، ومنه قيل: «أعيا من باقل»؛ سئل عن ظبية في يده: بكم اشتراها؟ فأراد أن يقول: بأحد عشر، فأشار بيديه ماداً أصابعه العشر، ثم أدلع لسانه، فأفلتت الظبية من يده!!

ثم **البيان على مراتب**[٤].

❋ ❋ ❋

(١) قال الرماني ص٢٦: «الضرب السادس حذف الاجوبة للمبالغة كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ و﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ ومنه ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ كأنه قيل: لجاء الحق، أو لعظم الامر، أو لجاء بالصدق. كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخيم. والحذف أبلغ من الذكر، لأن الذكر يقصر على وجه، والحذف يذهب بالوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم، لما قد تضمنه من التفخيم».

(٢) قال الرماني ص٢٦: «البيان هو الاحضار لما يظهر به تمييز الشيء من غيره في الإدراك. والبيان على أربعة أقسام... والكلام على وجهين: كلام يظهر به تميز الشيء من غيره فهو بيان، وكلام لا يظهر به تميز الشيء فليس ببيان، كالكلام المخلط والمحال الذي لا يفهم به معنى. وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن، من قبل أنه قد يكون على عِيّ وفساد». ثم حكى ما حكى عن عِيّ باقل وإفلات الظبي من يده، ثم قال: «فهذا وإن كان قد أكد للأفهام فهو أبعد الناس عن حسن البيان».

(٣) سبب استشهاد الرماني بهذه الآية أنه قال ص٢٧: «وليس يحس أن يطلق اسم بيان على قبيح من الكلام، لأن الله قد مدح البيان واعتد به في أياديه الجسام فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعني به إفهام المراد جاز».

(٤) قال الرماني ص٢٧: «وحسن البيان في الكلام على مراتب: فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس تقبل البرهان، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة... والقرآن كله في نهاية حسن البيان...».

[استفادة إعجاز القرآن من وجوه البيان]:

من الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التي عددناها في هذا الفصل. واعلم أن الذي بيناه وذهبنا إليه هو سديد، وهو أن هذه الأمور تنقسم: فمنها: ما يمكن الوقوع عليه، والتعمل له، ويدرك بالتعلم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به. وأما **ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه.** ونحن نضرب لك أمثله، لتقف على ما ذهبنا إليه.

[إعجاز البيان في القرآن والتمثيل له]:

ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان، ولو لم يكن فيه إلا ما مَنَّ به الله على خلقه بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن].

فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه.

تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف]، في شدة التنبيه على تركهم الحق والاعراض عنه. وموضع امتنانه بالذكر والتحذير[١]. وقوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾ [الزخرف][٢]، وهذا بليغ في التحسير. وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معودين لمخالفة النهي والأمر. وقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف][٣]، هو في نهاية المنع من الخلة إلا على التقوى. وقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦][٤]، وهذا نهاية في التحذير من التفريط. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) نص عبارة الرماني ص٢٨. «فهذا أشد ما يكون من التقريع».
(٢) قال الرماني: «فهذا أعظم ما يكون من التحسير».
(٣) قال الرماني: «وهذا أشد ما يكون له من التنفير عن الخلة إلا على التقوى».
(٤) قال الرماني: «فهذا أشد ما يكون من التحذير من التفريط».

﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت]، هو النهاية في الوعيد والتهديد. وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى] نهاية في الوعيد. وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف]، نهاية في الترغيب. وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون]، وكذلك قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ [الأنبياء] نهاية في الحِجَاج[1]. وقوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك] نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات.

ولا وجه للتطويل، فإن بيان الجميع في الرفعة وكبر المنزلة على سواء. وقد ذكرنا من قبل: **أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز، وهو معجز من القرآن.**

[نقد الباقلاني لكلام الرماني]:

ذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل: أن التشبيه تعرف به البلاغة.

وذلك مُسَلَّم، ولكن إن قلنا: ما وقع من التشبيه في القرآن معجز ـ عرض علينا من التشبيهات الجارية في الأشعار ما لا يخفى عليك، وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر، وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء. وكذلك كثير

(١) قال الرماني ص٢٩: «وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج. لأنه لو كان إله آخر لبطل الخلق بالتمانع بوجودهما دون أفعالهما». أ.هـ. مختصراً. فهو دليل عقلي مؤيد للنقلي، وليس هو الأصل فقط. *المختصر.

من وجوه البلاغة، قد بينا أن تَعَلُّمها يمكن، وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره.

فإن كان إنما يعني هذا القائل أنه إذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية، ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض، وينتهي منه إلى متصرفاته ـ على أتم البلاغة وأبدع البراعة ـ فهذا مما لا نأباه، بل نقول به.

وإنما ننكر أن يقول قائل: **إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه ما يصل به من الكلام ويفضي إليه**، مثل ما يقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإن التشبيه معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة. فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه، فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها ـ فإني لا أدفع ذلك وأصححه، ولكن لا أدعي إعجازها لموضع التشبيه. وصاحب المقالة التي حكيناها، أضاف ذلك إلى موضع التشبيه وما قرن به من الوجوه، **ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان، وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس**، ولذلك قال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وقال: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء] فكرر في مواضع ـ جل ذكره ـ أنه مبين.

فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه: من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف، مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناء ورفعة.

وإذا علا الكلام في نفسه، كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس، ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب. ويهز الاعطاف، ويستميل نحوه الاسماع. ويورث الاريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً. وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة. وبحسب ما

يترتب في نظمه، ويتنزل في موقعه، ويجري على سمت مطلعه ومقطعه ـ يكون عجيب تأثيراته، وبديع مقتضياته. وكذلك على حسب مصادره، يتصور وجوه موارده، وقد ينبئ الكلام عن محل صاحبه، ويدل على مكان متكلمه، وينبه على عظيم شأن أهله، وعلى علو محله. ألا ترى أن الشعر في الغزل إذا صدر عن محب؛ كان أرق وأحسن، وإذا صدر عن متعمل، وحصل من متصنع ـ نادى على نفسه بالمداجاة، وأخبر عن خبيئه في المراءاة؟! وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع؛ فيعلم وجه صدوره، ويدل على كنهه وحقيقته. وقد يصدر عن المتشبه، ويخرج عن المتصنع، فيعرف من حاله ما ظن أنه يخفيه، ويظهر من أمره خلاف ما يبديه. وأنت تعرف لقول المتنبي:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم[١]

من الوقع في القلب؛ لما تعلم أنه من أهل الشجاعة، ما لا تجده للبحتري في قوله:

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي بعقر قس والمشرفية شهدي[٢]

وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب، في الفخر وغيره، ما لا تجده لغيره، لأنه إذا قال:

إذا شئت أوقرت البلاد حوافراً وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار[٣]

وقال:

قد ترديت بالمكارم دهراً وكفتني نفسي من الافتخار[٤]

(١) ديوانه ٢٦٢/٢ وهي رواية الواحدي.
(٢) ديوانه ص٤٦١.
(٣) ديوانه ص٣٧.
(٤) ديوانه ص٣٩.

أنـا جـيـش إذا غـزوت وحـيـداً ووحـيـد فـي الـجـحـفـل الـجـرار

وقال:

أيها السائلي عن الحسب الأطـ ـيب ما فوقه لخلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الحق ق وأهل القربى، فماذا تريد؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأتته رايات ليل وسود[١]

فانظر في جميع شعره، تعلم أنه ملك الشعر، وأنه يليق به من الفخر خاصة، ثم مما يتبعه مما يتعاطاه ـ ما لا يليق بغيره، بل ينفر عن سواه. ولم أحب أن أكثر عليك، فأطول الكتاب بما يخرج عن غرضه. والشيء إذا صدر من أهله، وبدا من أصله، وانتسب إلى ذويه ـ سلم في نفسه، وبانت فخامته وشوهد أثر الاستحقاق فيه. وإذا صدر من متكلف، وبدا من متصنع ـ بان أثر الغربة عليه، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه، وعرف شمائل التحير منه.

وإنما ذكرت لك هذه الأمور، لتعلم أن الشيء في معدنه أعز، وإلى مظانه أحن، وإلى أصله أنزع، وبأسبابه أليق، وهو يدل على ما صدر منه، وينبه ما أنتج عنه، ويكون قراره على موجب صورته، وأنواره على حسب محله، ولكل شيء حَدٌّ ومذهب، ولكل كلام سبيل ومنهج.

وقد ذكر أبو بكر الصديق ﷺ في كلام مسيلمة ما أخبرتك به، فقال: إن هذا كلام لم يخرج من إِلّ[٢]. فدل على أن الكلام الصادر عن عزة

(١) ديوانه ص٣٠.

(٢) في اللسان ٢٦/١٣ عن ابن سيدة «والال: الله ﷻ، بالكسر، وفي حديث أبي بكر ﷺ لما تلي عليه سجع مسيلمة: إن هذا لشيء ما جاء به إل ولا بر، فأين ذهب بكم؟ أي من ربوبية. وقيل: الإل: الأصل الجيد: أي لم يجئ من الأصل الذي جاء منه القرآن. وقيل: الإل: النسب والقرابة. فيكون المعنى: إن هذا كلام غير صادر من مناسبة الحق، ولا إدلاء بسبب بينه وبين الصدق». والنص في اللسان محرف، صححناه بما يستقيم به.

الربوبية ورفعة الإلٰهية، يتميز عمَّا لم يكن كذلك.

❋ ❋ ❋

وما حكينا عن صاحب الكلام: من **المبالغة في اللفظ** ـ فليس ذلك بطريق الإعجاز، لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام غيره، وليس ذلك بمعجز، بل قد **يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة، وجوه من اللفظ تثمر الإعجاز.**

و**تضمين المعاني** أيضاً قد يتعلق به الإعجاز إذا حصلت للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها.

وأما **الفواصل** فقد بيَّنا أنه يصح أن يتعلق بها الإعجاز، وكذلك قد بينا في المقاطع والمطالع نحو هذا، وبيَّنا في «تلاؤم» الكلام ما سبق: من صحة تعلق الإعجاز به.

والتصرف في **الاستعارة البديعة** يصح أن يتعلق به الإعجاز، كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام، لأن البلاغة في كل واحد من البابين تجري مجرى واحداً وتأخذ مأخذاً مفرداً.

وأما **الإيجاز والبسط** فيصح أن يتعلق بهما الإعجاز، كما يتعلق بالحقائق.

و**الاستعارة والبيان** في كل واحد منهما ما لا يضبط حده، ولا يقدر قدره، ولا يمكن التوصل إلى ساحل بحره بالتعلم، ولا يتطرق إلى غوره بالتسبب.

فإن قيل: فالبيان قد يتعلم؟ قيل: إن الذي يمكن أن يتوصل إليه بالتعلم يتقارب فيه الناس، وتتناهى فيه العادات، وهو كما يعلم من مقادير القوى في حمل الثقيل، وأن الناس يتقاربون في ذلك، **فيرمون فيه إلى حَدٍّ، فإذا تجاوزوه وقفوا بعده ولم يمكنهم التخطي، ولم يقدروا على التعدي، إلا أن يحصل ما يخرق العادة، وينقض العرف،** ولن يكون ذلك إلا للدلالة على النبوات، على شروط في ذلك.

والقدر الذي يفوت الحد في البيان، ويتجاوز الوهم، ويشذ عن الصنعة، ويقذفه الطبع في النادر القليل، كالبيت البديع، والقطعة الشريفة التي تتفق في ديوان شاعر، والفقرة تتفق في رسالة كاتب، حتى يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين، أو قطعة أو قطعتين، والأديب شهير كلمة أو كلمتين ـ ذلك أمر قليل. ولو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك، ويستمر على ذلك المنهج أمكن أن يدعي فيه الإعجاز. ولكنك إن كنت من أهل الصنعة: تعلم قلة الأبيات الشوارد، والكلمات الفرائد، وأمهات القلائد. فإن أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية، **وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية ـ لم تجد ذلك في الدواوين، ولم تظفر بذلك إلى يوم الدين.**

ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة، ولفظة بديعة، وإنما أنكرنا أن يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها، وأحَلْنَا أن يتمكنوا من حَدٍّ في البلاغة، ومقدار في الخطابة. وهذا كما قلناه: من أن **صورة الشعر قد تتفق في القرآن، وإن لم يكن له حكم الشعر.**

❋ ❋ ❋

فأما قدر المعجز فقد بينا أنها السورة، طالت أو قصرت، وبعد ذلك خلاف: من الناس من قال: مقدار كل سورة أو أطول آية، فهو معجز. وعندنا كل واحد من الأمرين معجز، والدلالة عليه ما تقدم، والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك، فلذلك لم نحكم بإعجازه، وما صح أن تتبين فيه البلاغة، **ومحصولها: الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ، وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام.**

فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى، كان بالغاً وبليغاً. **فإذا تجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، وانتهى إلى أمد يعجز عنه الكامل في البراعة ـ صح أن يكون له حكم المعجزات،** وجاز أن يقع موقع الدلالات. وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مباين لسائر كلامهم، ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر.

❋ ❋ ❋

فإن قيل: فإذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة، تباين جميع ديوانه في البلاغة، ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه، ولا يعرف سبب ذلك البيت، ولا تلك القطعة في التفصيل، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك أو يجعل جميع كلامه من ذلك النمط، لم يجد إلى ذلك سبيلاً، وله سبب في الجملة وهو التقدم في الصنعة، لأنه يتفق من المتأخر فيها ـ فهلا قلتم: إنه إذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغه القصوى، كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وسمت تلك القطعة؟ وهلا قلتم: إن القرآن من هذا الباب؟ فالجواب: أنَّا **لم نجد أحداً بلغ الحد الذي وصفتم في العادة.**

وهذا الناس وأهل البلاغة أشعارهم عندنا محفوظة، وخطبهم منقولة، ورسائلهم مأثورة، وبلاغاتهم مروية، وحكمهم مشهورة، وكذلك أهل الكهانة والبلاغة، مثل: قس بن ساعدة، وسحبان وائل، ومثل شق، وسطيح، وغيرهم ـ كلامهم معروف عندنا، وموضوع بين أيدينا، لا يخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ، ولا خطابة خطيب، ولا براعة شاعر مفلق، ولا كتابة كاتب مدقق.

فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في **البلاغة**، أو يشاكله في **الإعجاز**، مع ما وقع من **التحدي** إليه المدة الطويلة، وتقدم من التقريع في المجازاة الأمد المديد، وثبت له وحده خاصة قصب السبق، والاستيلاء على الأمد، وعجز الكل عنه، ووقفوا دونه حيارى، يعرفون عجزهم، وإن جهل قوم سببه، ويعلمون نقصهم، وإن أغفل قوم وجهه ـ رأينا أنه ناقض للعادة، ورأينا أنه خارق للمعروف في الجبلة. وخرق العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات، وعلى أن من ظهرت عليه، ووقعت موقع الهداية إليه، صادق فيما يدعيه من نبوته، ومحق في قوله، ومصيب في هديه، قد شهدت له الحجة البالغة، والكلمة التامة، والبرهان النير، والدليل البين.

[بلاغة القرآن في علم المعاني وتصوير الكلام]:

ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك، وأغمض وأدق وألطف. **وتصوير ما في النفس**، وتشكيل ما في القلب، حتى تعلمه وكأنك مشاهده، وإن كان قد يقع بالإشارة، ويحصل بالدلالة والأمارة، كما يحصل بالنطق الصريح، والقول الفصيح ـ **فللإشارات أيضاً مراتب، وللسان منازل.** ورُبَّ وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه، ورُبَّ وصف يبر عليه ويتعداه. ورُبَّ وصف يقصر عنه. ثم إذا صدق الوصف انقسم إلى: صحة وإتقان، وحسن وإحسان، وإلى إجمال وشرح، وإلى استيفاء وتقريب، وإلى غير ذلك من الوجوه. ولكل مذهب وطريق، وله باب وسبيل:

فوصف الجملة الواقعة، كقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف].

و**التفسير** كقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف]. إلى آخر الآيات في هذا المعنى. وكنحو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج]. هذا مما يصور الشيء على جهته، ويمثل أهوال ذلك اليوم.

ومما يصور لك **الكلام الواقع في الصفة**، كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء]. وقال في موضع آخر: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف]. وهذا ينبئ عن كلام الحزين لما ناله، الجازع لما مسه.

ومن باب **التسخير والتكوين**، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]. وقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة]. وكقوله: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء].

وتقصي أقسام ذلك مما يطول، ولم أقصد استيفاء ذلك، وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل، وأشرت إليك بما أشرت لتتأمل.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فصل
في ذكر البديع من الكلام

إن سأل سائل فقال: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟ قيل: ذكر أهل الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظاً نحن نذكرها، ثم نبين ما سألوا عنه، ليكون الكلام وارداً على أمر مبين، وباب مقرر مصور.

ذكروا: أن من البديع في القرآن قوله عز ذكره: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف]. وقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤] وقوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧﴾ [يس]. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج]. وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ [النور: ٣٥].

وقد يكون **البديع في الكلمات الجامعة الحكيمة**، كقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة].

وفي الألفاظ الفصيحة، كقوله: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف].

وفي الألفاظ الإلهية، كقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ [النمل: ٩١]. وقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣]. وقوله: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ

عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر].

❋ ❋ ❋

ومن ذلك **الاستعارة المليحة**، ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾.

❋ ❋ ❋

ومما يعدونه من البديع **التشبيه الحسن**، ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمٰن]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات] ومواضع نذكرها بعد هذا.

ومن **البديع في الاستعارة** ـ والاستعارة في القرآن كثير ـ كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، يريد: ما يكون الذكر عنه شرفاً. وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، قيل: دين الله أراد. وقوله: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

ومن البديع عندهم **الغلو والافراط في الصفة**، ومن هذا الجنس في القرآن: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق]. وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان]. وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

ومما يعدونه من البديع **المماثلة** وهو ضرب من الاستعارة سماه قدامة: التمثيل، وهو على العكس من الإرداف، لأن الإرداف مبني على الإسهاب والبسط، وهو مبني على الإيجاز والجمع. وذلك أن يقصد الاشارة إلى معنى، فيضع ألفاظاً تدل عليه، وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذي قصد الاشارة إليه. ومن هذا الباب في القرآن قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة]. وكقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر]، قال الأصمعيّ: أراد البدن، قال: وتقول العرب: «فدى لك ثوباي». يريد نفسه. وأنشد:

ألا أبـــلـــغ حـــفـــص رســـولاً فـدى لـك مـن أخـي ثـقـة إزاري[١]

ويرون من البديع أيضاً ما يسمونه **المطابقة**، وأكثرهم على أن معناها أن يذكر الشيء وضده، كالليل والنهار، والسواد والبياض، وإليه ذهب الخليل ابن أحمد والاصمعِيّ، ومن المتأخرين عبدالله بن المعتز. وذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم[٢]: «أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع، فأدخلتنا في ضيق الضمان». ومن القرآن: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [سورتي يونس: ٣١ والروم: ١٩]، وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [في أربعة مواضع؛ الحج: ٦١، ولقمان: ٢٩، وفاطر: ١٣، والحديد: ٦]. ومثله كثير جداً.

فهذا باب يرونه من البديع.

❋ ❋ ❋

وباب آخر وهو: **التجنيس**، ومعنى ذلك: أن تأتي بكلمتين متجانستين: فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف حروفها ومعناها. وإليه ذهب الخليل[٣]. ومنهم من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق[٤] كقوله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٢]، وكقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [النمل: ٤٤]. وكقوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، وكقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]. وكقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].

(١) البيت من قصيدة كتب بها إلى عمر بن الخطاب، أبو المنهال: بقيلة الأكبر الاشجعي، في شأن واليهم الغزل جعدة بن عبدالله السلمي، وانظر: اللسان ٥/٧٥، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٦٣، وتأويل مشكل القرآن ص٢٠٥. * المختصر.
(٢) كتاب البديع ص٧٤.
(٣) البديع ص٥٥.
(٤) نقد الشعر ص٦١.

وقد يكون التجنيس بزيادة حرف أو بنقصان حرف أو ما يقارب ذلك، وقد قيل: إن من هذا القبيل قوله ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٥].

ويعدون من البديع **المقابلة**، وهي: أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده، ومن القرآن: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل].

ويعدون من البديع **الموازنة**، ومن القرآن: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ [البروج].

ويعدون من البديع **المساواة**، وهي أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه. وذلك يعد من البلاغة ونظير ذلك في القرآن كثير.

ومما يعدونه من البديع **الإشارة**، وهو: اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة. وقال بعضهم[1] في وصف البلاغة: البلاغة: لمحة دالة.

ومن القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد: ٣١]. ومواضع كثيرة.

ويعدون من البديع **المبالغة**، **والغلو**. والمبالغة: تأكيد معاني القول.

ويرون من البديع **الإيغال** في الشعر خاصة، فلا يطلب مثله في القرآن إلا في الفواصل.

ومن البديع عندهم **التوشيح**، وهو أن يشهد أول البيت بقافيته وأول الكلام بآخره، ومثله في القرآن: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة].

ومن ذلك **ردُّ عجز الكلام على صدره**، كقول الله ﷻ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ

(١) هو خلف الأحمر، كما في العمدة ٢١٣/١.

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].
وكقوله: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه][1].

ومن البديع **صحة التقسيم**، ونحوه قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ونحوه: **صحة التفسير**؛ وهو أن توضع معان تحتاج إلى شرح أحوالها، فإذا شرحت أثبتت تلك المعاني من غير عدول عنها ولا زيادة ولا نقصان.

ومن البديع: **التكميل والتتميم**؛ وهو أن يأتي بالمعنى الذي بدأ به بجميع المعاني المصححة المتممة لصحته، المكملة لجودته، من غير أن يخل ببعضها، ولا أن يغادر شيئاً منها. وذلك كقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى آخر الآية؛ ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان].

ومن البديع: **الترصيع**. وذلك على ألوان.

ومن ذلك: **الترصيع مع التجنيس**، ومن القرآن كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات]، وكقوله: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ [الطور]، وقوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾﴾ [النازعات].

(١) في مفردات غريب القرآن للراغب الاصفهانى ص٢٢٤: «السحت: القشر الذي يستأصل».

وقد أولع الشعراء بنحو هذا، فأكثروا فيه. ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف الكلام، ومنهم من بنى كلامه كله عليه، ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى: **المضارعة**.

ومن البديع باب: **التكافؤ**، وذلك قريب من **المطابقة**.

ومن البديع باب: **التعطف**.

ومن البديع: **السلب والايجاب**.

ومن البديع **الكناية والتعريض**. ومن هذا الباب **لحن القول**.

ومن ذلك: **العكس والتبديل** وقد يدخل في هذا الباب قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [في أربع مواضع؛ الحج: ٦١، ولقمان: ٢٩، وفاطر: ١٣، والحديد: ٦].

ومن البديع: **الالتفات** ومعنى الالتفات أنه اعترض في الكلام[١] ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله تعالى عن إبراهيم الخليل من قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [العنكبوت].

وقوله ﷻ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ١٩ ـ ٢١]، ومثله قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ

(١) قال ابن المعتز في البديع ص١٠٦: «الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الاخبار، وعن الاخبار إلى المخاطبة...».

هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس]، ومثله قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦]. ومثله قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٨ ـ ٣٩]. ومنهم من لا يعد **الاعتراض والرجوع**[١] من هذا الباب. ومنهم من يفرده عنه.

وباب آخر من البديع يسمى: **التذييل**، وهو ضرب من التأكيد، وهو ضد ما قدمنا ذكره من الاشارة[٢] ومثله قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص].

وباب من البديع يسمى **الاستطراد**[٣]. ومن القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل]، كأنه كان المراد من أن يجري بالقول الأول إلى الاخبار عن أن كل شيء يسجد لله ﷻ، وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص.

---

(١) في البديع ص١٠٨: «ومن محاسن الكلام أيضاً والشعر: اعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه، ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد... ومنها الرجوع وهو: أن يقول شيئاً ويرجع عنه...».

(٢) في الصناعتين ص٢٩٤: «فأيما التذييل فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه ويتوكد عند فهمه، وهو ضد الإشارة والتعريض...».

(٣) في الصناعتين ص٣١٦: «وهو أن يأخذ المتكلم في معنى، فبينا يمر فيه يأخذ في معنى آخر وقد جعل الأول سبباً إليه».

ومن البديع عندهم: **التكرار**، ومن القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الانشراح]. وكالتكرار في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون]. وهذا فيه معنى زائد على التكرار، لأنه يفيد الاخبار عن الغيب.

ومن البديع عندهم ضرب من **الاستثناء**.

ووجوه البديع كثيرة جداً، فاقتصرنا على ذكر بعضها، ونبهنا بذلك على ما لم نذكر، كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع.

❋ ❋ ❋

[استفادة الإعجاز من وجوه البديع]:

إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم من وجوه البديع، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال. وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه. وليس كذلك عندنا، لأن **هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها**، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الانسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه. والوجوه التي تقول: إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال.

ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدمناه، من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه. وذلك: أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة. وله طريق يسلك، ووجه يقصد، وسلم يرتقي فيه إليه، ومثال قد يقع طالبه عليه. فرب إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً، وآخر يتعود أن يكون جميع خطابه سجعاً، أو صنعة متصلة، لا يسقط من كلامه حرفاً، وقد يتأتى له لما قد تعوده.

وأنت ترى أدباء زماننا يضعون المحاسن في جزء. وكذلك يؤلفون أنواع البارع، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو خطبة فيحسنون به كلامهم. ومن كان قد تدرب وتقدم في حفظ ذلك ـ استغنى عن هذا التصنيف، ولم يحتج إلى تكلف هذا التأليف، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطاً من باع كلامه، وموشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله.

وهذا طريق لا يتعذر، وباب لا يمتنع، وكل يأخذ فيه مأخذاً ويقف منه موقفاً، على قدر ما معه من المعرفة، وبحسب ما يمده من الطبع. فأما شأو نظم القرآن، فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً، كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة، والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب، وكما يلحق من كلامه بالوحشيات، ويضاف من قوله إلى الأوابد، لأن ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع، فإنما يتفق للشاعر في لمع من شعره، وللكاتب في قليل من رسائله، وللخطيب في يسير من خطبه. ولو كان كل شعره نادراً، ومثلاً سائراً، ومعنًى بديعاً، ولفظاً رشيقاً، وكل كلامه مملوءاً من رونقه ومائه، ومحلى ببهجته وحسن روائه، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين، والمتردد بين الطرفين، ولا البارد المستثقل، والغث المستنكر ـ لم يبن الإعجاز في الكلام، ولم يظهر التفاوت العجيب بين النظام والنظام. وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل، ومبهم قد يحتاج في بعضه إلى تفسير. وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه.

ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه إليهم: إن ذلك باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة، وإنه **لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم، وإذا أورد هذا المورد، ووضع هذا الموضع ـ كان جديراً. وإنما لم نطلق القول إطلاقاً، لأنا لا نجعل الإعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصة ووقفاً عليها، ومضافاً إليها، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة، آخذة بحظها من الحسن والبهجة، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع.**

ونحن نبين تميز كلامهم، وانحطاط درجة قولهم، ونزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن، في باب مفرد، يتصور به ذو الصنعة ما يجب تصوره، ويتحقق وجه الإعجاز فيه، بمشيئة الله وعونه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فصل في:
[أ ـ نفي الشعر من القرآن]

قد علمنا أن الله تعالى نفى الشعر عن القرآن وعن النبي ﷺ، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس]. وقال في ذم الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء] إلى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات. وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤١]. وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار ـ من قولهم: إنه شاعر، وإن هذا شعر ـ لا بد من أن:

١ ـ يكون محمولاً على أنهم نسبوه إلى أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام، لا أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة.

٢ ـ أو يكون محمولاً على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر، لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق لهم في المنطق. وإن كان ذلك الباب خارجاً عما هو عند العرب شعر على الحقيقة.

٣ ـ أو يكون محمولاً على أنه أطلقه بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر. وهذا أبعد الاحتمالات. فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحاً، وذلك أن الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره، وإذا قدر

على صنعة الشعر كان على ما دونه ـ في رأيهم وعندهم ـ أقدر، فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب.

فإن زعم زاعم أنه قد وجد في القرآن شعراً كثيراً، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام أو أبيات تامة، ومنه ما يزعمون أنه مصراع، كقول القائل:

قد قلت لما حاولوا سلوتي (هيهات هيهات لما توعدون)[١]

ومما يزعمون أنه بيت، قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]. قالوا: هو من الرمل، من البحر الذي قيل فيه:

ساكن الريح نطوف الـ ـمزن منحل العزالي[٢]

وقوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١٨]. كقول الشاعر من بحر الخفيف:

كل يوم بشممسه وغد مثل أمسه

وكقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق] قالوا: هو من المتقارب. وكقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾ [الإنسان]. ويشبعون حركة الميم، فيزعمون أنه من الرجز.

---

(١) سورة المؤمنون: ٣٦.

(٢) يصف يوماً مطيراً. والنطوف: القطور، وليلة نطوف: قاطرة تمطر حتى الصباح. المزن: السحاب. والعزالي، بكسر اللام: جمع عزلاء، وهي مصب الماء من الرواية والقربة في أسفلها حيث يستفرغ ما فيها من الماء. يقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر: قد حلت عزاليها، على تشبيه اتساع المطر واندفاقه بالذي يخرج من فم المزادة.

وذكر عن أبي نواس أنه ضمن ذلك شعراً، وهو قوله[١]:

وفتية في مجلس وجوههم ... ريحانهم قد عدموا التثقيلا
(دانية عليهم ظلالها ... وذللت قطوفها تذليلا)

وقوله ﷻ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة]. زعموا أنه من الوافر، كقول الشاعر[٢]:

لنا غنم نسوقها غزار ... كأن قرون جلتها عصي[٣]

وكقوله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون] ضمَّنه أبو نواس في شعره ففصل، وقال: «فذاك الذي» وشعره:

وقرا معلنا ليصدع قلبي ... والهوى يصدع الفؤاد السقيما[٤]
أرأيت الذي يكذب بالدي ... ـن فذاك الذي يدع اليتيما

وهذا من الخفيف، كقول الشاعر:

وفؤادي كعهده بسليمي ... بهوى لم يحل ولم يتغير[٥]

وكما ضمنه في شعره من قوله:

سبحان من سخر هذا لنا ... (حقاً) وما كنا له مقرنين[٦]

(١) أخبار أبي نواس ٥٣/٢.
(٢) امرؤ القيس كما في اللسان ٣٢/١٢ والديوان ص١٩٢.
(٣) نسوقها: نسوقها. غزار: كثيرة. جلتها: جمع جليل، وهي الغنم الكبيرة المسنة.
(٤) أخبار أبي نواس ٥٣/٢، وقد ذكرهما المؤلف في كتاب التمهيد ص١٢٨ ولم ينسبهما.
(٥) في العقد الفريد ٤٩١/٥ «لم يزل».
(٦) أخبار أبي نواس ٥٥/٢. قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر.

وكما يقولونه في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ [العاديات] ونحو ذلك من القرآن كثير، كقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ [الذاريات]. وهو عندهم شعر من بحر البسيط.

والجواب عن هذه الدعوى التي ادعوها، من وجوه:

١ ـ أولها: أن الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعراً، ولم يروه خارجاً عن أساليب كلامهم ـ **لبادروا إلى معارضته**، لأن الشعر مسخر لهم مسهل عليهم، ولهم فيه ما علمت من التصرف العجيب، والاقتدار اللطيف. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، ولا عولوا عليه: عُلِم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة، والمرمدون في هذا الشأن. وإن استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم، وزعمه أنه قد ظفر بشعر في القرآن وقد ذهب أولئك النفر عنه وخفي عليهم مع شدة حاجتهم عندهم إلى الطعن في القرآن والغض منه والتوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه ـ فلن يجوز أن يخفى على أولئك، وأن يجهلوه، ويعرفه من جاء الآن، وهو بالجهل حقيق!

٢ ـ إذا كان كذلك، علم أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد، وهو أنهم قالوا: إن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعراً، **وأقَلُّ الشعر بيتان فصاعداً. وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية** من أهل الإسلام.

٣ ـ وقالوا أيضاً: إن **ما كان على وزن بيتين، إلا أنه يختلف وزنهما أو قافيتهما** ـ فليس بشعر.

٤ ـ ثم منهم من قال: إن **الرجز ليس بشعر أصلاً، لا سيما إذا كان مشطوراً أو منهوكاً**. وكذلك ما كان يقاربه في قلة الأجزاء. وعلى هذا يسقط السؤال.

٥ ـ ثم يقولون: إن الشعر إنما يطلق: **متى قصد القاصد إليه ـ على الطريق الذي يعتمد ويسلك**، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوي فيه العامي والجاهل، والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد، فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صح أن يسمى كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام بعض الاعاريض، كان الناس كلهم شعراء، لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض في جملة كلام كثير يقوله، ما قد يتزن بوزن الشعر وينتظم انتظامه. ألا ترى أن العامي قد يقول لصاحبه: «أغلق الباب وائتني بالطعام». ويقول الرجل لاصحابه: «أكرموا من لقيتم من تميم»؟ ومتى تتبع الانسان هذا النحو عرف أنه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه[١]. وهذا القدر الذي يصح فيه التوارد، ليس يعده أهل الصناعة سرقة، إذا لم تعلم فيه حقيقة الأخذ. كقول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل[٢]

وكقول طرفة:

---

(١) قال الجاحظ في البيان والتبيين ١ ـ ٢٨٨: «ويدخل على من طعن في قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ وزعم أنه شعر لأنه في تقدير مستفعلن مفاعلن... فيقال له: اعلم أنك لو اعترضت الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيراً، ومستفعلن مفاعلن. وليس أحد في الارض يجعل ذلك المقدار شعراً. ولو أن رجلاً من الباعة صاح: من يشترى باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات! وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالاوزان والقصد إليها، كان ذلك شعراً. وسمعت غلاماً لصديق لي، وكان قد سقى بطنه، وقد يقول لغلمان مولاه: اذهبوا إلى الطبيب وقولوا: قد اكتوى. وهذا الكلام يخرج وزنه على روح فاعلاتن مفاعلن. فاعلاتن مفاعلن. مرتين. وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر على باله قط أن يقول بيت شعرا أبداً. ومثل هذا كثير، ولو تتبعته في كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته».

(٢) ديوانه ص١٢٥.

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد[١]

ومثل هذا كثير. فإذا صح مثل ذلك في بعض البيت ولم يمتنع التوارد فيه، فكذلك لا يمتنع وقوعه في الكلام المنثور اتفاقاً غير مقصود إليه، فإذا اتفق لم يكن ذلك شعراً. وكذلك يمتنع التوارد على بيتين، وكذلك يمتنع في الكلام المنثور وقوع البيتين ونحوهما. فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموقع لم يعد شعراً، وإنما يعد شعراً ما إذا قصده صاحبه: تأتي له، ولم يمتنع عليه. فإذا كان هو مع قصده لا يتأتى له، وإنما يعرض في كلامه عن غير قصد إليه ـ لم يصح أن يقال: إنه شعر، ولا إن صاحبه شاعر، ولا يصح أن يقال: إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب أن يكون شعراً، لأنه لو قصده لكان يتأتى له. وإنما لم يصح ذلك، لأن ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعراً من أحد، وما كان شعراً من أحد من الناس كان شعراً من كل أحد. ألا ترى أن السوقي قد يقول: «اسقني الماء يا غلام سريعاً»، وقد يتفق ذلك من الساهي ومن لا يقصد النظم. فأما الشعر إذا بلغ الحد الذي بينا، فلا يصح أن يقع إلا من قاصد إليه.

[ب ـ ليس في القرآن شيء من الرجز]

وأما الرجز:

١ ـ فإنه يعرض في كلام العوام كثيراً، فإذا كان بيتاً واحداً فليس ذلك بشعر.

٢ ـ وقد قيل: إن أقل ما يكون منه شعراً أربعة أبيات، بعد أن تتفق قوافيها، **ولم يتفق ذلك في القرآن بحال**. فأما دون أربعة أبيات منه أو ما يجري مجراه في قلة الكلمات، فليس بشعر.

٣ ـ وما اتفق في ذلك من القرآن مختلف الروى، ويقولون: إنه متى اختلف الروى خرج عن أن يكون شعراً.

(١) ديوانه ص٢١.

وهذه الطرق التي سلكوها في الجواب، معتمدة أو أكثرها. ولو كان ذلك شعراً لكانت النفوس تتشوف إلى معارضته، لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد، وأهله يتقاربون فيه، أو يضربون فيه بسهم.

❋ ❋ ❋

[ج ـ ليس القرآن من المزاوج متساوي الضروب]

فإن قيل: في القرآن كلام موزون كوزن الشعر، وإن كان غير مقفى، بل هو مزاوج متساوي الضروب، وذلك أحد أقسام كلام العرب.

قيل: من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر، والسواكن والحركات. فإن خرج عن ذلك لم يكن موزوناً، كقوله:

رب أخ كنت به مغتبطاً ... أشد كفي بعراً صحبته
تمسكاً مني بالود ولا ... أحسبه يزهد في ذي أمل
تمسكاً مني بالود ولا ... أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنه أبداً ... فخاب فيه أملي

وقد علمنا أن **القرآن ليس من هذا القبيل**، بل هذا قبيل غير ممدوح، ولا مقصود من جملة الفصيح، وربما كان عندهم مستنكراً، بل أكثره على ذلك. وكذلك ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولاً وهو الذي شرطنا فيه التعادل والتساوي في الاجزاء، غير الاختلاف الواقع في التقفية. ويبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بينا، وتتم فائدته بالخروج منه. وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه.

❋ ❋ ❋

[د ـ الفرق بين البيان والسجع في الإعجاز]

وكل ما يمكن تعلمه، ويتهيأ تلقنه، ويمكن تحصيله، ويستدرك أخذه ـ فلا يجب أن يُطلب وقوع الإعجاز به.

ولذلك قلنا: إن **السجع** ما ليس يلتمس فيه الإعجاز، لأن ذلك أمر محدود، وسبيل مورود، ومتى تدرب الانسان به واعتاده لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه. وكذلك: **التجنيس، والتطبيق** متى أخذ أخذهما وطلب وجههما، استوفى ما شاء، ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه، كما أولع بذلك أبو تمام والبحتري، وإن كان البحتري أشغف بالمطابق، وأقل طلباً للمجانس.

فإن قال قائل: هلا قلت: إن هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية، لا يوصل إليها بالتعلم، ولا تملك بالتعمُّل، كما ذكرتم في البيان وغير ذلك؟ قلنا: لو عمد إلى كتاب: الأجناس، ونظر في كتاب: العين؛ لم يتعذر عليه التجنيس الكثير.

فأمَّا: الإطباق؛ فهو أقرب منه، وليس كذلك البيان والوجوه التي رأينا الإعجاز فيها، لأنها لا تستوفى بالتعلُّم.

والذي يقدرونه أنه سجع فهو وهم، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض، والأسجاع عيب، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع. وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى.

وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ. ومتى ارتبط المعنى بالسجع، كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع، كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى. ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقولوا: هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا:

شعر معجز. وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات، وليس كذلك الشعر.

وقد روي أن النبي ﷺ قال للذين جاؤوه وكلموه في شأن الجنين: كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يُطَلّ؟ فقال: (سجاعة كسجاعة الجاهلية)!!؟ وفي بعضها: (أسجعاً كسجع الكهان)[1] فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون في دلالته.

[موافقة القرآن لغة العرب هل يدل على أنها توقيفية]:

وقد يحتمل ـ على قول من قال: إن اللغة اصطلاح ـ **أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم**. وقد يمكن أن يقال مثله على المذهب الآخر، **وأنهم وقفوا على ما يتصرف إليه القول من وجوه التفاصح، وتواقفوا بينهم على ذلك**. ويمكن أن يقال: إن التواضع وقع على أصل الباب، وكذلك التوقيف، ولم يقع على فنون تصرف الخطاب، وإن الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى، وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد، وبنوا عليه وطلبوه، ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاطراب بوزنها، وتهش النفوس

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب الكهانة (٥٤٢٦)، وفي الديات باب جنين المرأة (٦٥٠٨ ـ ٦٥١٢)، وفي الفرائض باب ميراث المرأة والزوج مع الولد وغيره (٦٣٥٩). ومسلم في القسامة، باب دية الجنين (١٦٨١) (إنما هذا من إِخوان الكُهَّان من أَجل سَجْعهِ الذي سَجع). وأخرجه مسلم (١٦٨٢) بلفظ: (سجع الأعراب)، وأخرجه أبو داود في كتاب الديات باب دية الجنين (٤٥٦٨) و(٤٥٦٩) و(٤٥٧٠)، والنسائي ٤٩/٨ ـ ٥١ في كتاب القسامة باب دية جنين المرأة، وصفة شبه العمد بلفظ: (الجاهلية). وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى ١١٥/٨ (١٦١٩٣) بلفظ: (أسجع الجاهلية وكهانتها)، و١١٤/٨ (١٦١٨٦) بلفظ الصحيح. قال ابن حجر في فتح الباري ٢١٨/١٠: «**وقد تمسك به من كره السجع في الكلام، وليس على إطلاقه، بل المكروه منه ما يقع مع التكلف في معرض مدافعة الحق، وأما ما يقع عفواً بلا تكلف في الأمور المباحة فجائز، وعلى ذلك يحمل ما ورد عنه ﷺ**». * المختصر.

إليها، وجمع دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها، واختبار طرق من تنزيلها، وعرفهم محاسن الكلام، ودلَّهم على كل طريقة عجيبة، ثم **أعلمهم عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن**، وأن القدر الذي تتناهى إليه قدرهم هو ما لم يخرج عن لغتهم، ولم يشذ من جميع كلامهم، بل قد عرض في خطابهم، ووجدوا أن هذا **لما تعذر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد والحاجة الماسة إليه، مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر، وتكامل أحوالهم فيه ـ دل على أنه اختص به ليكون دلالة على النبوة ومعجزة على الرسالة**. ولولا ذلك لكان القوم إذا اهتدوا في الابتداء إلى وضع هذه الوجوه التي يتصرف إليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه، فلأن يقدروا بعد التنبيه على وجهه والتحدي إليه، أولى أن يبادروا إليه، لو كان لهم إليه سبيل. ولو كان الأمر على ما ذكره السائل؛ لوجب: أن لا يتحيروا في أمرهم، أو لا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم، ولكانوا يسرعون إلى الجواب ويبادرون إلى المعارضة. ومعلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد إلى الأمور البعيدة عن الوهم، والأسباب التي لا يحتاج إليها، فيكثر فيها من شعر ورجز، ونجد من يعينه على نقله عنه، على ما قدمنا ذكره من وصف الإبل ونتاجها، وكثير من أمرها لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا. ثم كانوا يتفاخرون باللسن والذلاقة والفصاحة والذرابة، ويتنافرون فيه وتجري بينهم فيه الأسباب المنقولة في الآثار، على ما لا يخفى على أهله.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

باب [أيهما أبلغ النظم أم النثر]

سمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحذق بهذه الصناعة، مع تقدمه في الكلام ـ يقول: **إن الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في الشعر**؛ لأن الشعر يضيق نطاق الكلام، ويمنع القول من انتهائه، ويصده عن تصرفه على سننه. وحضره من يتقدم في صنعة الكلام، فراجعه في ذلك، وذكر أنه **لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ**: إذا صادف شروط الفصاحة، وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة. ويشهد عندى للقول الأخير: أن معظم براعة كلام العرب في الشعر، ولا نجد في منثور قولهم ما نجد في منظومه، وإن كان قد أحدثت البراعة في الرسائل على حد لم يعهد في سالف أيام العرب، ولم ينقل في دواوينهم وأخبارهم. وهو ـ وإن ضيق نطاق القول ـ فهو يجمع حواشيه، ويضم أطرافه ونواحيه، فهو إذا تهذب في بابه، ووفى له جميع أسبابه ـ لم يقاربه من كلام الآدميين كلام، ولم يعارضه من خطابهم خطاب.

❋ ❋ ❋

وإذا كانت الفصاحة في قول الشعر أو لم تكن، وبيَّنا أن **نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم، ويتقدم في بلاغته على كل قول، بما يتضح به الأمر اتضاح الشمس، ويتبين به بيان الصبح ـ وقفت على جلية هذا الشأن**. فانظر فيما نعرضه عليك، وتصور بفهمك ما نصوره، ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن، وتأمل ما نرتبه، ينكشف لك الحق. إذا أردنا تحقيق ما

ضمناه لك، فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة متفق على كِبَر محلّها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحذق في البراعة، فنقفك: على **مواضع خللها**، وعلى **تفاوت نظمها**، وعلى **اختلاف فصولها**، وعلى **كثرة فضولها**، وعلى **شدة تعسفها**، وبعض **تكلفها**، وما تجمع من **كلام رفيع**، **يقرن بينه وبين كلام وضيع**، وبين **لفظ سوقي**، **يقرن بلفظ مُلوكى**، وغير ذلك من الوجوه التي يجيء تفصيلها، ونبيّن ترتيبها وتنزيلها[١].

❋ ❋ ❋

[أمثلة مفارقة القرآن للأسلوب المعتاد ـ من النظم]

[أ ـ نقد قصيدة إمرئ القيس أفضل الشعر العربي في العصر الجاهلي]:

وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس، ولا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً أُتْبِعَ فيها، من ذكر الديار والوقوف عليها، إلى ما يصل بذلك: من البديع الذي أبدعه، والتشبيه الذي أحدثه، والمليح الذي تجد في شعره، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من: صناعة وطبع، وسلاسة وعفو، ومتانة ورقة، وأسباب تحمد، وأمور تؤثر وتمدح. وقد ترى الأدباء أولاً يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً، ويضمون أشعارهم إلى شعره، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة، وأمور بديعة،

(١) وهذا بمقارنة تلك الألفاظ والمعاني ـ الممدوحة ـ بما يماثلها أو يقابلها في كلام الباري جلَّ وعلا، ومبدأ الموازنة بين كلام الربِّ والمربوب ـ وإن كان المصنف ذمَّه سابقاً ـ إلاَّ أنا نجده سلكه لبيان الفرق بين الكلامين كما نص عليه، ولعل هذا كاف في بيان عُذره في ذلك النقد في الجملة والتفصيل. *المختصر.

وربما فضلوهم عليه، أو سووا بينهم وبينه، أو قربوا موضع تقدمه عليهم، وبَرَّزوه بين أيديهم.

ولما اختاروا قصيدته في السبعيات، أضافوا إليها أمثالها، وقرنوا بها نظائرها، ثم تراهم يقولون، لفلان لامية مثلها، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته، وتساويه في طريقته، وربما غبرت في وجهه في أشياء كثيرة، وتقدمت عليه في أسباب عجيبة. وإذا جاؤوا إلى تعداد محاسن شعره، كان أمراً محصوراً، وشيئاً معروفاً.

أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره، وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه، وتنظر إلى المُحْدَثين كيف توغلوا إلى حيازة المحاسن، منهم من جمع رصانة الكلام إلى سلاسته، ومتانته إلى عذوبته، والإصابة في معناه إلى تحسين بهجته، حتى إن منهم من قصر عنه في بعض، تقدم عليه في بعض، وإن وقف دونه في حال، سبقه في أحوال، وإن تشبه به في أمر، ساواه في أمور **لأن الجنس الذي يرمون إليه، والغرض الذي يتواردون عليه؛ هو مما للآدمي فيه مجال، وللبشرى فيه مثال، فكل يضرب فيه بسهم، ويفوز فيه بقدح**، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتاً، وتتباين تبايناً، وقد تتقارب تقارباً، على حسب مشاركتهم في الصنائع، ومساهمتهم في الحرف.

ونظم القرآن جنس متميز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظير متخلص، فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه، فتأمل ما نقوله في فصل شعر إمرئ القيس في أجود أشعاره، وما نبين لك من عواره، على التفصيل[١].

وإنما قُدِّم في شعره لأبيات قد برع فيها، وبان حذقه بها. وإنما أنكرنا أن يكون شعره متناسباً مع الجودة، ومتشابهاً في صحة المعنى واللفظ، وقلنا: إنه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر، وعربية كالمهمل مستكرهة،

(١) ولعل هذا التفصيل ممَّا يخرج عن غرض مختصر الكتاب فحذفناه وتركنا نتيجته للفائدة المرادة للمصنف. *المختصر.

وبين كلام سليم متوسط، وبين عامِّي سوقي في اللفظ والمعنى، وبين حكمة حسنة، وبين سخف مستشنع. ولهذا قال الله عز اسمه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

❋ ❋ ❋

وأكلك الآن إلى جملة من القول، فإن كنت من أهل الصنعة، فطنت وأكتفيت وعرفت ما رمينا إليه واستغنيت. وإن كنت عن الطبقة خارجاً، وعن الإتقان بهذا الشأن خالياً ـ فلا يكفيك البيان، وإن استقرينا جميع شعره، وتتبعنا عامة ألفاظه، ودللنا على ما في كل حرف منه.

اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة، وأبيات متوسطة، وأبيات ضعيفة مرذولة، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة، وأبيات معدودة بديعة. وقد دللنا على المبتذل منها، ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر، الذي يروع السمع، ويهول القلب، ويكد اللسان، ويعبس معناه في وجه كل خاطر، ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر، ولا يقع بمثله التمدح والتفاصح. وهو مجانب لما وضع له أصل الافهام، ومخالف لما بُنِيَ عليه التفاهم بالكلام. فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود، ويلحق باللغز والإشارات المستبهمة.

❋ ❋ ❋

وقد بيَّنا لك أن هذه القصيدة ونظائرها **تتفاوت في أبياتها** تفاوتاً بيِّناً في الجودة والرداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكن والاستصعاب والتسهل والاسترسال، والتوحش والاستكراه، **وله شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها.**

وإنما أردنا أن نبيِّن الجملة التي بيناها؛ لتعرف أن طريقة الشعر شريعة موروثة، ومنزلة مشهودة، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم. وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرَّ عليه فيه، وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم، وتجد

معنى قد توافدا عليه، وتوافيا إليه، فهما فيه شريكا عنان، وكأنهما فيه رضيعا لبان، والله يؤتي فضله من يشاء.

ولا سواء كلامٌ ينحت من الصخر تارة، ويذوب تارة، ويتلون تلون الحرباء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه، وتتفاذف به أسبابه. وبين قولٍ يجري في سبكه على نظام، وفي رصفه على منهاج، وفي وضعه على حَدٍّ، وفي صفائه على باب، وفي بهجته ورونقه على طريق، مختلفه مؤتلف، ومؤتلفه متحد، ومتباعده متقارب، وشارده مطيع، ومطيعه شارد. وهو على متصرفاته واحد، لا يستصعب في حال، ولا يتعقد في شأن.

❋ ❋ ❋

إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضلُّ من حمار باهلة[١]، وأحمق من هبنقة[٢].

❋ ❋ ❋

[ب ـ نقد قصيدة البحتري أفضل الشعر العربي في العصر العباسي]:

فإن قال قائل: أجدك تحاملت على امرئ القيس، ورأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة، وبين اللطف والشكاسة، وبين التوحش والاستئناس، والتفاوت والتباعد، ورأيت الكلام الأعدل أفضل، والنظام المستوثق أكمل، وأنت تجد البحتري يسبق في هذا الميدان، ويفوت الغاية

(١) وفي بعض النسخ: «من حمار أهله». وكذا ورد في الحيوان ٢٥٧/٢ ولست أعرف وجه الصواب فيهما.

(٢) هو ذو الودعات: يزيد بن ثروان، أحد بني قيس بن ثعلبة. راجع مجمع الامثال ٢٢٧/١.

في هذا الشأن، وأنت ترى الكتَّاب يفضلون كلامه على كل كلام، ويقدمون رأيه في البلاغة على كل رأي، وكذلك تجد لأبي نواس من بهجة اللفظ، ودقيق المعنى ما يتحير فيه أهل الفضل، ويقدمه الشطار والظراف على كل شاعر، ويرون لنظمه روعة لا يرون لنظم غيره، وزبرجاً لا يتفق لسواه، فكيف يعرف فضل ما سواه عليه؟ فالجواب: أن الكلام في أن **الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن** قد تقدم.

وإذ كنا قد بينا أن شعر امرئ القيس ـ وهو كبيرهم الذي يقرون بتقدمه، وشيخهم الذي يعترفون بفضله، وقائدهم الذي يأتمون به، وإمامهم الذي يرجعون إليه ـ كيف سبيله، وكيف طريق **سقوط منزلته عن منزلة نظم القرآن**، وأنه لا يلحظ بشعره غبار ذلك، وهو إذا لحظ ذلك كان كما قال[(١)]:

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح في أعجاز نجم مغرب[(٢)]

وكما قال أيضاً:

راحت مشرقة ورحت مغرباً فمتى التقاء مشرق ومغرب

وإذا كنا قد أبنَّا في القاعدة ما علمت، وفصلنا لك في شعره ما عرفت ـ لم نحتج إلى أن نتكلم على شعر كل شاعر، وكلام بليغ، والقليل يدل على الكثير. **وقد بيَّنَا ـ في الجملة ـ مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب، ومزيته عليها في النظم والترتيب، وتقدمه عليها في كل حكمة وبراعة**، ثم تكلمنا على التفصيل ـ على ما شاهدت ـ فلا يبقى علينا بعد ذلك سؤال.

ثم نقول: أنت تعلم أن من يقول بتقدم **البحتري** في الصنعة، به من الشغل في تفضيله على **ابن الرومي** أو تسوية ما بينهما ما لا يطمع معه في

(١) نسبه في الكامل ١/١٧٢، وفي اللسان ٢/١٢٩ لقيس بن الملوح.
(٢) في اللسان: «في أعقاب نجم». والمغرب: الذي يأخذ في ناحية المغرب.

تقديمه على **امرئ القيس ومن في طبقته**. كذلك **أبو نواس**[١]، إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير، والتفاوت القليل. **فأما أن يظن ظان، أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن** ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج].

وإنما هي خواطر يغير بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض، والغرض الذي يرمي إليه، ويصح التوافي عليه، في الجملة، فهو قبيل متداول، وجنس متنازع، وشريعة موروثة، وطريقة مسلوكة.

وإنما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة، يقع فيها التنافس والتعارض، والأطماع تتعلق بها، والهمم تسمو إليها، وهي إلف طباعنا، وطوع مداركنا، ومجانس لكلامنا. وإعجاب قوم بنحو هذا وما يجرى مجراه، وإيثار أقوام لشعر البحتري على أبي تمام، وعبدالصمد، وابن الرومي، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه وذهاب قوم عن المعرفة ـ ليس بأمر يضر بنا ولا سبب يعترض على أفهامنا.

❋ ❋ ❋

وإنما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته، ومن أهل عصره، ومن هو في مضماره أو في منزلته. ومعرفة أجناس الكلام، والوقوف على أسراره، والوقوف على مقداره، شيء ـ وإن كان عزيزاً، وأمر ـ وإن كان بعيداً ـ فهو سهل على أهله، مستجيب لأصحابه، مطيع لأربابه، ينقدون الحروف، ويعرفون الصروف. وإنما تبقى الشبهة في ترتيب الحال بين

(١) **أبو نواس**: الحسن بن هانئ بن عبدالأول بن صباح ت ١٩٨هـ، **ابن الرومي**: علي بن العباس ت ٢٨٣هـ، **البحتري**: الوليد بن عبيد الطائي ت ٢٨٤هـ. انظر البداية والنهاية ٢٢٧/١٠ و٧٤/١١ ـ ٧٦.

البحتري، وأبي تمام، وابن الرومي، وغيره. ونحن وإن كنا نفضل البحتري بديباجة شعره، على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه ـ نقدمه بحسن عبارته، وسلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، وقلة تعقد قوله.

والشعر قبيل ملتمس مستدرك، وأمر ممكن مطيع. **ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم، أو يسمو إليه الفكر، أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب**: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]. وكنت قد ذكرت لك قبل هذا: أنك إن كنت بصنعة علم اللسان متدرباً، وفيه متوجهاً متقدماً، أمكنك الوقوف على ما ذكرنا، والنفوذ فيما وصفنا، وإلا فاجلس في مجلس المقلدين، وارض بمواقف المتحيرين. ونصحت لك حيث قلت: انظر، هل تعرف عروق الذهب، ومحاسن الجوهر، وبدائع الياقوت، ودقائق السحر، من غير معرفة بأسباب هذه الأمور ومقدماتها؟ وهل يقطع سمت البلاد من غير اهتداء فيها؟ **ولكل شيء طريق يتوصل إليه به، وباب يؤخذ نحوه فيه، ووجه يؤتى منه.**

❋ ❋ ❋

وإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحتري، لأن الكتَّاب يفضِّلونه على أهل دهره، ويقدمونه على من في عصره، ومنهم من يَدَّعِي له الإعجاز غلواً، ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علواً، والملحدة تستظهر بشعره، وتتكثر بقوله، وترى كلامه من شبهاتهم، وعباراته مضافة إلى ما عندهم من ترهاتهم.

فبينا قدر درجته وموضع رتبته، وحد كلامه. **وهيهات أن يكون** المطموع فيه كالمأيوس منه، وأن يكون الليل كالنهار، والباطل كالحق، **وكلام رب العالمين ككلام البشر.**

❋ ❋ ❋

[ج ـ ليس في بلاغات العرب ما هو بقدر المعجز من القرآن الكريم]:

وليس لقائل أن يقول: قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب، ويبلغ أمده في الفصاحة والنظم العجيب، ولا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيتم بما قضيتم به في القرآن دون غيره من الكلام؟ وإنما لم يصح هذا السؤال، وما نذكر فيه من أشعار في نهاية الحسن، وخطب ورسائل في غاية الفضل ـ لأنا قد بيَّنا **أن هذه الأجناس**: قد وقع التنازع فيها، والمساماة عليها، والتنافس في طرقها، والتنافر في بابها. وكان البون بين البعض والبعض في الطبقة الواحدة قريباً، والتفاوت خفيفاً، وذلك القدر من السبق إن ذهب عنه الواحد، لم ييأس منه الباقون، ولم ينقطع الطمع في مثله. **وليس كذلك سمت القرآن**، لأنه قد عُرِف **أن الوهم ينقطع دون مجاراته، والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته، وأن الكل في العجز عنه على حد واحد.**

وكذلك قد يزعم زاعمون: أن **كلام الجاحظ** من السمت الذي لا يؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً، ومنهاجه معيباً، ونطاق قوله ضيقاً، حتى يستعين بكلام غيره، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه، من بيت سائر، ومثل نادر، وحكمة ممهدة منقولة، وقصة عجيبة مأثورة. وأما كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة، وألفاظ يسيرة، فإذا أحوج إلى تطويل الكلام خالياً عن شيء يستعين به ـ فيخلط بقوله من قول غيره ـ كان كلاماً ككلام غيره. فإن أردت أن تحقق هذا، فانظر في كتبه؛ في **نظم القرآن**، وفي **الرد على النصارى**، وفي **خبر الواحد**، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، هل تجد في ذلك كله ورقة واحدة تشتمل على نظم بديع، أو كلام مليح؟ على أن متأخري الكتَّاب قد نازعوه في طريقته، وجاذبوه على منهجه، فمنهم من ساواه حين ساماه، ومنهم من أبرَّ عليه إذ باراه.

هذا **أبو الفضل بن العميد** قد سلك مسلكه، وأخذ طريقه، فلم يقصر عنه، ولعله قد بان تقدمه عليه، لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه، ويكملها على شروط صنعته، ولا يقتصر على أن يأتي

بالأسطر من نحو كلامه، كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه، متى ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام الناس أوراقاً، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً.

وهذا يدلُّك على أن الشيء إذا استحسن اتبع، وإذا استملح قصد له وتعمد. وهذا الشيء يرجع إلى الأخذ بالفضل، والتنافس في التقدُّم. **فلو كان في مقدور البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده ـ لكثرت المعارضات، ودامت المنافسات. فكيف وهناك دواع لا انتهاء لها، وجوالب لا حدَّ لكثرتها، لأنهم لو كانوا عارضوه**: لتوصلوا إلى تكذيبه، ثم إلى قطع المحامين دونه عنه، أو تنفيرهم عليه، وإدخال الشبهات على قلوبهم، وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس، ونصب الأرواح، والاخطار بالأموال والذراري في وجه عداوته، ويستغنون بكلام ـ هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم ـ عن محاربته، وطول مناقشته ومجاذبته.

وهذا الذي عرضناه على عقلك، وجلوناه على قلبك، يكفي إن هديت لرشدك، ويشفي إن دللت على قصدك.

ونسأل الله حسن التوفيق، والعصمة والتسديد، إنه لا معرفة إلا بهدايته ولا عصمة إلا بكفايته، وهو على ما يشاء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فصل
في حقيقة المعجز

معنى قولنا: «**إن القرآن معجز**»؛ أنه لا يقدر العباد عليه.

وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي ﷺ، لا يصح دخوله تحت قدرة العباد، وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه، وكذلك معجزات سائر الأنبياء على هذا.

فلما لم يقدر عليه ـ أي: القرآن ـ **أحدٌ شُبِّه بما يعجز عنه العاجز.**

وإنما لا يقدر العباد على الإتيان بمثله، وقد أجرى الله العادة بأن يتعذر فعل ذلك منهم، وأن لا يقدروا عليه، ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله، أو عرضوا عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم، ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا بذلك، علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم، وأساليب نظامهم، وزالت أطماعهم عنه.

وقد كنا بيَّنا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر ووجوه النظم المستحسنة في الأوزان المطربة للسمع، لا يحتاج في مثله إلى توقيف، وأنه يتبين أن مثل ذلك يجري في الخطاب، فلما جرى فيه فطنوا له واختاروه وطلبوه، وطلبوا أنواع الأوزان والقوافي، ثم وقفوا على حسن ذلك وقدروا عليه، بتوفيق الله ﷻ، وهو الذي جمع خواطرهم عليه، وهداهم له وهيأ دواعيهم إليه، ولكنه أقدرهم على حد محدود، وغاية في العرف مضروبة، لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزاً، ودل على عظم شأنه

بأنهم قدروا على ما بينا من التأليف، وعلى ما وصفنا من النظم، من غير توقيف ولا اقتفاء أثر، ولا تحد إليه ولا تقريع.

فلو كان هذا ـ القرآن ـ من ذلك القبيل، أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه ـ لم تزل أطماعهم عنه، ولم يدهشوا عند وروده عليهم، فكيف وقد أمهلهم وفسح لهم في الوقت، وكان يدعوا إليه سنين كثيرة، وقال عز من قائل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٤٥]. وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدي، بان أنه خارج عن عاداتهم، وأنهم لا يقدرون عليه. وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عادتها من الكلام البليغ، لأن ذلك طبعهم ولغتهم، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن، وهذا في البلغاء منهم، دون المتأخرين في الصنعة. والذي ذكرناه يدلك على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

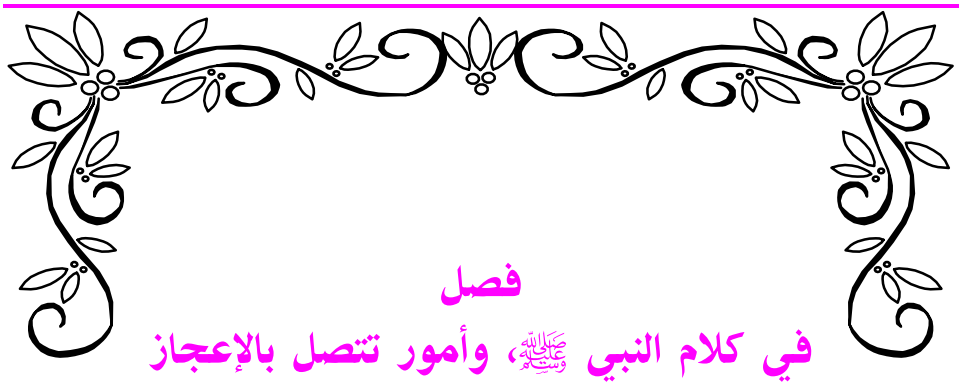

فصل
في كلام النبي ﷺ، وأمور تتصل بالإعجاز

إن قال قائل: إذا كان النبي ﷺ أفصح العرب ـ وقد قال هذا في حديث مشهور[١]، وهو صادق في قوله ـ فهلا قلتم إن القرآن من نظمه لقدرته في الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره؟ قيل: قد علمنا أنه **لم يتحداهم إلى مثل قوله** وفصاحته. **والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء، كقدر ما بين شعر الشاعرين**، وكلام الخطيبين في الفصاحة، **وذلك** مما لا يقع به الإعجاز.

وقد بينا قبل هذا: أنا إذا وازنَّا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور، وبين نظم القرآن ـ **تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله** ﷻ **وبين كلام**

(١) يشير لحديث: (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش) قال العجلوني في كشف الخفاء ٢٠١/١: نقلاً عن السيوطي في مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا «أورده أصحاب الغرائب ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده».
وورد بلفظ: (أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش) قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٩٥: «معناه صحيح ولكن لا أصل له كما قاله ابن كثير». وذكره القاري في الأسرار المرفوعة ص٢٤٨ ونقل قول السيوطي.
وروى الطبراني في الكبير ٣٥/٦ ـ ٣٦ حديث (٥٤٣٧) أبي سعيد الخدري رفعه: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب، أنا أعرب العرب، ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنى يأتيني اللحن) قال في التلخيص الحبير ١٤/٤: «وفي إسناده مبشر بن عبيد، وهو متروك». اهـ، وبمثله قال الهيثمي في الزوائد ٢٢١/٨. *المختصر.

الناس، فلا معنى لقول من ادعى أن كلام النبي ﷺ معجز وإن كان دون القرآن في الإعجاز.

فإن قيل: لولا أن كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن[١]؟

وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن أم لا؟[٢]

قيل: هذا من تخليط الملحدين، لأن عندنا أن الصحابة ﷺ لم يخف عليهم ما هو من القرآن. ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره: وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط. وقد يجوز أن يكون شذَّ عن مصحفه، لا لأنه نفاه من القرآن، بل عول على حفظ الكل إياه.

على أن الذي يروونه خبر واحد، لا يسكن إليه في مثل هذا، ولا يعمل عليه. ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه، كما يكتب الواحد منا بعض الأدعية على ظهر مصحفه. وهذا نحو ما يذكره الجهال: من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود، وبين مصحف عثمان رحمة الله عليهما. ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة، كما يغلط الحافظ في حروف وينسى، وما لا نجيزه على الحفاظ مما لم نجزه عليه.

(١) أخرج عبدالله بن أحمد بن حنبل في المسند ١٣٠/٥ (٢١٢٢٦) والطبراني في المعجم الكبير ٢٣٥/٩ (٩١٥٠) عن عبدالرحمٰن بن يزيد النخعي أنه قال: «كان عبدالله بن مسعود ﷺ يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله»!!! قال السيوطي في الإتقان ١٣٧/٢: «وقال النووي في شرح المهذب: أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد منها شيئاً كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح. وقال ابن حزم في كتاب القدح المعلى تتميم المحلى: هذا كذب على ابن مسعود وموضوع». وصحح ابن حجر الرواية في فتح الباري ٧٤٢/٨ ـ ٧٤٣، وانظر تأويل مشكل القرآن ص٢٠ ـ ٢١، ٣٣ ـ ٣٥. *المختصر.

(٢) اشتبه ذلك على أبيّ ﷺ فزاده في مصحفه على أنه قرآن، لأنه ـ كما قال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٣٣ ـ «رأى رسول الله ﷺ يدعو به في الصلاة دعاء دائماً، فظن أنه من القرآن، وأقام على ظنه، ومخالفة الصحابة جميعاً، كما أقام على التطبيق».

ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا، لكانت الصحابة تناظره على ذلك، وكان يظهر وينتشر، فقد تناظروا في أقل من هذا، وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه؟! وقد علمنا إجماعهم على ما جمعوه في المصحف، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولَّدة في الإجماع المقرر، والاتفاق المعروف؟! ويجوز أن يكون الناقل اشتبه عليه، لأنه خالف في النظم والترتيب، فلم يثبتهما في آخر القرآن، والاختلاف بينهم في موضع الاثبات غير الكلام في الأصل، ألا ترى أنهم قد اختلفوا في أول ما نزل من القرآن: فمنهم من قال: قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١][(١)]. ومنهم من قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر][(٢)]. ومنهم من قال: فاتحة الكتاب[(٣)].

واختلفوا أيضاً في آخر ما أنزل[(٤)]: فقال ابن عباس: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: ١]. وقالت عائشة: سورة المائدة. وقال البراء بن عازب: آخر ما أنزل سورة براءة. وقال سعيد بن جبير: آخر ما أنزل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وقال السدي: آخر ما أنزل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

ويجوز أن يكون في مثل هذا خلاف، وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع.

❋ ❋ ❋

ولو كان القرآن من كلامه، لكان البون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئهما رجل واحد، وكانوا يعارضونه، لأنا قد علمنا أن القدر

(١) هذا القول هو الصحيح، وهو أول قول أورده السيوطي في الإتقان ٣٩/١.
(٢) هذا القول في الإتقان ٤٠/١.
(٣) انظره في الإتقان ٤٠/١.
(٤) راجع أقوال العلماء في ذلك في الإتقان ٤٤/١ ـ ٤٨.

الذي بين كلامهم وبين كلام النبي ﷺ لا يخرج إلى حَدِّ الإعجاز، ولا يتفاوت التفاوت الكثير، ولا يخفى كلامه من جنس أوزان كلامهم، وليس كذلك نظم القرآن، لأنه خارج من جميع ذلك.

فإن قيل: لو كان على ما ادعيتم، لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره؟

قيل: معرفة الفصل بين وزن الشعر أو غيره من أوزان الكلام لا يقع ضرورة، ويحتاج في معرفة ذوق الشعر ووزنه، والفرق بينه وبين غيره من الأوزان يحتاج إلى نظر وتأمل، وفكر وروية واكتساب. وإن كان النظم المختلف الشديد التباين إذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة. إلا أن كل وزن وقبيل إذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه إلى الفكرة والتأمل.

فإن قيل: لو كان معجزاً لم يختلف أهل الملة في وجه إعجازه؟

قيل: قد يثبت الشيء دليلاً وإن اختلفوا في وجه دلالة البرهان، كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون، والاجتماع والافتراق.

وقد بينا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه. والمفحم قد يعلم كيفية الأوزان واختلافها، وكيفية التركيب، وهو لا يقدر على نظم الشعر. وقد يعلم الشاعران وجوه الفصاحة، وإذا قالا الشعر جاء شعر أحدهما في الطبقة العالية، وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة. وقد يطرد في شعر المبتدئ والمتأخر في الحذق ـ القطعة الشريفة والبيت النادر، مما لا يتفق للشاعر المتقدم. والعلم بهذا الشأن في التفصيل لا يغني، ويحتاج معه إلى مادة من الطبع، وتوفيق من الأصل.

وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة، ثم يتفق لأحدهما من اللطف في الصنعة، ما لا يتفق للآخر. وكذلك أهل نظم الكلام ـ **يتفاضلون، مع العلم بكيفية النظم**، وكذلك أهل الرمي يتفاضلون في الإصابة، مع العلم بكيفية الإصابة. وإذا وجدت للشاعر بيتاً أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس، لم يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه، لأنه لو كان

كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد، وبحسب ذلك البيت في الشرف والحسن والبراعة، ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها، وإن كان كذلك، علم أن هذا لا يرجع إلى قدره من العلم، ولسنا نقول: إنه يستغنى عن العلم في النظم، بل يكفي علم به في الجملة، ثم يقف الأمر على القدرة.

وهذا يبين لك بأنه قد يعلم الخط فيكتب سطراً، فلو أراد أن يأتي بمثله بحيث لا يغادر منه شيئاً لتعذر، والعلم حاصل. وكذلك قد يحسن كيفية الخط، ويميز الجيد منه من الرديء، ولا يمكنه أن يأتي بأرفع درجات الجيد.

وقد يعلم قوم كيفية إدارة الأقلام، وكيفية تصوير الخط، ثم يتفاوتون في التفصيل، ويختلفون في التصوير.

وقد ذهب بعض المخالفين إلى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبريل، فصار القرآن معجزاً لنزوله على هذا الوجه، ومن قبله لم يكن معجزاً!! هذا قول أبي هاشم[١]، وهو ظاهر الخطأ، لأنه يوجب أن يكونوا قادرين على مثل القرآن، وأنه لم يكن يتعذر عليهم فعل مثله، وإنما تعذر بإنزاله، ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله. وإن كانوا في الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله، فهو قولنا.

وقد بَيَّنَّا: أن على أصولنا قد تقرر **لكلامنا ونظمنا حَدٌّ في العادة**، ولا سبيل إلى تجاوزه، ولا يقدر عليه، فإن **القرآن خرق العادة فزاد عليها**.

وقد تحققنا أن القرآن أتى به النبي ﷺ، وظهر من جهته، وجعله علماً على نبوته، وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا.

(١) هو أبو هاشم عبدالسلام بن أبي علي محمد الجبائي (٢٤٧ ـ ٣٢١)، وكان يعتبر أن الواجب على المكلف هو الشك، لأن النظر العقلي من غير سابقة شك تحصيل حاصل. وحاصل قوله هنا القول بالصرفة وقد سبق بيان الرد عليها. *المختصر.

فصل
[خاتمة المصنف لكتابه]

قد ذكرنا في الإبانة عن معجز القرآن وجيزاً من القول، رجونا أن يكفي، وأملنا أن يقنع. والكلام في أوصافه ـ إن استقصى ـ بعيد الأطراف، واسع الأكناف، لعلو شأنه، وشريف مكانه. والذي سطرناه في الكتاب، وإن كان موجزاً، وما أملينا فيه، وإن كان خفيفاً ـ فإنه ينبه على الطريقة. ويدل على الوجه، ويهدي إلى الحجة. ومتى عظم محل الشيء فقد يكون الإسهاب فيه عِيًّا، والإكثار في وصفه تقصيراً.

وقد قال الحكيم وقد سئل عن البليغ: متى يكون عَيِيًّا؟ فقال: متى وصف هوى أو حبيباً. وضَلَّ أعرابي في سفر له ليلاً، وطلع القمر فاهتدى به، فقال: ما أقول لك! أقول: رفعك الله. وقد رفعك! أم أقول: نورك الله. وقد نورك! أم أقول: جملك الله. وقد جملك!

ولولا أن العقول تختلف، والأفهام تتباين، والمعارف تتفاضل ـ لم نحتج إلى ما تكلفنا، ولكن الناس يتفاوتون في المعرفة، ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا في معرفة هذا الفن، أو يجتمعوا في الهداية إلى هذا العلم، لاتصاله بأسباب خفية، وتعلقه بعلوم؛ غامضة الغور، عميقة القعر، كثيرة المذاهب، قليلة الطلاب، ضعيفة الأصحاب، وبحسب تأتي مواقعه تقع الأفهام دونه، وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه.

أنشدني أبو القاسم الزعفراني، قال: أنشدني المتنبي لنفسه ـ القطعة التي يقول فيها[١]:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

وأنشدني الحسن بن عبدالله، قال: أنشدنا بعض مشايخنا، للبحتري:

أهز بالشعر أقواماً ذوي سنة لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا[٢]
على نحت القوافي من مقاطعها وما عليّ لهم أن تفهم البقر

فإذا كان نقد الكلام كله صعباً، وتمييزه شديداً، والوقوع على اختلاف فنونه متعذراً، وهذا في كلام الآدميين ـ فما ظنك بكلام رب العالمين؟!

❋ ❋ ❋

قد أبنَّا لك أن من قَدَّر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، ولا يفطن منها إلا لليسير. ومن زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرناه من قبل عنهم في الشعر، فهو متطرف. بلى، إن كانوا يقولون: إن هذه من وجوه البلاغة وغرر البديع وأصول اللطيف، وإن ما يجري مجرى ذلك ويشاكله ملحق بالأصل، ومردود على القاعدة ـ فهذا قريب.

وقد بينَّا في نظم القرآن: أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف. ثم الفواتح والخواتم، والمبادئ والمثاني، والطوالع والمقاطع، والوسائط والفواصل.

ثم الكلام في نظم السور والآيات، ثم في تفاصيل التفاصيل، ثم في الكثير والقليل.

(١) في ديوانه ٣٧٩/٢.

(٢) ديوانه ٦٧٣ «ذوي وسن في الجهل لو ضربوا».

ثم الكلام الموشح والمرصع، والمفصل والمصرع، والمجنس والموشع، والمحلى والمكلل، والمطوق والمتوج، والموزون والخارج عن الوزن، والمعتدل في النظم والمتشابه فيه.

ثم الخروج من فصل إلى فصل، ووصل إلى وصل، ومعنى إلى معنى، ومعنى في معنى، والجمع بين المؤتلف والمختلف، والمتفق والمتسق. وكثرة التصرف، وسلامة القول في ذلك كله من التعسف، وخروجه عن التعمق والتشدق، وبعده عن التعمل والتكلف، والألفاظ المفردة، والإبداع في الحروف والأدوات، كالإبداع في المعاني والكلمات. والبسط والقبض، والبناء والنقض، والاختصار والشرح، والتشبيه والوصف. وتمييز الابتداع من الاتباع، كتميز المطبوع عن المصنوع، والقول الواقع من غير تكلف ولا تعمل.

❋ ❋ ❋

وأنت تتبين في كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على سمت شريف، ومرقب منيف، يبهر إذا أخذ في النوع الربي[(١)]، والأمر الشرعي، والكلام الإلٰهي، الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت، وشرف الجبروت، وما لا يبلغ الوهم مواقعه: من حكمة وأحكام، واحتجاج وتقرير، واستشهاد وتقريع، وإعذار وإنذار، وتبشير وتحذير، وتنبيه وتلويح، وإشباع وتصريح، وإشارة ودلالة، وتعليم أخلاق زكية، وأسباب رضية، وسياسات جامعة، ومواعظ نافعة، وأوامر صادعة، وقصص مفيدة، وثناء على الله ﷻ بما هو أهله، وأوصاف كما يستحقه، وتحميد كما يستوجبه، وأخبار عن كائنات في التأتي صدقت، وأحاديث عن المؤتنف تحققت، ونواه زاجرة عن القبائح والفواحش، وإباحة الطيبات، وتحريم المضار والخبائث، وحث على الجميل والاحسان.

تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب، مجلوة عليك في منظر بهيج، ونظم

(١) في اللسان ٣٨٨/١ «والربي: منسوب إلى الرب».

أنيق، ومعرض رشيق، غير معتاص على الأسماع ولا مُتَلَوٍّ على الأفهام، ولا مستكره في اللفظ، ولا مستوحش في المنظر.

غريب في الجنس غير غريب في القبيل، ممتلئ ماء ونضارة، ولطفاً وغضارة، يسري في القلب كما يسري السرور، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم، ويضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على المتناول المنتاب، كالروح في البدن، والنور المستطير في الافق، والغيث الشامل، والضياء الباهر ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

من توهم أن الشعر يلحظ شأوه بان ضلاله، ووضح جهله، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، وتداولته القلوب، وانثالت عليه الهواجس، وضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه.

وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلاً، وأقرب مأخذاً، وأسهل مطلباً، ولذلك قالوا: فلان مفحم، فأخرجوه مخرج العيب، كما قالوا: فلان عيي، فأوردوه مورد النقص.

والقرآن كتاب دلَّ على صدق متحمِّله، ورسالة دلَّت على صحة قول المرسل بها، وبرهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين، وبيِّنة على طريقة من سلف من الأولين.

حيَّرهم فيه؛ إذ كان من جنس القول الذي زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية، وبلغوا فيه الغاية، فعرفوا عجزهم، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج، والوصول إلى أعلى مراتب الطب، فجاءهم بما بهرهم: من إحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم، وكما سخر لسليمان الريح والطير والجن؛ حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة، وبدائع اللطف.

ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليها الأول والآخر وقوفاً واحداً، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة.

انظر وفقك الله لما هديناك إليه، وفكر في الذي دللناك عليه، فالحق منهج واضح، والدين ميزان راجح، والجهل لا يزيد إلا عمى، ولا يورث إلا ندماً.

قال الله ﷻ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]. وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٦].

وعلى حسب ما آتى من الفضل، وأعطى من الكمال والعقل ـ تقع الهداية والتبيين، فإن الأمور تتم بأسبابها، وتحصل بآلتها، ومن سلبه التوفيق، وحرمة الإرشاد والتسديد ـ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج]، ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء]. فاحمد الله على ما رزقك من الفهم إن فهمت، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، إن أنت علمت، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون].

وإن ارتبت فيما بيناه فازدد في تعلم الصنعة، وتقدم في المعرفة، فسيقع بك على الطريق الأرشد، وسيقف بك على الوجه الأحمد، فإنك إذا فعلت ذلك أحطت علماً، وتيقنت فهماً. ولا يوسوس إليك الشيطان بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية، وأدرب منك في الفصاحة، أقوام وأيُّ أقوام، ورجال وأيُّ رجال، فكَذَّبُوا وارتابوا، لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز، ولكن اختلفت أحوالهم، فكانوا بين جاهلٍ وجاحد، وبين كافرِ نعمةٍ وحاسد، وبين ذاهبٍ عن طريق الاستدلال بالمعجزات، وحائدٍ عن النظر في الدلالات، وناقصٍ في باب البحث، ومختل الآلة في وجه الفحص، ومستهينٍ بأمر الأديان، وغاوٍ تحت حبالة الشيطان، ومقذوفٍ

بخذلان الرحمٰن. وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة، ودرجات الحرمان مختلفة. وهلا جعلت بإزاء الكفرة، مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن إسلامه، وكعب بن زهير في صدق إيمانه، وحسَّان بن ثابت، وغيرهم: من الشعراء والخطباء الذين أسلموا؟ على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجمٌ زاهر، أو بحرٌ زاخر. وقد بيَّنا: أن لا اعتصام إلا بهداية الله، ولا توفيق إلا بنعمة الله. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأمل ما عرفناك في كتابنا، وفرغ له قلبك، واجمع عليه لبك، ثم اعتصم بالله يهدك، وتوكل عليه يعنك ويجرك، واسترشده يرشدك، وهو حسبي وحسبك، ونعم الوكيل[(١)].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) جاء في آخر (م)، (أ)، (ك) بعد ذلك ما يلي:
أ ـ في (م): «تم كتاب الاعجاز، والحمد لله على نعمه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً».
وبعد ذلك بخط مغاير: «هذا ما كتبه المؤلف لخزانة كتب عضد الدولة، وطالع فيه الحسن ابن المؤلف، سنة تسع وتسعين بعد الثلاثمائة...».
ب ـ في (أ): «والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. وكان الفراغ منه في غرة ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة. نسخته من أصل الفقيه الإمام أبي الحجاج يوسف بن عبدالعزيز اللخمي، الذي عليه خط شيخه عمدة أهل الحق، أبي عبدالله التميمي، وأخبرني أنه نسخها من نسخة صحيحة، عليها مكتوب: فرغ من نسخها في جمادي الآخرة سنة إحدى وأربع مائة.
وقال لي: توفي القاضي المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة أربع وأربعمائة. وعارضت نسختي هذه بالأصل، وقرأتها عليه وهو يمسك أصله، والحمد لله رب العالمين».
ج ـ وجاء في (ك): «تم كتاب الإعجاز في القرآن العظيم. وكان الفراغ من نسخه سلخ الشهر المعظم رجب سنة ثمنية عشر وستمائة. علقه الشريف حسن، ابن الشريف محمد، ابن الشريف علي، ابن الشريف حسين الحسيني، السمرقندي، الناسخ. وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً».

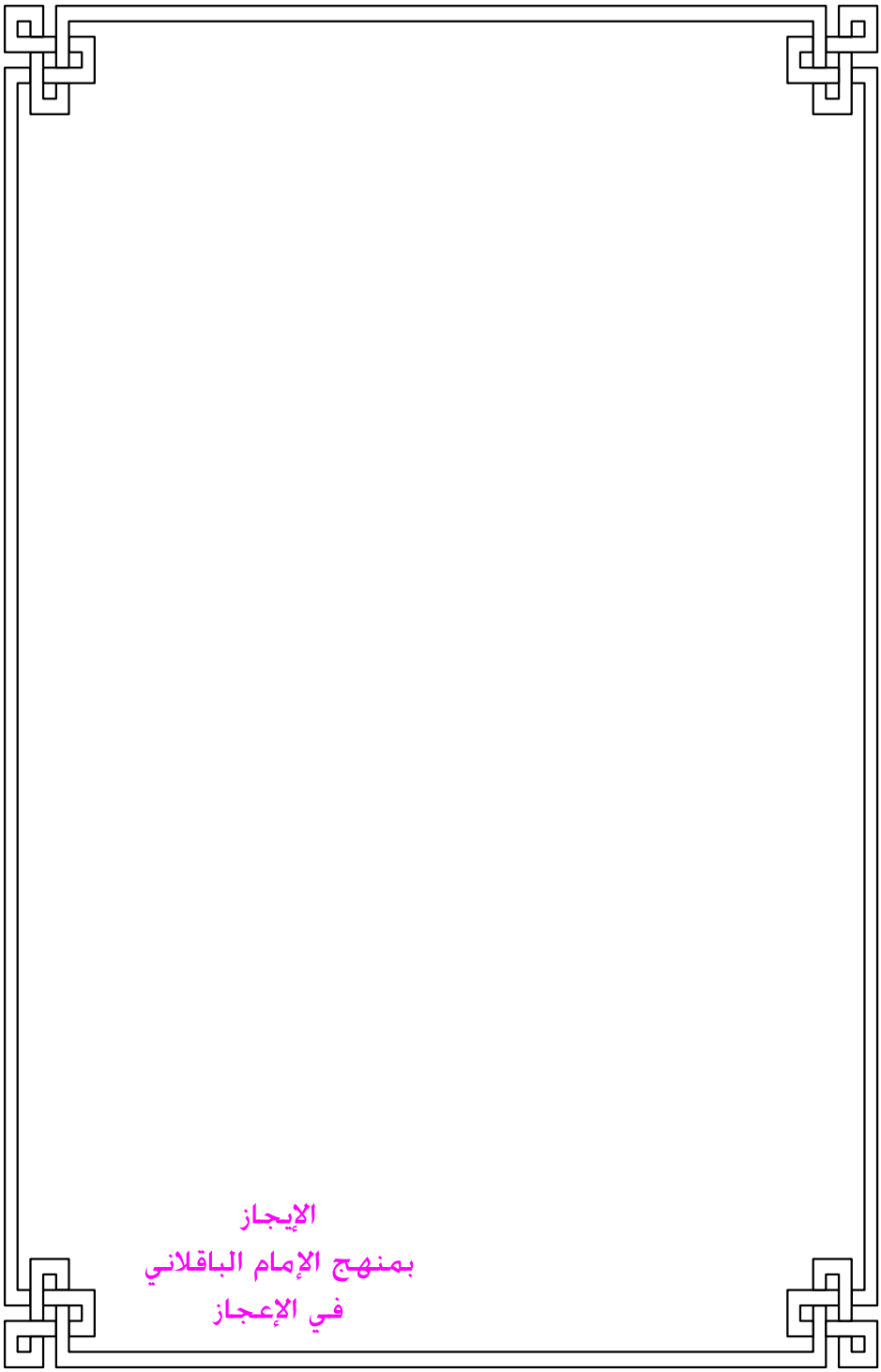

kolasa-borhan

kolasa-borhan

الإيجاز
بمنهج الإمام الباقلاني
في الإعجاز

كتبه
أ.د.محمد بن عبدالعزيز العواجي
الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن كلية القرآن الكريم
والدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

kolasa-borhan

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الملحوظات ترسل على عنوان المؤلف
المدينة المنورة ص.ب: ٧١١٩ الرمز: ٤١٤٦٢
aboayob@hotmail.com
aboayob@yahoo.com

kolasa-borhan

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، ﷺ تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد جرت سنة الله في ابتعاث رسله إلى خلقه لتبصيرهم بعظمته وجمعهم على عبادته، أن يؤيدهم بأمور عظيمة، تكون من قبيل ما استحكم في زمانهم، وعظم في نفوس عامتهم، لتكون آية ومعجزة وبرهان الرسول المرسل إليهم، مفحمة لأعجب الأمور في أنظارهم، ومبطلة لأقوى الأشياء في حسبانهم، لئلا يجد المبطلون والمعاندون شيئاً يتشبثون به.

ولما أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى الناس جميعاً، وجعله خاتم الأنبياء، أيده بمعجزات حسية كمعجزات من سبقه: كانشقاق القمر[(١)]، ونبع الماء[(٢)].

(١) صح عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر (٣٤٣٧ ـ ٣٤٣٩) وانظر (٣٦٥٥) و(٤٥٨٦ ـ ٤٥٨٧)، ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب انشقاق القمر (٢٨٠٢).

(٢) كما صح بذلك الخبر وسيأتي تخريجه ص٢٣٧.

وخصه بمعجزة خالدة وهي إنزال القرآن الكريم؛ الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وكان ذلك في زمن سما فيه شأن البلاغة والفصاحة والبيان، وجلت مكانتهما في صدور أهلهما، وعرفوا باللسان والفصاحة، وقوة العارضة في الإعراب عن خوالج النفوس، والإبانة عن مشاعر القلوب.

فكانت مسألة إعجاز القرآن من أبرز المسائل التي تناولها العلماء بالبحث في ثنايا كتبهم وتفسيرهم للقرآن، والرد على منكري النبوة.

وألف فيه بعضهم باستقلال، وتكاثر الكلام فيه حتى صار فناً مستقلاً عن غيره، له مسائله وخصائصه ومزاياه.

ولمَّا كان الشيخ أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بـ: الباقلاني المتوفى يوم السبت لسبع بقين من ذي الحجة سنة (٤٠٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، من العلماء الأفذاذ المشهورين ذوي الباع في العلم والعمل، وكان له إسهام في مجال إعجاز القرآن الكريم بالبيان ومناقشة المخالفين، لا سيما في كتابه (**إعجاز القرآن**) «الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة»[(١)].

ومن يطالع الكتاب يجده خير شاهد على صحة هذا الإجماع.

وقد طبع الكتاب مراراً[(٢)]، وأفضلها بلا مراء طبعة دار المعارف بالقاهرة، تحقيق: د.السيد أحمد صقر رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولكن نظراً لطول الكتاب، وكثرة استطرادات المؤلف ـ كما هي سمة

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١٥٢/٢.

(٢) أشهرها ـ وصدر منها طبعات متعددة ومصورات:
إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني/ طبعة مصطفى الحلبي.
إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني/ تحقيق د.السيد أحمد صقر.
إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني/ تحقيق عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية.

kolasa-borhan

أهل الشأن في عصره ـ، ولضعف علوم البلاغة في زماننا، وقلة الصبر على أمثاله من الموسوعات، وعدم تدبيجها بما يكملها من المؤلفات، ولدقة مسائل الاعتقاد وخفاء بعضها على بعض طلاب العلم ممَّن يطلب علم الإعجاز، ثم سؤال عدد من مشايخي في كلية القرآن الكريم خاصة وغيرهم عامّة تسهيل الكتاب على الطلاب، رأيت من الواجب عليّ أن أختصره على اعتبار أنَّه من الكتب العلمية الأصيلة، وسمّيته: «**خلاصة البرهان في اختصار وترتيب إعجاز القرآن للباقلاني**» ألحقت به هذه الدراسة لبيان المنهج العام لهذا الإمام في كتابه الأصل، مع الإشارة إلى مسائل منتشرة في غالب كتب الإعجاز والتفاسير وبيانها، وأسميتها: «**الإيجاز بمنهج الإمام الباقلاني في الإعجاز**».

أسباب اختيار الموضوع:

لعل من أهم الأسباب التي دعتني لكتابة هذا الإيجاز ما يلي:

١ ـ الرغبة الشديدة في بيان منهج الباقلاني في إعجاز القرآن الكريم لتعلقه بأشرف كتاب ألا وهو: كتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولعظم حاجة الناس لبيان معالم وأسس ذلك المنهج المتميز.

٢ ـ شدة حاجة الطلاب إلى عرض مسألة الاعتقاد وعلاقتها بموضوع الإعجاز وبيان الحق فيها، لشرف متعلقها وأهميته، ولكثرة من غلط فيها أو جانب الصواب من الطوائف أو الأفراد.

٣ ـ أن مسألة الإعجاز مرتبطة بالعقيدة من وجهين: كون القرآن كلام الله لا يشبه كلام المخلوقين، وكون المعجزة دليل ثبوت النبوة، وصدق الرسالة والرسول والقرآن.

٤ ـ إنّ إظهار مثل هذا العلم ونشره فيه بيان لعظمة كتاب الله ﷻ وإيجاد الصلة بينه وبين قلوب المسلمين الغافلة عنه ـ إلا ما شاء ربك ـ وإيضاحه لغير المسلمين ممن رام الحق.

٥ ـ تنمية ملكة الفهم والاختيار والبناء الجيد مما نحتاجه، ونرغب فيه لنا ولطلابنا.

خطة البحث:

وقد جعلت هذه الدراسة الموجزة في مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس خادمة، وجاءت كالتالي:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام الباقلاني.

المبحث الثاني: جولة موجزة مع الإمام الباقلاني في الإعجاز.

المبحث الثالث: أبرز عناصر تقييم العلماء لمنهج الباقلاني في إعجاز القرآن.

المبحث الرابع: إعجاز القرآن عند الباقلاني في كتبه الأخرى.

المبحث الخامس: العلاقة بين الإعجاز والمذهب الأشعري عند الباقلاني.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج المستخلصة من البحث والتوصيات.

قائمة المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

أسأل الله العلي القدير العون والتوفيق، والسداد والرشاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

حرر في ٦/٣/١٤٣٠هـ
المسجد النبوي

كتبه
أ.د.محمد بن عبدالعزيز بن محمد العواجي
عضو هيئة التدريس بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

kolasa-borhan

المبحث الأول
ترجمة موجزة للإمام الباقلاني
(٣٢٨ ـ ٤٠٢هـ) (٩٥٠ ـ ١٠١٣م)

اسمه:

محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، أبو بكر القاضي المعروف بـ: ابن الباقلاني[(١)].

شهرته:

البَاقِلاني: بالقاف والنون على غير قياس، والقياس الباقلائي بهمزة قبل الياء. ونسبة الباقلاني إلى بيع الباقلاء، وهي نسبة شاذة مثل صنعاني[(٢)].

(١) انظر ترجمته: تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ ـ ٣٨٣، ترتيب المدارك ٥٨٥/٤ ـ ٦٠٢، الأنساب ٥١/٢ ـ ٥٢، سير أعلام النبلاء ١٩٠/١٧، تبيين كذب المفتري ٢١٧ ـ ٢٢٦، المنتظم ٢٦٥/٧، اللباب ١١٢/١، وفيات الأعيان ٢٦٩/٤ ـ ٢٧٠، المختصر في أخبار البشر ١٤٤/٢، العبر ٨٦/٣، دول الإسلام ٢٤٢/١، الوافي بالوفيات ١٧٧/٣، مرآة الجنان ١٠٠٦/٣، البداية والنهاية ٣٥٠/١١ ـ ٣٥١، الديباج المذهب ٢٢٨/٢ ـ ٢٢٩، النجوم الزاهرة ٢٣٤/٤، شذرات الذهب ١٦٨/٣ ـ ١٧٠، إيضاح المكنون ٦٩١/٢، هدية العارفين ٥٩/٢، شجرة النور الزكية ٩٢/١ ـ ٩٣، الأعلام للزركلي ١٧٦/٦.

(٢) انظر: المختصر في أخبار البشر٢٤٦/١. والأنساب ٥٢/٢. ووفيات الأعيان ٢٧٠/٤. والأعلام للزركلي ١٧٦/٦.

kolasa-borhan

مولده:

ولد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في البصرة، ولم يعين أحد من المؤرخين عام ولادته، وسكن بغداد[١].

طلبه العلم:

تلقى العلم على يد أعلام البصرة، ثم رحل إلى بغداد لينهل من علمائها كذلك، واستقر بها نهاية المطاف.

والجدير بالملاحظة أنه لم يذكر أحد من المؤرخين متى رحل إليها؟ ومتى دخلها؟ لتبقى جوانب كثيرة من حياة الإمام الباقلاني يكتنفها الغموض، وشحّ المصادر!

شيوخه:

سمع ببغداد الحديث من:

أبي بكر بن مالك القطيعي[٢].

وأبي محمد بن ماسي[٣].

وأبي أحمد الحسين بن علي النيسابوري[٤].

ومن شيوخه: أبو بكر الأبهري.

وابن أبي زَيْد القَيْرواني[٥].

وأخذ الحديث وغيره من العلوم عن طائفة أخرى غيرهم.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩٠/١٧.
(٢) العبر في خبر من غبر، للذّهبي ٨٨/٣.
(٣) سير أعلام النبلاء، للذّهبي ١٩٠/١٧.
(٤) تاريخ بغداد، للخطيب ٢٧٩/٥.
(٥) تاريخ قضاة الأندلس ص٣٧.

kolasa-borhan

وقد أخذ علم النظر عن أصحاب أبي الحسن الأشعري[١]، وأشهرهم أبو عبدالله محمد بن أحمد ابن مجاهد الطائي صاحب أبي الحسن الأشعري[٢].

تلاميذه:

خرج له وحدث عنه العلم جماعة لا تعد لكثرتها؛ ودرسوا عليه أصول الفقه والدين؛ منهم:

- أبو الفتح محمد بن أبي الفوارس[٣].
- القاضي أبو جعفر محمد بن أحمد السمناني[٤].
- ومن أهل المغرب: القاضي أبو محمد عبدالوهاب بن نصر[٥].
- وأبو عمران الفاسي الذي رحل إليه ولازمه ببغداد، وأخذ عنه[٦].

عبادته وصلاحه:

كان ورد القاضي أبي بكر الباقلاني في كل ليلة عشرين ترويحة ما يتركها في حضر ولا سفر. وكان ما يضمره القاضي أبو بكر من الورع والدين أضعاف ما كان يظهره، فقيل له في ذلك، فقال: إنما أظهر ما أظهره غيظاً لليهود والنصارى، والمعتزلة والرافضة، لئلا يستحقروا علماء الحق[٧].

وكان فاضلاً متورعاً ممن لم يحفظ عليه زلة قط، ولا تنسب إليه نقيصة. قال الإمام الصيرفي فيه: «كان صلاح القاضي أكثر من علمه، وما

(١) العبر في خبر من غبر ٨٨/٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٩١/١٧.
(٣) المصدر المتقدم ١٩٠/١٧.
(٤) تاريخ بغداد ٢٧٩/٥.
(٥) تاريخ قضاة الأندلس ص٣٧.
(٦) المصدر المتقدم ص٣٧.
(٧) تاريخ بغداد ٢٨٠/٥.

kolasa-borhan

نفع الله هذه الأمة بكتبه وبثها فيهم، إلا بحسن نيته، واحتسابه بذلك ما عند الله من الثواب»[(١)].

منزلته العلمية:

- كان ثقة مشهوراً وإماماً بارعاً. من كبار علماء زمانه.
- قاض مشهور.
- لسان المتكلمين وموضح البراهين، وقامع المبتدعين وقاطع المبطلين. فكان أعرف الناس بالكلام وأحسنهم خاطراً وأجودهم لساناً وأوضحهم بياناً وأصحهم عبارة.
- وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم[(٢)].
- ذكره القاضي عياض في طبقات المالكية قائلا: «هو الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث[(٣)]أ.هـ[(٤)].
- كان في العقيدة على مذهب الأشعري، بل «يعتبر الباقلاني المؤسس الثاني للمذهب الأشعري»[(٥)].

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس ص٣٧.

(٢) هذه النقاط ملخصةً من: تبيين كذب المفتري ٥٣، وجامع الأصول ٣١٩/١١، وفتاوى ابن الصلاح ١٣٠/١، وأدب المفتي والمستفتي١٣٠، وشذرات الذهب ١٦٨/٣.

(٣) هذا لقبٌ صحيح باعتبارات:
الأول: مناصرته لأهل السنة عامة مقابل الرافضة، ومقابل اليهود والنصارى.
الثاني: أنه أول من أدخل الاستدلال بالنقل في مذهب الأشاعرة. وهذا لا يعني أنه لم يخالف أهل السنة رغم مناصرته لهم في بعض مسائل الدين ـ غفر الله له ورحمه، فلا مراء بأنه أشعري، بل منظر مذهبهم.
الثالث: باعتبار ما آل إليه أمره كما سيأتي في عقيدته، والله أعلم.

(٤) انظر: ترتيب المدارك ٥٨٥/٤ ـ ٥٨٦.

(٥) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٥٤٩/٢.

kolasa-borhan

● وكان على مذهب مالك في الفروع، وانتهت إليه رئاسة المذهب. وإن اختلفوا في مذهبه في الفروع؛ فقيل: شافعي. وقيل: مالكي، حكى ذلك عنه أبو ذر الهروي. وقيل: إنه كان يكتب على الفتاوى كتبه محمد بن الطيب الحنبلي، وهذا غريب جداً![١] والصحيح أنه مالكي.

● اعتبره بعض العلماء المجدد به دين الأمة على رأس المائة الرابعة[٢].

حفظه واستيعابه:

قال أبو الفرج: «وسمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: كل مصنف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه سوى القاضي أبي بكر، فإن صدره يحوي علمه وعلم الناس»[٣].

قال علي بن محمد بن الحسن الحربي المالكي: «وما صنف أحد خلافاً إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين غير القاضي أبي بكر، فإن جميع ما كان يذكر خلاف الناس فيه صنفه من حفظه»[٤]. «وكان يُضرب المثل بِفهمه وذكائه»[٥].

وقال: كان القاضي أبو بكر الأشعري يهم بأن يختصر ما يصنفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه[٦].

---

(١) ذكر ذلك ابن كثير في البداية والنهاية ٣٥٠/١١، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ١٢٧. ولكن له علَّة وهي: إتباعهم لأهل السنة مقابل المعتزلة والرافضة اللتان فشتا وتسلطتا في ذلك الزمن. وانظر مجموع الفتاوى ٥٣/٦، و٢٢٨/٣. و١٦/٤، ودرء التعارض٢٧٠/١، و١٦/٢ ـ ١٧، و١٠٠/٢.

(٢) تبيين كذب المفتري ٥٣، وجامع الأصول ٣١٩/١١، وفتاوى ابن الصلاح ١٣٠/١، وأدب المفتي والمستفتي١٣٠، وشذرات الذهب ١٦٨/٣.

(٣) تاريخ بغداد ٣٨٠/٥.

(٤) المصدر المتقدم.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٩٠/١٧.

(٦) تاريخ بغداد ٢٧٩/٥.

kolasa-borhan

كان كل ليلة إذا صلى العشاء وقضى ورده وضع الدواة بين يديه وكتب خمساً وثلاثين ورقة تصنيفاً من حفظه.

وقد وُصف بجودة الاستنباط وسرعة الجواب.

فصاحته:

روى القاضي أبو حامد أحمد بن محمد بن أبي عمرو الإستوائي قال: كان أبو محمد البافي[١] يقول: لو أوصى رجل بثلث ماله أن يدفع إلى أفصح الناس لوجب أن يدفع لأبي بكر الأشعري.

وقال الشيخ أبو القاسم بن برهان النحوي: من سمع مناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذ بعدها لسماع كلام أحد من المتكلمين والفقهاء والخطباء والمترسلين، ولا الأغاني أيضاً لطيب كلامه وفصاحته، وحسن نظامه وإشارته[٢].

مناظراته وقوة حجته بالحق:

اشتهر الإمام الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ بالمناظرات المختلفة مع النصارى وغيرهم من الرافضة والمعتزلة، وكنموذج للعِبرة وبيان قوته في الحجة نسوق مناظرته المشهورة في مجلس عضد الدولة:

ذكر القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ عن بعضهم: «كان الملك عضد الدولة فناخسرو بن بويه الديلمي[٣]، يحب العلم والعلماء، وكان

(١) هو عبدالله بن محمد البخاري شيخ الشافعية ببغداد توفي ٣٩٨هـ. وباف قرية من قرى خوازم. توضيح المشتبه ١٠٩/١.

(٢) المصدر المتقدم ٢٧٩/٥.

(٣) ترجمته: أبو شجاع: عضد الدولة البويهي فناخسرو بن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمي، أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق. تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة. كان شديد الهيبة، جباراً عسوفاً، أديباً، عالماً بالعربية، ينظم الشعر، وكان شيعياً، قال الذهبي: أظهر بالنجف قبراً زعم أنه قبر الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبنى عليه المشهد وأقام مأتم عاشوراء. أخباره كثيرة متفرقة. توفي ببغداد ٣٧٢هـ. انظر يتيمة الدهر: ٢١٦/٢ ـ ٢١٨، المنتظم: ١١٣/٧ ـ ١١٨، الكامل =

مجلسه يحتوي منهم على عدد عظيم في كل فن، وأكثرهم الفقهاء والمتكلمون. وكان يعقد لهم للمناظرة مجالس. وكان قاضي قضاته بشر بن الحسين[١] معتزلياً.

فقال له عضد الدولة يوماً: هذا المجلس عامر بالعلماء إلا أني لا أرى فيه عاقداً من أهل الإثبات[٢] والحديث[٣] يناظر!!

فقال له قاضيه: إنما هم عامة، أصحاب تقليد ورواية، يروون الخبر وضده، ويعتقدونهما جميعاً. ولا أعرف منهم أحداً يقوم بهذا الأمر. وإنما أراد ذمّ القوم، ثم أقبل يمدح المعتزلة.

فقال له عضد الدولة: محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصرٍ، فانظر أي موضع فيه مناظر، يكتب فيه فيجلب. فلما عزم عليه. قال القاضي: أخبروني أن بالبصرة شيخاً وشاباً، الشيخ يعرف بأبي الحسن الباهلي[٤]. وفي

= لابن الأثير: ٥٨٤/٨ ـ ٧١٠ و٥/٩ ـ ١٢، ١٨ ـ ٢٣، وأماكن أخرى، وسير أعلام النبلاء: ٢٤٩/١٦ ـ ٢٥٢، البداية والنهاية: ٢٩٩/١١ ـ ٣٠١، شذرات الذهب: ٧٨/٣ ـ ٧٩.

(١) قاضي القضاة أبو سعيد بشر بن الحسين: وكان إماماً في أصحاب داود، أخذ العلم عن علي بن محمد البغدادي صاحب ابن المغلس، وهو قاضي قضاة فارس والعراق وجميع أعمال عضد الدولة تولاها سنة ٣٦٩هـ وهو أستاذ أبي الحسن الخرزي وأبي الفرج الفامي الشيرازي. طبقات الفقهاء ١٢٢/١ و١٧٧ ـ ١٧٨ و١٧٩، والكامل في التاريخ ٨٠/٤.

(٢) يعني مذهبهم الرافضي.

(٣) يعني أهل السنة بعمومهم.

(٤) شيخ المتكلمين، أبو الحسن الباهلي البصري، تلميذ أبي الحسن الأشعري. برع في العقليات. وكان يقظاً، فطناً، لسناً، صالحاً، عابداً. وتوفي في حدود السبعين والثلاثمائة. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٠٤/١٦، وطبقات الشافعية للسبكي ٣٦٨/٣، وتبيين كذب المفتري ١٧٨، والوافي بالوفيات: ٣١٢/١٢.

kolasa-borhan

رواية: بأبي بكر بن مجاهد[(١)]، والشاب يعرف بابن الباقلاني.

فكتب الملك من حضرته يومئذ يشير إلى عامل البصرة، ليبعثهما. وأطلق مالاً لنفقتهما من طيب ماله.

فلما وصل الكتاب إليهما، قال الشيخ وبعض أصحابه: هؤلاء قوم كفرة فسقة ـ لأن الديلم كانوا روافض ـ لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان خالصاً لله لنهضت.

قال الباقلاني: فقلت له: هكذا قال ابن كلاب[(٢)] والمحاسبي[(٣)]، ومن

(١) أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد: كبير العلماء بالقراءات في عصره. من أهل بغداد. وكان حسن الأدب، رقيق الخلق، فطناً جواداً. توفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ومولده سنة خمس وأربعين. له (كتاب القراآت الكبير) وكتاب (قراءة ابن كثير) و(قراءة أبي عمرو) و(قراءة عاصم) و(قراءة نافع) و(قراءة حمزة) و(قراءة الكسائي) و(قراءة ابن عامر) و(قراءة النبي ﷺ) و(كتاب اليآآت) وكتاب (الهآآت). انظر: الفهرست ٤٧، وتاريخ بغداد ١٤٤/٥ ـ ١٤٨، ومعرفة القراء ٢١٦/١ ـ ٢١٨، والوافي بالوفيات ٢٠٠/٨، وطبقات الشافعية ٥٧/٣ ـ ٥٨، البداية والنهاية ١٨٥/١١.

(٢) عبدالله بن سعيد بن كلاب، أبو محمد القطان: متكلم من العلماء يقال له: ابن كلاب. قال السبكي: وكلاب بضم الكاف وتشديد اللام. رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه وإمام الطائفة المعروفة بالكلابية، توفي ٢٤٥هـ، له كتب منها: الصفات، وخلق الأفعال، والرد على المعتزلة. انظر: الوافي بالوفيات ٣٩٥/٥، وطبقات الشافعية للسبكي ٢٩٩/٢ ـ ٣٠٠، وسير أعلام النبلاء ١٧٤/١١ ـ ١٧٥، ولسان الميزان ٢٩٠/٣ ـ ٢٩١، ومقالات الإسلاميين ٢٤٩/١ وما بعدها و٢٢٥/٢ وما بعدها، وفهرست ابن النديم ١٨٠. والأعلام ٩٠/٤.

(٣) الحارث بن أسد المحاسبي، كنيته أبو عبدالله. من علماء ومشايخ الصوفية والإشارات. أخذ علم الكلام عن ابن كلاب. له التصانيف المشهورة؛ منها: كتاب الرعاية لحقوق الله، وغيره. وهو أستاذ أكثر البغداديين؛ وهو من أهل البصرة. مات ببغداد، سنة ثلاث وأربعين ومائتين. وانظر: تهذيب التهذيب ١٣٤/٢ وصفة الصفوة ٢٠٧/٢ وطبقات السلمي ٥٦، وحلية الأولياء ٧٣/١٠ وميزان الاعتدال ٤٣٠/١، وتاريخ بغداد ٢١١/٨، وطبقات السبكي ٣٧/٢. =

في عصرهم، إن المأمون فاسق، لا نحضر مجلسه، حتى سيق أحمد بن حنبل إلى طرسوس[١]، وجرى عليه بعده ما عرف[٢].

ولو ناظروه لكفوه عن هذا الأمر، وتبين لهم ما هم عليه بالحجة، وأنت أيضاً أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد، ويقولوا بخلق القرآن، ونفي الرؤية!!

وها أنا خارج إن لم تخرج.

فقال الشيخ: أما إذا شرح الله صدرك لهذا فاخرج.

فخرجت مع الرسول، نحو شيراز في البحر، فوصلت، فسألت عن صفة الدخول عليهم، فأخبرت أنه إذا كان يوم الجمعة، لم يحجب عنه كل صاحب طيلسان. لأن له فيه مناظرة، وفي رواية: فلما كان من الغد دخلت على الملك، وكان إذا صلى الظهر، وقعد العلماء، رفع الحجاب ودخل كل صاحب طيلسان.

فدخلت والناس قد اجتمعوا، والملك قاعد على سرير، وبين يديه غلمان بأيديهم السيوف المحلاة.

وعن يمينه ويساره مراتب. وما عن يمينه خال لا يقعد هناك إلا وزير، أو ملك عظيم. فكرهت أن أقعد آخر الناس للمذلة.

فمضيت وقعدت عن يمينه بحذاء قاضي القضاة، عن يساره، فنظر الملك لقاضي القضاة، نظراً منكراً.

= قال ابن تيمية في الفتاوى ٣٦٨/١٢: «والإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يحذرون عن هذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب ويحذرون عن أصحابه. وهذا هو سبب تحذير الإمام أحمد عن الحارث المحاسبي ونحوه من الكلابية». وانظر تفصيل ما حدث بين أحمد والمحاسبي في المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي ٣٤ ـ ٣٥ وتاريخ بغداد ١١٤/٨، قوت القلوب ١٦٨، ميزان الاعتدال ٢٠٠/١، أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي للدكتور عبدالحليم محمود ١٧ ـ ١٨.

(١) طرسوس: مدينة بثغور الشام، بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.

(٢) يشير إلى قصة امتحان الإمام أحمد بسبب فتنة القول بخلق القرآن. القصة المشهورة وانظر سير أعلام النبلاء ١٨٣/١١ ـ ٣٥٨.

kolasa-borhan

ولم يكن في المجلس من يعرفني إلا واحد، وقد فزعوا لفعلي. فقال الرجل للقاضي: هذا الرجل الذي طلبه الملك من البصرة. فأعلم الملك بذلك، والتفت إليّ وأومأ بعينه إلى الحجاب، فطاروا عني.

ثم أقبل فقال: هاتوا مسألة. وفي المجلس رئيس المعتزلة البغداديين الأحدب[١]، وكان أفصح من عندهم وأعلمهم، وعدد كثير من معتزلة البصرة، أقدمهم أبو إسحاق النصيبيني[٢].

فقال الأحدب لبعض تلاميذه: سله، هل لله أن يكلف الخلق ما لا يطيقون؟ كأن غرضه تقبيح صورتنا عند الملك.

قال: فقلت إن أردتم بالتكليف، القول المجرد، فقد وجد ذلك إن شاء الله تعالى، قال: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ [الإسراء]. ونحن لا نقدر أن نكون كذلك. وقال تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة] الآيتان. فطالبهم بما لا يعلمون. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٢]. فهذا كله أمر بما لا يقدر الخلق عليه.

وإن أردتم بالتكليف، الذي نعرفه، وهو ما يصح فعله وتركه، فالكلام متناقض، وسؤالك فاسد، فلا تستحق جواباً، لأنك قلت تكليف، والتكليف اقتضاء فعل ما فيه مشقة على المكلف. وما لا يطاق لا يفعل بمشقة، ولا بغير مشقة.

فسكت السائل، وأخذ في الكلام الأحدب فقال: أيها الرجل، سئلت عن كلام مفهوم، فطرحته في الاحتمالات، وليس ذلك بجواب. وجوابه إذا سئلت أن تقول: نعم، أو لا.

قال القاضي: فأحفظني ـ أغضبني ـ كلامه، لما لم يوقرني، توقير الشيوخ.

---

(١) لم أجد له ترجمة فيما وقفت عليه.

(٢) لم أجد له غير هذا الخبر وقصة أخرى ذكرها الصفدي في الوافي بالوفيات عند ترجمة القاضي عبدالجبار المعتزلي.

kolasa-borhan

وقلت له: يا هذا، أنت عائم ورجلاك في الماء. إنما طرحت السؤال في الاحتمالات، وقد بينت لك الوجوه المحتملة. فإن كان معك في المسألة كلامٌ فهاته، وإلا تكلم في غيرها. فأعاد الكلام الأول.

فقال الملك: هذا الشيخ، قد بيّن وجوه الاحتمال، وليس لك أن تعيب عليه، ولا أن تغالطه، وما جمعتكم إلا لفائدة، لا للمهاترة ولا لما لا يليق بالعلماء.

ثم التفت الملك إلى القاضي، وقال له: تكلم على المسألة.

فقال القاضي: ما لا يطاق، على ضربين. أحدهما، لا يطاق للعجز عنه، والآخر لا يطاق للاشتغال عنه بضده. كما يقال: فلان لا يطيق التصرف لاشتغاله بالكتابة. وهذا سبيل الكافر، أنه لا يطيق الإيمان، لاشتغاله بالكفر، وهو ضده. وأما العاجز فما ورد في الشريعة تكليفه، ولو ورد لكان جائزاً. وقد أثنى الله تعالى على من سأله ألا يكلفه ما لا يطيق. فقال ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. لأن الله تعالى له أن يفعل في ملكه ما يريد.

ثم تجاوز الأحدب الكلام إلى غيره. وتكلم معه القاضي. ومال الملك إلى قوله.

وجرى له ـ أي الباقلاني ـ في هذا المجلس كلام كثير، أعجب به الملك. ولم يزل يحلو له كلامه، ويزحف عن سريره، حتى نزل عنه. وحصل بين يديه.

ثم أقبل الملك على قاضي القضاة، فقال له: ألم أقل لك مذهب طبق الأرض، لا بد له من ناصر؟

قال القاضي: فلما انقضى المجلس، صحبني بعض الحجّاب إلى منزل هيأ لي فيه جميع ما نحتاج إليه، فسكنته.

ولم يزل مع الملك إلى أن قدم بغداد، ودفع إليه الملك ابنه يعلمه مذهب أهل السنة. وألّف له التمهيد. وأخذ عنه إذ ذاك أبو عبدالرحمٰن

kolasa-borhan

السلمي الصوفي[(١)]، وجماعة من أهل السنّة بشيراز. وقرأوا عليه شرح اللمع[(٢)].

قال: وقال الملك لقاضيه: فكرت بأي قتلة أقتله، بجلوسه حيث جلس بغير أمري. وأما الآن، فقد علمت أنه أحق بمكاني مني». اهـ[(٣)].

وحكى القاضي أبو الوليد الباجي[(٤)] عن أبي ذر الهروي[(٥)]، قال: أول

(١) هو: محمد بن الحسين بن موسى أبو عبدالرحمٰن السلمي الأزدي كان شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان صنف لهم سنناً وتفسيراً وتاريخاً وغير ذلك، سمع من جده لأمه وأبي العباس الأصم والحافظ أبي علي النيسابوري وأبي بكر الصبغي وأبي بكر القطيعي وجماعة، وحدث أكثر من أربعين سنة إملاء وقراءة روى عنه الحاكم والبيهقي وأبو القاسم القشيري وأبو صالح المؤذن وخلائق. وزادت تصانيفه على المائة وكان وافر الجلالة مولده في رمضان سنة ٣٣٠ وقيل غير ذلك ومات في شعبان سنة ٤١٢ وتفسيره غير محمود، قال الذهبي في تاريخه: «كتابه حقائق التفسير ليته لم يصنفه فإنه تحريف وقرمطة». وانظر: تاريخ بغداد ٢٤٨/٢ ـ ٢٤٩، والكامل في التاريخ ٣٢٦/٩، وتاريخ الإسلام ٢١٩/٢١، والعبر ١٠٩/٣، وميزان الاعتدال ٥٢٣/٣ ـ ٥٢٤، ودول الإسلام ٢٤٦/١، والوافي بالوفيات ٣٨٠/٢ ـ ٣٨١، وطبقات السبكي ١٤٣/٤ ـ ١٤٧، والبداية والنهاية ١٢/١٢ ـ ١٣، وطبقات الأولياء ٣١٣ ـ ٣١٥، ولسان الميزان ١٤٠/٥ ـ ١٤١، وطبقات المفسرين للسيوطي ٣١، وشذرات الذهب ١٩٦/٣ ـ ١٩٧.

(٢) شرح اللمع: شرح الباقلاني لكتاب اللمع لأبي الحسن الأشعري، ولم يصل إلينا هذا الكتاب، لكن نقل منه شيخ الإسلام ابن تيمية نصوصاً كثيرة في درء التعارض، وكتاب اللمع للأشعري يحمل مكانة عند الأشاعرة. موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٤٢/٣.

(٣) ترتيب المدارك ٥٨٥/٤ ـ ٥٨٦، وقد اشتهرت عنه مناظرات للنصارى والرافضة وغيرهم، تركتها اختصاراً.

(٤) هو: سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي الأندلسي الباجي الفقيه المالكي أحد الحفاظ المكثرين في الفقه والحديث. وتولى القضاء، وله مصنفات عديدة منها المنتقى في شرح الموطأ وإحكام الفصول في أحكام الأصول والجرح والتعديل وغيرها. توفي في رجب ٤٧٤هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وانظر: الإكمال ٤٦٨/١، وترتيب المدارك ٨٠٢/٤ ـ ٨٠٨، والصلة ٢٠٠/١ ـ ٢٠٢، ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ ـ ٢٥١، وفيات الأعيان ٤٠٨/٢ ـ ٤٠٩، ودول الإسلام ٦/٢، والبداية والنهاية ١٢٢/١٢ ـ ١٢٣، وطبقات المفسرين للسيوطي ١٤، وشذرات الذهب ٣٤٤/٣ ـ ٣٤٥، وتهذيب ابن عساكر ٢٥٠/٦ ـ ٢٥٢.

(٥) هو: عبد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن غفير الأنصاري الحافظ الثقة الفقيه المالكي نزيل مكة روى عن أبي الفضل بن حميرويه وأبي عمر بن حيويه وطبقتهما =

معرفتي بالقاضي أبي بكر وأخذي عنه؛ أني كنت ماشياً مع الشيخ أبي الحسن الدارقطني في بعض أزقة بغداد، إذ لقي شاباً فسلم عليه واحتفل به، ورأيت من تعظيم الشيخ أبي الحسن له وإقباله عليه ودعائه له ونحو هذا، ما عجبت منه.

فقلت له: من هذا؟ فقال لي: هذا أبو بكر بن الطيب، الذي نصر الله به أهل السنّة. وقمع به أهل البدعة. أو كما قال»[(١)].

عقيدته:

كان الإمام الباقلاني من كبار علماء الكلام، هذب بحوث الإمام الأشعري، وتكلم في مقدمات البراهين العقلية للتوحيد، وغالى فيها كثيراً إذ لم ترد هذه المقدمات في كتاب ولا سنة، ثم انتهى إلى مذهب السلف وأثبت جميع الصفات كالوجه واليدين على الحقيقة وأبطل أصناف التأويلات التي يستعملها المؤولة وذلك في كتابه: «تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: «هو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده»[(٣)].

= وروى الصحيح ثلاثة من أصحاب الفربري وجمع لنفسه معجماً وعاش ثمان وسبعين سنة وكان ثقة متقناً ديناً عابداً ورعاً بصيراً بالفقه والأصول أخذ علم الكلام عن ابن الباقلاني وصنف مستخرجاً على الصحيحين وكان شيخ الحرم في عصره ثم أنه تزوج بالسروات وبقي يحج كل عام ويرجع. توفي ٤٣٤هـ. وانظر: تاريخ بغداد ١٤١/١١، ترتيب المدارك ٦٩٦/٤ ـ ٦٩٨، تبيين كذب المفتري ٢٥٥ ـ ٢٥٦، الكامل لابن الأثير ٥١٤/٩، العبر ١٨٠/٣ ـ ١٨١، تذكرة الحفاظ ١١٠٣/٣ ـ ١١٠٨، دول الإسلام ٢٥٧/١، البداية والنهاية ٥٠/١٢ ـ ٥١، شذرات الذهب ٢٥٤/٣.

(١) ترتيب المدارك ٤٨٣/١ ـ ٤٨٤، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ٢٦٢/١ ـ ٢٦٤.

(٢) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨. وانظر المواقف في علم الكلام للعضد الإيجي ص٢٩٨. والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢٨/٢.

(٣) مجموع الفتاوى ٩٨/٥.

وقال الذهبي: «كان سيفاً على المعتزلة والرافضة والمُشَبِّهة، وغالب قواعده على السنة».

وقال ابن كثير: «رأس المتكلمين على مذهب الشافعي، وهو أكثر الناس كلاماً وتصنيفاً في الكلام... ومن أحسن تصانيفه كتاب الرد على الباطنية، الذي سماه: كشف الأسرار وهتك الأستار»(١).

وقال الحافظ ابن عساكر: «كان الانتساب إلى الاعتزال فاشياً منتشراً، وكل من كان متسنناً مستخفياً مستتراً إلى أن قام القاضي أبو بكر بنصرة المذهب، واشتهر في المشرق والمغرب. وكان مظهره بدار السلام التي هي قبة الإسلام، فلم يظهر لذلك تغيير من الأنام، ولا نُكْرَةٌ من العلماء والعوام، بل كان الكل يتقلدون منه المنة من العوام، والأئمة يلقبونه بأجمعهم سيف السنة ولسان الأمة. وكان بينه وبين جماعة من الحنابلة مخالطة ومؤانسة واجتماع ومجالسة»(٢).

كان في العقيدة على مذهب الأشعري، انتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، «وقد ألف كتاباً سمَّاه: «الإبانة»، يقول فيه: فإن قيل، فما الدليل على أن لله وجهاً ويداً؟ قال: قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]. وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. فأثبت تعالى لنفسه وجهاً ويداً. إلى أن قال: فإن قيل: فهل تقولون: إنَّه في كل مكان؟ قيل: معاذ الله، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر في كتابه. إلى أن قال: وصفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها: الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والوجه واليدان والعينان والغضب والرضى. فهذا نصّ كلامه»(٣).

(١) سير أعلام النبلاء ١٩٠/١٧، والبداية والنهاية، لابن كثير: وفيات سنة ٤٠٣.
(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، لليافعي: وفيات سنة ٤٠٣.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥٥٩/١٧.

kolasa-borhan

أعماله:

- وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فأحسن السفارة، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها.
- انتهت إليه رئاسة مذهب الإمام مالك في وقته.
- وكان له بجامع البصرة حلقة عظيمة.
- ولي القضاء.
- انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة.
- قال الذهبي: هو الذي كان ببغداد يناظر عن السنة وطريقة الحديث بالجدل والبرهان وبالحضرة رؤوس المعتزلة والرافضة والقدريَّة وألوان البدع، ولهم دولة وظهور بالدولة البويهية.
- وكان يُردُّ على الكرّامية، وينصر الحنابلة عليهم. وبينه وبين أهل الحديث عامِرٌ، وإن كانوا قد يختلفون في مسائل دقيقة فلهذا عامله الدارقطني بالاحترام[(١)(٢)].

اهتمامه بتآليفه ومراجعته لها:

كان كل ليلة إذا صلى العشاء وقضى ورده وضع الدواة بين يديه وكتب خمساً وثلاثين ورقة تصنيفاً من حفظه، وكان يذكر أن كتبه بالمداد أسهل عليه من الكتب بالحبر.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٥٩/١٧، والأعلام ١٧٦/٦.

(٢) من الدروس المستفادة من ذلك: ١ ـ أهمية وجود الأذكياء المناظرين عن منهج أهل السنة المستوعبين لشبهات وحجج المخالفين، والذين يملكون القدرات الكافية عقلاً وفصاحة وتأليفاً وعلماً. ٢ ـ ضرورة النية الصادقة للدفاع عن دين الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. ٣ ـ أنه لا يخلو عصر من أهل الضلال. ٤ ـ أنه لا بد من وجود أهل الحق المدافعين عن عقيدة الأمة. ٥ ـ يجب إعطاء من يقوم بهذا الدور حقهم من الاحترام والتقدير والمحبة والنصرة، لكونهم على ثغر كبير يحتاج من يسده. انظر: السلاجقة ٢/٢ ـ ٥.

kolasa-borhan

يقال: إنه كان لا ينام كل ليلة حتى يكتب عشرين ورقة من مدة طويلة من عمره، فانتشرت عنه تصانيف كثيرة.

وكان إذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنفه في ليلته وأمره بقراءته عليه، وأملى عليه الزيادات فيه[١].

أشهر مصنفاته:

ذكر بعض العلماء له أكثر من نيف وخمسين كتاباً، ومن أشهرها:

١ ـ إعجاز القرآن[٢].

٢ ـ التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة[٣]. وبعضهم سماه: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل.

٣ ـ الانتصار للقرآن[٤].

٤ ـ نكت الانتصار لنقل القرآن[٥].

٥ ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به[٦].

٦ ـ رسالة الحُرّة[٧]: وهي رسالة جامعة ذكر فيها مسائل العقيدة بإجمال

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس ص٣٧.

(٢) وهو مدار البحث، وقد طُبع بتحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف ـ القاهرة ـ، ط٥ ـ ١٩٨١م.

(٣) نُشر الطبعة الأولى، بتحقيق د. محمد عبدالهادي أبو ريدة، والأستاذ محمود محمد الخضيري، ط. لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م. الطبعة الثانية: بتحقيق رتشرد يوسف مكارثي، ط. بيروت، ١٩٥٧م.

(٤) نشرته مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٥هـ.

(٥) طُبع بتحقيق: د.محمد زغلول سلام ـ منشأة المعارف ـ الإسكندرية ـ ١٩٧١م.

(٦) طبعت بتحقيق: محمد زاهد الكوثري، نشر عزت العطار، القاهرة، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.

(٧) وقد طبعت باسم: «الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به» تحقيق: محمد زاهد الكوثري، القاهرة، عام ١٣٦٩هـ.

kolasa-borhan

ثم فصلها، وتوسع في مسألة القرآن وكلام الله وما يتعلق بذلك.

٧ ـ مناقب الأئمة ونقض المطاعن على سلف الأمة[١].

٨ ـ كشف الأسرار وهتك الأستار في الرد على الباطنية.

٩ ـ دقائق الكلام.

١٠ ـ الملل والنحل.

١١ ـ إكفار المتأولين.

١٢ ـ الإمامة الكبرى.

١٣ ـ كيفية الاستشهاد في الرد على أهل الجحد والعناد.

١٤ ـ الإيجاز.

١٥ ـ دقائق الكلام والرد على من خالف الحق من الأوائل ومنتحلي الإسلام.

قال القاضي عياض: وقد صنف ابن الباقلاني وغيره من الأئمة في هتك مقالات العبيدية وبطلان نسبهم[٢].

وغير ذلك من المجاميع الكبار والصغار[٣]، فانتشرت عنه تصانيف كثيرة.

وفاته:

مات القاضي أبو بكر محمد بن الطيب في يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة سنة (٤٠٣هـ). وصلى عليه ابنه الحسن، ودُفِن في مقبرة باب حرب.

(١) مخطوط الجزء الثاني منه بالمكتبة الظاهرية بدمشق.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/١٤٣.
(٣) وانظر للاستزادة: مقدمة السيد أحمد صقر ص٣٧ ـ ٤٨.

kolasa-borhan

المبحث الثاني
جولة موجزة مع الإمام الباقلاني في الإعجاز

● أولاً: سبب تأليفه إعجاز القرآن:

ذكر الباقلاني أن الذين ألفوا في معاني القرآن من علماء اللغة والكلام، لم يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانه؛ مع أن الحاجة إلى ذلك البيان أمس، والاشتغال به أوجب، فهو أحق بالتصنيف من الجزء[(١)] والطفرة[(٢)]

(١) نظرية الجزء الذي لا يتجزأ، أو الجوهر الفرد، هي: أن هناك أجساماً مخلوقة لا طول لها ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا اقتران، وانظر مقالات الإسلاميين ٢/١٠ ـ ١٨، وأبو الهذيل أول من وضع مذهب الجزء الذي لا يتجزأ في الإسلام، وهو مذهب فلسفي اختلف في مصدره. قال الأشعري في مقالات الإسلاميين ١/٥٩ «واختلفوا في الجزء الذي لا يتجزأ وهم فرقتان:

فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن الجزء يتجزأ أبداً ولا جزء إلا وله جزء وليس لذلك آخر إلا من جهة المساحة وان لمساحة الجسم آخراً وليس لأجزائه آخر من باب التجزؤ والقائل بهذا القول هشام ابن الحكم وغيره من الروافض.

والفرقة الثانية منهم يقولون إن لأجزاء الجسم غاية من باب التجزؤ وله أجزاء معدودة لها كل وجميع ولو رفع البارئ كل اجتماع في الجسم لبقيت أجزاؤه لا اجتماع فيها ولا يحتمل كل جزء منها التجزؤ». وانظر للاستزادة: مقالات الإسلاميين ص ٤٨٤ – ٤٨٥، الملل والنحل ١/٣٠، نشأة الفكر الفلسفي للدكتور النشار ١/٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(٢) الطفرة فهي قول النظام بالطفرة التي لم يسبق إليها، ومفادها: دعواه أن الجسم قد يكون في المكان الأول، ثم يصير منه إلى المكان العاشر من غير المرور بالأمكنة المتوسطة بينه وبين العاشر، ومن غير أن يصير معدوماً في الأول ومعاداً في العاشر. =

kolasa-borhan

والأعراض[(١)] وغريب النحو وبديع الإعراب.

وأن سائلا سأله أن يذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي بهم إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة. فأجابه إلى ذلك، وألف هذا الكتاب.

= انظر المعتزلة وأصولهم الخمسة د. عواد المعتق ص٥٦، ٥٩.
وبعبارة أخرى هي: القول بأن الله خلق هذه الموجودات دُفعة واحدة على ما هي عليه الآن من نبات وحيوان، وجبال وبحار، ولم يتقدم خلقُ آدم على ذريته، غيرَ أن الله أكمل بعضها في بعض؛ فالتقدم والتأخر إنما يقع في ظهور هذه الموجودات في أماكنها دونَ حدوثها ووجودها. انظر العقل والنقل عند ابن رشد ص٥٢ ـ ٥٣.
وكان النظَّام متأثراً بأصحاب الكمون والظهور في الفلاسفة وهي طفرة لم يسبقه إليها أحد. وهذا من عجائبه حتى قيل: إن من عجائب الدنيا: «طفرة النظام» وانظر للاستزادة: شرح المقاصد في علم الكلام ٢٩٨/١، وكتاب المواقف ٣٢٤/٢، والملل والنحل ٥٥/١، والفرق بين الفرق ١١٣/١.

(١) العرض: عند الفلاسفة هو الذي لا يقوم بنفسه بل يحتاج إلى موضوع يحل فيه.
يقول عبدالقاهر البغدادي: «الأعراض هي الصفات القائمة بالجواهر؛ من الحركة والسكون والطعم والرائحة» ويقول القاضي عبدالجبار: «وأما في الاصطلاح فهو ما يعرض في الوجود، ولا يجب لبثه كلبث الجواهر والأجسام». وفي التعريفات للجرجاني: «العرض الموجود، الذي يحتاج في وجوده إلى موضع، أي محل يقوم به، كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحله، ويقوم به».
وتقسيم الموجودات إلى جواهر وأعراض قال به النصارى أيضاً، يقول شيخ الإسلام ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «ولفظ العرض في اصطلاح النظار يراد به ما قام بغيره، سواء كان صفة لازمة، أو عارضة، وهذا موجب تقسيم النصارى، كما هو قول الفلاسفة».
فمدار لفظ العرض عند الفلاسفة والمتكلمين، هو ما قام بغيره، وقد يكون صفة لازمة أو قد يكون صفة عارضة.
وانظر للاستزادة: أصول الدين ص٣٣، ولمع الأدلة ص٨٧، والإنصاف ص١٦، وشرح الأصول الخمسة ص٢٣٠، والمباحث المشرقية ٢٣٦/١، والمبين للآمدي ص١١٠، والتعريفات ص١٩٣، والتوقيف على مهمات التعاريف ص٥١٠، والكليات ص٦٢٥، والجواب الصحيح ٤٤/٥، والإنصاف للباقلاني ص٧٨ ـ ٧٩، الإرشاد لأبي المعالي ص ٤٦ ـ ٤٧.

kolasa-borhan

فالأسباب يمكن تلخيصها:

١ ـ تقصير الناس في التأليف فيه وبيانه ـ يعني إعجاز القرآن.

٢ ـ حاجة الناس إلى بيان الإعجاز وجهته.

٣ ـ سؤال السائل المتعين الإجابة.

● ثانياً: أبرز المسائل التي ناقشها الإمام الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن:

جاء كتاب الإمام الباقلاني ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مفصلاً، فبدأه بمقدّمة ثم عشرة فصولٍ تقريباً، وهي على التفصيل التالي:

المقدمة:

- بدأ ببيان شرف القرآن العظيم، وذكر أهمية الكشف عن إعجازه... وأن الذين ألفوا في معاني القرآن من علماء اللغة لم يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته، مع أن الحاجة إلى ذلك البيان أمس...

الفصل الأول:

- بين أن نبوة محمد ﷺ مبنية على دلالة معجزة القرآن، واستدل على ذلك بآيات كثيرة وقال: «وكثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على معجزته». ثم فصل القول في نظم سورتي غافر وفصلت، وبين دلالة ذلك.

الفصل الثاني[1]:

- ذكر أن القرآن معجز للجن والإنس معاً.

(١) إعجاز القرآن ص٢١.

- ثم ذكر من قال بالصرفة وأفاض في إبطال قولهم.

الفصل الثالث[١]:

- ذكر وجوه الإعجاز في كتاب الله ﷻ:

وهي ثلاثة عنده وعند أصحابه الأشاعرة:

١ - الإخبار عن الغيوب؛ وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه.

٢ - معرفة النبي ﷺ أخبار المتقدمين وأقاصيصهم وكتبهم مع أميَّته فلم يكن يقرأ ولا يكتب، ولم يشتغل بدرْس الآثار، ثم حكاها حكاية من شهِدها وحضرها.

وقد أجمل في هذين الوجهين، وأورد بعض الأدلة التي تؤيد ما ذهب إليه فيهما.

٣ - أن القرآن: «بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه».

وقد فصل في هذا الوجه[٢]**؛ إذ جعله عشرة أوجه:**

١ - مخالفة نظم القرآن لجميع كلام العرب؛ فليس هو شعراً ولا نثراً مسجوعاً أو غير مسجوع[٣].

٢ - كثرة آيات القرآن وطولها مع التناسب في البلاغة والحكم، أما كلام البشر فإن المعدود منه بليغاً إنما هو كلمات معدودة وألفاظ قليلة[٤].

(١) المصدر المتقدم ص٣٣ وص٤٨.
(٢) المصدر المتقدم ص٣٥.
(٣) المصدر المتقدم.
(٤) المصدر المتقدم ص٣٦.

kolasa-borhan

٣ ـ عدم التفاوت والتباين في النظم، والمنزلة العليا في التأليف والرصف مع اختلاف الأغراض التي يتناولها القرآن، بينما يختلف كلام البشر اختلافاً بحسب الغرض المتناول وسبك الكلام من شعر أو نثر[١].

٤ ـ نظم القرآن يجمع بين الوجوه الكثيرة؛ فيجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، بينما يتفاوت كلام الفصحاء تفاوتاً بيناً في ضم الكلام المتنافر وجمعه[٢].

٥ ـ نظم القرآن الكريم فاق في بلاغته وفصاحته كلام الجن كما فاق كلام الإنس[٣].

٦ ـ القرآن يشبه كلام العرب في الشكل ويخالفه في المضمون إلى الحد المعجز[٤].

٧ ـ إحكام الألفاظ وقوة المعاني، وسريان ذلك حتى في المواضع العقدية والتشريعية[٥].

٨ ـ كلمات القرآن درر كلها، ليس فيها كلمة نافرة[٦].

٩ ـ حروف كلمات القرآن هي عين حروف كلام العرب التسعة والعشرون، لكن النظم معجز وفيها تنظيم شأن القرآن[٧].

١٠ ـ الأسلوب القرآني «خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، ومن الصنعة المتكلفة». وهو مع قربه إلى الأفهام «ممتنع المطلب، عسير المتناول»[٨].

---

(١) المصدر المتقدم ص٣٦ ـ ٣٨.
(٢) المصدر المتقدم ص٣٨.
(٣) المصدر المتقدم ص٣٨ ـ ٤١.
(٤) المصدر المتقدم ص٤٢.
(٥) المصدر المتقدم ص٤٢.
(٦) المصدر المتقدم ص٤٢ ـ ٤٤.
(٧) المصدر المتقدم ص٤٤ ـ ٤٦.
(٨) المصدر المتقدم ص٣٦.

kolasa-borhan

والناظر في هذه التقسيمات العشرة للوجه الثالث للإعجاز يلحظ تداخل بعضها في بعض؛ كما هو الأمر في التقسيم الثاني والثالث والرابع، ويلحظ أيضاً أن واحداً منها متعلق بوجه ما بالإعجاز وليس هو الإعجاز وهو الوجه الخامس.

الفصل الرابع[١]:

- عقده لشرح ما بينه من وجوه إعجاز القرآن الثلاثة السابقة...

الفصل الخامس[٢]:

- وقصره على: نفي الشعر من القرآن.

الفصل السادس[٣]:

- عقده لـ: نفي السجع من القرآن. وهذا الفصل أخف فصول الكتاب.

الفصل السابع[٤]:

- جعله في ذكر البديع من الكلام.

الفصل الثامن[٥]:

- في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن.
- ثم عقد باباً عظيم القدر لبيان أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم، ومثل بآيات كثيرة مبيناً أسرار إعجازها أيما بيان.

فصول[٦] **متناثرة**:

وبين فيها المسائل التالية:

---

(١) المصدر المتقدم ص٤٨ ـ ٥٠.
(٢) المصدر المتقدم ص٥١ ـ ٥٦.
(٣) المصدر المتقدم ص٥٧ ـ ٦٥.
(٤) المصدر المتقدم ص٦٦ ـ ١١٢.
(٥) المصدر المتقدم ص١١٣ ـ ١٥٤.
(٦) المصدر المتقدم ص٢٤٨.

kolasa-borhan

- أن عجز سائر أهل الأعصار عن الإتيان بمثل القرآن ثابت، كعجز أهل الأعصار الأولى.
- ثم أعقبه بفصل في التحدي ووجه الحاجة إليه في باب القرآن.
- ثم تلاه بفصل في قدر المعجز من القرآن عند الأشاعرة والمعتزلة[١].
- وفصل في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة[٢]؟
- جعل فصلاً فيما يتعلق به الإعجاز: أهو الحروف المنظومة؟ أم الكلام القائم بالذات؟ أم غير ذلك.
- ثم ذكر فصلاً في وصف وجوه البلاغة، و«أن البلاغة على عشرة أقسام...».
- ثم عقد فصلاً في حقيقة المعجز[٣].
- ثم جعل فصلاً في كلام النبي ﷺ وأمور تتصل بالإعجاز.

الفصل الأخير[٤]:

- قال في مستهله: «قد ذكرنا في الإبانة عن معجز القول وجيزاً من القول، رجونا أن يكفي، وأمّلنا أن يقنع...»، ثم قال: «وقد بينا في نظم القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف».

ذلك في الجملة منهج الإمام الباقلاني في كتابه الإعجاز، وقد أجملنا موضوعاته في هذه الأسطر[٥].

(١) المصدر المتقدم ص٢٥٤.
(٢) المصدر المتقدم ص٢٥٩.
(٣) المصدر المتقدم ص٢٦١.
(٤) المصدر المتقدم ص٢٩٩.
(٥) من أرادها مستوفاة فليرجع كتاب «الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن: دراسة تحليلية نقدية»، للدكتور عبدالرؤوف مخلوف ص١٤١ وما بعدها.

kolasa-borhan

المبحث الثالث
أبرز عناصر تقييم العلماء لمنهج الباقلاني في إعجاز القرآن

المطلب الأول
أبرز عناصر تميز منهج الباقلاني في إعجاز القرآن

١ ـ **أن الباقلاني وقف حياته على التدريس والتأليف:**

- **التدريس**: فقد اجتمعت له كل أدواته، ولم يصرفه عنه صارف، حتى إنه في أثناء مقامه مع عضد الدولة بشيراز وتدريسه لابنه الأمير أبي كاليجار المرزباني؛ لم يمتنع عنه، بل عقد دروساً عامة لأهل السنة.

- **التأليف**: فقد أسهم فيه الباقلاني بنصيب موفور، وكان من عادته أنه إذا صلى العشاء، وقضى ورده، وضع دواته بين يديه، وكتب خمساً وثلاثين ورقة، فإذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنفه ليلته، وطلب منه قراءته عليه، وأملى عليه من الزيادات ما يلوح له فيه. فتسنى له بهذا أن يؤلف نيفاً وخمسين كتاباً؛ لم يصل إلينا منها إلا العدد اليسير[(١)].

(١) انظر: مقدمة السيد أحمد صقر ص٤٨.

kolasa-borhan

٢ ـ اهتمامه بمسألة النبوات والقرآن، وهما محور الحديث عن الإعجاز:

فمن أشهر كتبه المتضمنة لذلك:

أ ـ كتاب «**الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين**»: وهو في إثبات النبوات، والفرق بين معجزات الأنبياء وخوارق السحرة والكهان وغيرهم، وهو من أوسع ما كتب في هذا الباب[(١)].

ب ـ «**رسالة الحُرّة**»، وطبع باسم: «**الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**»: وهي رسالة جامعة ذكر فيها مسائل العقيدة بإجمال ثم فصلها، وتوسع في مسألة القرآن وكلام الله وما يتعلق بذلك[(٢)].

ج ـ «**الانتصار لصحة نقل القرآن**»: دافع فيه الباقلاني عن القرآن ونقله، ورد ردوداً طويلة على الرافضة والملاحدة الطاعنين في كتاب الله، ولا يخلو من الردود الكلامية في المناسات المختلفة[(٣)].

د ـ «**تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**»: ركز فيه الباقلاني على الحِجَاج العقلي، ولذلك تضمن الردود الطويلة على المنجمين، والثنوية، والديصانية، والمجوس، والبراهمة، واليهود، والنصارى، وغيرهم.. مع أبواب أخرى في تفصيل مسائل الصفات والقدر وغيرها على وفق مذهب الأشاعرة[(٤)].

هـ ـ «**دقائق الكلام والرد على من خالف الحق من الأوائل ومنتحلي الإسلام**»: وهي رسالة في الرد على الفلاسفة والمنجمين[(٥)].

و ـ «**الرد على المعتزلة فيما اشتبه عليهم من تأويل القرآن**»[(٦)].

---

(١) مخطوط يوجد قسم في مكتبة تينجن ـ ألمانيا ـ. وطبع بتحقيق مكارثي.
(٢) تحقيق محمد زاهد الكوثري، ـ القاهرة ـ عام ١٣٦٩هـ.
(٣) مخطوط توجد نسخة من الجزء الأول منه في مكتبة «قرا مصطفى باشا» ـ إستانبول ـ. وقد اختصر هذا الكتاب أبو عبدالله الصيرفي، وطبع.
(٤) تحقيق عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
(٥) درء التعارض، لابن تيمية ص١٦٦.
(٦) انظر: مقدمة السيد أحمد صقر ص٤٨.

kolasa-borhan

ز ـ «**الإبانة عن إبطال مذهب أهل الكفر والضلالة**»[١].

ح ـ «**الكرامات**»[٢].

ط ـ «**الأحكام والعلل**»[٣]. وغيرها، ممّا لم نستقصه من ممّا نُسب إليه، إذ أغلبها مفقود.

٣ ـ **جمال التأليف مع حسن العرض والترتيب**: «فالباقلاني إذا عرض لآية من آيات الكتاب سال بيانه متدفقاً بالمديح والثناء على كل حرف، وكل كلمة، وكل عبارة في الآية؛ فهي أفصح الكلام وأروع البيان، وأحلى القول، وأجمل الصور»[٤].

٤ ـ **إكثاره من استدعاء الشواهد**: حيث يقوم بعرضها عرضاً جيداً له قيمته في خدمة البحث وإلقاء أضواء كثيرة كاشفة له، وهو ما جعل كتابه يأخذ مكاناً يستحق الحمد له في هذا المجال[٥].

٥ ـ **أنه يحكي أقوال من سبقه من العلماء في الميدان**، ويبني عليها، وله نظرٌ ورأيٌ فيما ينقل من رأي[٦].

٦ ـ **جمع بين الكلام على وجه الإعجاز**، والكلام على مسائل الإعجاز الأخرى المتعلقة به مباشرة أو بوجه من وجوه العلاقة ـ كل ذلك بأسلوب نقدي متميز[٧].

٧ ـ **أنه يتصف ببعض الأصالة في مناقشته للبيان والمعجز**[٨].

(١) اجتماع الجيوش، لابن القيم ص١٦٨.
(٢) انظر: مقدمة السيد أحمد صقر ص٤٨.
(٣) المصدر المتقدم ص٤٨.
(٤) الإعجاز في دراسات السابقين ص٢١٠.
(٥) المصدر المتقدم ص٢٠٩.
(٦) الإعجاز في دراسات السابقين ص٢٠٤.
(٧) انظر: الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية ص١٣٨.
(٨) دائرة المعارف الإسلامية، للمستشرقين ١٠٧/٦، وهو من زيادات الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية.

kolasa-borhan

٨ ـ **يستشهد بالأدلة النقلية** ويجعلها أصلاً للاحتجاج العقلي، على خلاف ما كان عليه عامة أصحابه من قبل. فكان منهجه: امتلاك ناصية الجدل وعلى طَوْلِ اعتبار في أصول الاستدلال[١].

٩ ـ **أنه من العلماء الأفذاذ المشهورين ذا باع في العلم والعمل**: وكان له إسهام في مجال إعجاز القرآن الكريم بالبيان ومناقشة المخالفين، لا سيما في كتابه «الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حِدَة»[٢]. اهـ.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
أبرز العيوب التي أشار إليها العلماء في منهج الباقلاني

١) **تأثر مسائل الإعجاز بمذهب الأشاعرة عند الباقلاني**: فطرح عدداً من المسائل والأسئلة بناء على مذهبه الأشعري وللأسف لم يخرج من هذه الأسئلة بجواب!! وكفى بعدم جوابه دليلاً على فساد تلك المسائل، وأنها لم تُبن في المذهب الأشعري على دليل شرعي صحيح، ولا دليل منطقي مستقيم، بل على وهم[٣].

٢) **دفاعه عن فكرة نفي السجع من القرآن**: والمبالغة في نصرتها والرد على مخالفيها، اندفاعاً منه ومناصرة لمذهب الأشاعرة. وزاد عللاً واهية لنفي السجع من القرآن، فقال: «لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعاً، لكان مذموماً مرذولاً؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه ـ كان قبيحاً من الكلام!»[٤].

(١) انظر: في علم الكلام ـ الأشاعرة ـ أحمد صبحي ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ١٥٢/٢.
(٣) سيأتي بيان ذلك بالأمثلة في المبحث الخامس.
(٤) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية ص٢١٠.

kolasa-borhan

٣) **بالغ في تسفيه شعر العرب مبالغة عظيمة**: ففي سبيل أن يبين للناس عظم نظم القرآن الكريم وبلاغته، حاول هدم أجمل ما عند العرب من شعر، وقد تكلف بما لا وجه له ولا مدخل له في الإعجاز القرآني[(١)].

٤) **طول الكتاب وكثرة استطرادات المؤلف عموماً**: والبلاغية والأدبية خصوصاً. فحشا وطوَّل كتابه باستكثاره من الأمثلة والشواهد الأدبية، استكثاراً طغى على موضوع البحث أحياناً[(٢)].

٥) **نقده الزائد لمعلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري**: فأدَّى ذلك لتحامله عليهما، ولم يكن ذلك منه مقصوداً؛ لكن أسلوب المقارنة بين كلام الناس والقرآن ـ والذي ذمّ فاعله في مواضع من كتابه[(٣)] ـ أوقعه في ذلك[(٤)].

٦) **أنه مسبوق بالآراء التي يقول بها في وجوه الإعجاز**: فليس هو الذي كشف عن هذه الوجوه وأقام الشواهد لها[(٥)].

❋ ❋ ❋

(١) المصدر المتقدم ص٣٧١.

(٢) الإعجاز في دراسات السابقين ص٢٠٩.

(٣) قال في ص٤: «وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه! وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر». وقال ص٢١٦: «فأما أن يظن ظان، أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج]».

(٤) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية ص٣٧٣.

(٥) الإعجاز في دراسات السابقين ص٢٢١.

kolasa-borhan

المطلب الثالث
العلاقة بين الباقلاني وغيره

● موقف الباقلاني من الجاحظ:

عرض الباقلاني لنقد الجاحظ: بأن كلامه قريب، ومنهاجه معيب، ونطاق قوله ضيق، يستعين بكلام غيره، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه، من بيت سائر، ومثل نادر، وحكمة منقولة، وقصة مأثورة، فإذا أطال ولم يستعن بكلام غيره، كان كلامه ككلام غيره[١].

قال عنه في مقدمته: «وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى»[٢] **.وهذا الكلام لا يُسَلَّم له.**

● العلاقة بين الباقلاني والرماني:

الغريب أنه لم يشر في كتابه إلى كتاب «النكت في إعجاز القرآن» للرماني، فكأنه هو ابتدأ التأليف في الإعجاز بما بسط في كتابه واتسع. وقد قال: «ذكر بعض أهل الأدب والكلام: أن البلاغة على عشرة أوجه»[٣]. وهذا البعض الذي لم يرد أن يصرح به هو: معاصره أبو الحسن الرماني (٣٨٤هـ)، والذي نقل عنه المؤلف هذا الفصل الطويل.

● موقف الباقلاني من ابن المقفّع:

قال بأنه لا يوجد كتاب لابن المقفع يدّعي مدع أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة، ثم مزق ما جمع، واستحيا لنفسه من

(١) إعجاز القرآن ص١٢٦.
(٢) المصدر المتقدم ص٦.
(٣) المصدر المتقدم ص٢٦٢.

kolasa-borhan

إظهاره. فإن كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد، ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء ثم يلوح له رشده، ويتبين له أمره، وينكشف له عجزه. ولو كان بقي على اشتباه الحال عليه، لم يخف علينا موضع غفلته، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته. ومتى أمكن أن تدعي الفرس في شيء من كتبها أنه معجز في حسن تأليفه، وعجيب نظمه؟[١] **.وهذا جواب منه حسن**.

● موقف الباقلاني من النظّام:

زعم النظام وهو من أئمة المعتزلة في العصر العباسي أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وكان مقدوراً لهم، وقد أنكر هذا القول جمهرة علماء اللغة والدين، وتولوا الرد عليه[٢]. **وكان الباقلاني ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ممن تصدى له.**

(١) المصدر المتقدم ص٣٢.
(٢) المصدر المتقدم ص٦٥.

kolasa-borhan

المبحث الرابع
إعجاز القرآن عند الباقلاني في كتبه الأخرى

لم يقتصر الإمام الباقلاني على كلامه عن مسائل إعجاز القرآن في كتابه: (إعجاز القرآن) بل قد تناول تلك المسائل في كتبه الأخرى عند مناسبتها، ولعل من أعظم وأكثر المواضع ما حصل منه في كتابه: «هداية المسترشدين».

وهذه لمحة سريعة عن كتابه: «**هداية المسترشدين والمقنع في معرفة أصول الدين**» تُبين ذلك:

يقول عنه القاضي عياض: الهداية. كتاب كبير[(١)]. وأشار إليه أبو المظفر الإسفراييني في التبصير[(٢)].

وقد بقي منه مجلد واحد فقط من الجزء السادس إلى الجزء السابع عشر بتجزئة المؤلف وهو محفوظ في مكتبة الأزهر الشريف في (٢٤٨) ورقة، ناسخه محمد بن عبدالله العدوي، بمدينة صور عام (٤٥٩هـ). وللأسف كثير من أوراقه تالفة، وخاصة من (٨٦ ـ ١٠٥) وكأنها أوراق مفقودة[(٣)].

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٤٨٩/١.
(٢) التبصير ص١١٩.
(٣) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ص١٢٣.

kolasa-borhan

وهذا المجلد الباقي يشتمل على أحد عشر جزءاً من تجزئة المؤلف، تبتدئ بأول الجزء السادس، وتنتهي بانتهاء الجزء السابع عشر. وهذه الأجزاء مقصورة على القول في النبوات، خصص (١٥٦) ورقة منها لإعجاز القرآن (٦١ ـ ٢١٧). وجاء أكبر حجماً وأغزر مادة من كتابه «إعجاز القرآن».

ومن المسائل التي عنون بها ما يلي:

١ ـ أوله **الجزء السادس** يبدأ من الورقة (٣) أولها: «فصل: ومما يوضح أصالة تأخر المعجز عن دعوى النبوة...».

٢ ـ **الجزء السابع** يبدأ من الورقة (٢٣): «السابع من كتاب النبوات... واستدلوا أيضاً على إبطال دلالة المعجز...». وفي الورقة (٣٠) يقول: «فصل في ذكر جملة من الحيل ووجهها...».

٣ ـ **الجزء الثامن** يبدأ من الورقة (٤٥)، وأوله: «بسم الله الرحمٰن الرحيم باب الكلام في الإبانة عن بطلان دلالة المعجز على صدق الرسل عليهم السلام على أصول القدرية».

- في الورقة (٦٢) يقول: «باب الكلام في ذكر الدلالة على إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ».

- ثم في ورقة (٦٣) بدأ بذكر: فصول التحدي به...

٤ ـ **الجزء التاسع** يبدأ من الورقة (٦٧)، وأوله: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، ومن نصوص التحدي بمثله قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣].

- في الورقة (٧٢) يعقد باباً عنوانه: «القول في ذكر الدليل على أنه عليه السلام لم يُعَارض في القرآن، ونقض كل شبهة تُدَّعى في هذا الباب».

١١ ـ **الجزء العاشر** يبدأ من الورقة (٧٦)، وأوله: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، باب الكلام على من زعم أن المعارضة لم تقع منهم مع القدرة عليها».

kolasa-borhan

١٢ ـ **الجزء الحادي عشر** يبدأ من الورقة (١٠٥)، وأوله: «فإن قال قائل: فإذا علمتم ضرورة بخبر أهل التواتر ومن البلغاء والفصحاء تجاوز بلاغة القرآن لسائر البلاغات، وجب أن تكونوا عالمين نبوة النبي ﷺ، وكون القرآن معجزاً له...».

١٣ ـ **الجزء الثاني عشر** يبدأ من الورقة (١٢٧).

- جاء في الورقة (١٣٧) فصل يقول فيه: «ومما يدل على أن التحدي إنما وقع بطلب النظم المشتمل على البلاغة دون نفس الألفاظ البليغة الفصيحة، علمنا بأن الشاعر والخطيب إذا تحدثا بمثل الشعر والخطابة، فليس يتحدثان بنفس الألفاظ الفصيحة حتى لو أتى بها المتحدي مفردات وغير منظومة نظم الشعر والخطابة، لم يعدوه معارضاً للشاعر والخطيب من حيث لم يأت بالألفاظ الشريفة البليغة بوزن الشعر وطريقة الخطابة، وإنما يكون معارضاً إذا أتى بالبلاغة شعراً أو خطابة».

- في الورقة (١٤٢): «باب الكلام على من قال أن جهة إعجاز القرآن ما تضمنه ودل عليه من صحة المعاني والأحكام التي إذا أعمل النظر فيها صحت وسلمت كلها على السبر والامتحان».

١٤ ـ **الجزء الثالث عشر** يبدأ من الورقة (١٤٣): وفيه «الكلام عن إعجاز القرآن من حيث تضمنه الإخبار عن الغيوب».

- وفي الورقة (١٥٦) يعقد فصلاً بعنوان: «ومما يدل على أن جهة الإعجاز في القرآن ما هو عليه من بديع نظمه وتجاوز بلاغته لقدر بلاغة أهل اللسان»...

١٥ ـ **الجزء الرابع عشر** يبدأ من الورقة (١٦٧): ويتحدث فيه عن التحدي فيقول: «بسم الله الرحمٰن الرحيم فإن قال قائل إذا كان الله تعالى ورسوله إنما تحديا العرب بأن تأتي بمثله مجتمعين ومتفرقين، ولم يلزما كل واحد منهم أن يأتي وحده بمثل جميعه، ولذلك قال: ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا...وجب لذلك خروج القرآن عن كونه

معجزة لأجل أن كل واحد منهم يقدر على الكلمة والآية والآيتين... إلى آخر الفصل.

١٦ ـ **الجزء الخامس عشر** يبدأ من الورقة (١٨٧): وموضوعه تفاوت الناس في قدر البلاغة.

- في الورقة (١٩٣) يذكر جملة من وجوه البلاغة؛ كالإيجاز والمساواة التي تسمى عندهم مزاوجة.
- في الورقة (٢٠٢) يتحدث عن الأسجاع فيقرر: «أنها واسعة متباينة كثيرة، ولذا ليست من نظم القرآن في شيء».

١٧ ـ **الجزء السادس عشر** يبدأ من الورقة (٢٠٧) وفيه يتكلم عن مفارقة نظم القرآن لنظم الشعر وسائر النظوم المعتادة. وفي ورقة (٢١٨) يبدأ الكلام على «باب الكلام في إثبات ما عدا القرآن من معجزات الرسول ﷺ». ويختمه بـ«ومن معجزاته ﷺ تسبيح الحصى في يده».

١٨ ـ **الجزء السابع عشر** والأخير من المخطوط ويبدأ من الورقة (٢٢٩) وأوله: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، ومن معجزاته انقضاض الكواكب وخبر المعراج... وكلام الذئب... وإطعامه الخلق الكثير من الطعام القليل... وإخباره عن مصارع أهل جيش مؤتة...» إلخ[(١)].

ملاحظة: كل جزء من المخطوط يستغرق (٢٢) ورقة تقريباً.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) وللاستزادة انظر: مقدمة السيد أحمد صقر ص٣٨ ـ ٣٩. والباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ص١٢٣ ـ ١٢٧ وقد طالعت المخطوط كاملاً من الجزء السادس حتى منتصف السادس عشر. والذي يخص إعجاز القرآن من ورقة ٦٢/أ ـ حتى ٢١٨/أ.

kolasa-borhan

المبحث الخامس
العلاقة بين الإعجاز
والمذهب الأشعري عند الباقلاني

المطلب الأول
تأثر مسائل الإعجاز
بمذهب الأشاعرة عند الباقلاني

بما أن الإمام الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ أحد العلماء الأفذاذ، ومعدود في أئمة مذهب الأشاعرة ـ غفر الله له ـ فإن لذلك تأثيراً ولا بد على طرحه للمسائل العلمية وتقريرها، إذ لا بد أن يكون لأصول الأشاعرة ومعتقدهم أثر في تقريره مسائل الإعجاز، لا سيما وقد قررنا أن مسائل الإعجاز ذات طابع اعتقادي لتعلقها بأمر النبوات وإثباتها، ولإقامة الحجة بها على من خالف دين الإسلام.

ويمكن الإشارة إلى المسائل التي بان فيها أثر المذهب الأشعري عند الباقلاني بالمسائل التالية:

١. **أن نبوة نبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ بنيت على هذه المعجزة.**

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة

kolasa-borhan

نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة»[(١)].

٢. هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟

قال رحمه الله: «إن قيل: هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟

قيل: لا بد من ذلك، لانا إن لم نعلم أن النبي ﷺ هو الذي أتى بالقرآن، وظهر ذلك من جهته ـ لم يمكن أن نستدل به على نبوته. وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة، فأتى بها بلداً، وادعى ظهورها عليه، وأنها معجزة له ـ لم تقم الحجة عليهم حتى يبحثوا ويتبينوا أنها ظهرت عليه. وقد تحققنا أن القرآن أتى به النبي ﷺ، وظهر من جهته، وجعله علماً على نبوته، وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا»[(٢)].

وقال: «وأما من كان من أهل صنعة العربية، والتقدم في البلاغة، ومعرفة فنون القول، ووجوه المنطق فإنه يعرف ـ حين يسمعه ـ عجزه عن الإتيان بمثله، ويعرف أيضاً أهل عصره ـ ممن هو في طبقته أو يدانيه في صناعته ـ عجزهم عنه، فلا يحتاج إلى التحدي حتى يعلم به كونه معجزاً. ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بينا لا يعرفون كونه معجزاً حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه ـ لم يجز أن يعرف النبي ﷺ، أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي إليه، وإذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي إلى التحدي إلى أقصاهم، وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه، ثم يعرف حينئذ كونه معجزاً.

وهذا القول ـ إن قيل ـ أفحش ما يكون من الخطأ!! فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة في معرفة إعجاز القرآن بأنفسهم منزلة من رأى اليد

(١) إعجاز القرآن ص٨.

(٢) المصدر المتقدم ص٢٩٨.

البيضاء وفلق البحر، بأن ذلك معجز. وأما من لم يكن من أهل الصنعة، فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة، يعرف بها كونه معجزاً، فيساوى حينئذ أهل الصنعة، فيكون استدلالها في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه على سواء، إذا ادعاه ـ دلالة على نبوته وبرهاناً على صدقه. فأما من قدر أن القرآن لا يصير معجزاً إلا بالتحدي إليه، فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى، عليهما السلام، ليست بآيات حتى التحدي إليها والحض عليها، ثم يقع العجز عنها، فيعلم حينئذ أنها معجزات»[(١)].

٣. أن ظهور ذلك عن النبي ﷺ، يُعلم ضرورة:

وقال: «فصل في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة؟

ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري إلى أن ظهور ذلك عن النبي ﷺ، يعلم ضرورة، وكونه معجزاً يعلم باستدلال. وهذا المذهب محكي عن المخالفين.

والذي نقوله في هذا: إن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالاً، وكذلك من لم يكن بليغاً.

فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة ـ فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه، كما أنه إذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك، فهو يعلم عجز غيره استدلالاً»[(٢)].

٤. فيما يتعلق الإعجاز به من القرآن؟

عقد رحمه الله بعد السؤال السابق الفصل التالي: «فصل فيما يتعلق به الإعجاز... أهو الحروف المنظومة؟ أو الكلام القائم بالذات؟ أو غير

(١) إعجاز القرآن ص٢٥٢.

(٢) المصدر المتقدم ص٢٥٩.

ذلك؟...» إلخ[(١)].

وكذلك ختم كلامه في الفصل الثالث: (وجوه بديع نظم القرآن) بالإجابة على سؤال هام أورده[(٢)]، وهو: «فإنه قيل: فهل تزعمون أنه معجز؛ لأنه حكاية لكلام الله القديم سبحانه، أو لأنه عبارة عنه، أو لأنه قديم في نفسه؟»[(٣)].

وللأسف لم يخرج من هذه الأسئلة بجواب!!

وهذه بناء على مذهبه الأشعري، وكفى بعدم جوابه دليلاً على فساد تلك المسائل، وأنها لم تُبن في المذهب الأشعري على دليل شرعي صحيح، ولا دليل منطقي مستقيم، بل على وهم.

فلسنا بحاجة إلى الأسئلة:

١ ـ هل تزعمون أنه معجز لأنه حكاية لكلام الله؟

٢ ـ أهو الحروف المنظومة؟

لأن هذا غير متأتٍ على مذهب أهل السنة والجماعة؛ لأنهم يثبتون الكلام لله تعالى على وجه يليق بجلاله وعظمته فلا يكيفون كلامه ولا يتأولونه. بل يقولون فيه كما يقولون في الذات وسائر الصفات.

فالقرآن معجز لأنه كلام الله تعالى على وجه الحقيقة لا المجاز.

وقد جعل الله فيه خصائص تُثْبِت أنه الحق ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]... إلخ.

(١) المصدر المتقدم ص٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) المصدر المتقدم ص٧١.

(٣) المصدر المتقدم ص٤٧.

kolasa-borhan

ولسنا بحاجة إلى السؤال ولا التقرير الذي ذهب إليه بقوله:

١. أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة.

٢. هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟

٣. هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة؟

٤. أن ظهور ذلك عن النبي ﷺ، يُعلم ضرورة.

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
الجواب عن هذه المسائل

١ ـ أن نبوة نبينا عليه السلام بُنِيَتْ على هذه المعجزة:

وهذا عند القول به يستلزم المسائل الأخرى:

- هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟
- وأنَّ ظهور ذلك عن النبي ﷺ، يعلم ضرورة.
- وهل يعلم إعجاز القرآن ضرورة؟

فإثباتها هو الذي حدا به لهذه المسائل، ونقضها نقض لها، وإليك الجواب عنها:

أ ـ طريقة الأشاعرة في تقرير ذلك:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «هذه الطريقة هي من أتم الطرق عند أهل الكلام والنظر؛ حيث يقررون نبوة الأنبياء بالمعجزات!! ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لتقرير نبوة الأنبياء، لكن كثير من هؤلاء بل كل من بنى إيمانه عليها يظن أنا لا نعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، ثم لهم في تقرير دلالة المعجزة على الصدق طرق متنوعة وفي بعضها من التنازع

والاضطراب ما سننبه عليه، والتزم كثير من هؤلاء إنكار خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك».

إلى أن قال: «ومنهم من يجعل المعجزة دليلاً، ويجعل أدلة أخرى غير المعجزة وهذا أصح الطرق، ومن لم يجعل دليلها إلا المعجزة اضطر لهذه الأمور التي فيها تكذيب لحق أو تصديق لباطل.

ولهذا كان السلف والأئمة يذمون الكلام المبتدع، فإن أصحابه يخطئون إما في مسائلهم وإما في دلائلهم، فكثيراً ما يثبتون دين المسلمين في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله على أصولٍ ضعيفة بل فاسدة، ويلتزمون لذلك لوازم يخالفون بها السمع الصحيح والعقل الصريح، وهذا حال الجهمية من المعتزلة وغيرهم». اهـ[(١)].

وقال أيضاً: «وأما الرابع ـ أي من شروط النبوة عندهم ـ: وهو أن يكون عند تحدي الرسول فيه، يحترزون عن الكرامات[(٢)]. وهو شرطٌ باطلٌ»[(٣)].

ب ـ سبب الغلط عند المعتزلة والأشاعرة في دليل النبوة:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «وهؤلاء وهؤلاء جعلوا مجرّد كونه خارقاً للعادة هو الوصف المعتبر. وفرقٌ بين أن يقال: لا بدّ أن يكون خارقاً للعادة، وبين أن يقال: كونه خارقاً للعادة هو المؤثّر؛ فإنّ الأول يجعله شرطاً لا موجباً، والثاني يجعله موجباً.

وفرقٌ بين أن يقال: العلم، والبيان، وقراءة القرآن، لا يكون إلَّا من حيّ، وبين أن يقال: كونه حيّاً يُوجب أن يكون عالماً قارئاً.

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص٨٨.

(٢) انظر: الفرق بين المعجزات والكرامات عند الأشاعرة في البيان للباقلاني ص٤٨. والإرشاد للجويني ص٣١٧، ٣١٩ ـ ٣٢٠، ٣٢٢ ـ ٣٢٣. وأصول الدين للبغدادي ص١٧٤.

(٣) النبوات ٦٠٢/٣.

kolasa-borhan

ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء. فليس في الكتاب والسنة لفظ (المعجزة) و(خرق العادة)، وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف، بل ولا ذكر خرق العادة، ولا لفظ المعجز. وإنّما فيه آيات وبراهين، وذلك يوجب اختصاصها بالأنبياء». اهـ[(١)].

ج ـ تعريف الدليل:

قال شيخ الإسلام: «آيات الأنبياء وإن لم يتحدوا بها فهي دلائل على النبوة، بل آيات الأنبياء آيات، **وإن لم ينطقوا بالتحدي بالمثل. وهي دلائل على النبوّة**، وصدق المخبِر بها.

والدليل مغايرٌ للمدلول عليه، ليس المدلول عليه جزءاً من الدليل. لكن إذا قالوا: الدليل هو دعاء الرسول، لزمه أن يريهم آية، وخلق تلك الآية عقب سؤاله. وإن كان ذلك قد يخلقه بغير سؤاله لحكمة أخرى. فهذا متوجّه.

فالدليل هو: مجموع طلب العلامة، مع فعل ما جعله علامة.

كما أنّ العباد إذا دعوا الله فأجابهم، كان ما فعله إجابةً لدعائهم، ودليلاً على أنّ الله سمع دعاءهم وأجابهم؛ كما أنّهم إذا استسقوه فسقاهم، واستنصروه فنصرهم، وإن كان قد يفعل ذلك بلا دعاء، فلا يكون هناك دليلٌ على إجابة دعاء. فهو دليلٌ على إجابة الدعاء إذا وقع عقب الدعاء، ولا يكون دليلاً إذا وقع على غير هذا الوجه.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الألفاظ إذا سمّيت بها آيات الأنبياء كانت أدلّ على المقصود من لفظ المعجزات. ولهذا لم يكن لفظ (المعجزات) موجوداً في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ (الآية)، و(البينة)، و(البرهان)؛ كما قال تعالى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢] في العصا، واليد. وقال تعالى في حق محمد ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]». ثمّ ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ الآيات القرآنية الدالّة على أنّ الآيات النبوية تُسمّى براهين، ثمّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن». ثمّ استشهد بآيات كثيرة، منها قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]. وانظر الجواب الصحيح ٥/٤١٢ ـ ٤١٩ وما بعدها. وقاعدة في المعجزات والكرامات لشيخ الإسلام ص٧.

وكذلك الرسول: إذا قال لمرسله: أعطني علامة. فأعطاه ما شرّفه به، كان دليلاً على رسالته، وإن كان قد يفعل ذلك لحكمة أخرى. لكن فعل ذلك عقب سؤاله، آية لنبوته هو الذي يختص به.

وكذلك إذا علم أنه فعله إكراماً له، مع دعواه النبوة، علم أنّه قد أكرمه بما يكرم به الصادقين عليه، فعلم أنّه صادق؛ لأنّ ما فعله به مختص بالصادقين الأبرار، دون الكاذبين عليه الفجّار»[(١)].

د ـ كرامات الأولياء من آيات الأنبياء:

قال شيخ الإسلام: «وعلى هذا فكرامات الأولياء هي من آيات الأنبياء[(٢)]؛ فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة، وكلّ ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم، فهو دليلٌ على صدق هذه الشهادة؛ سواءٌ كان الشاهد بنبوّتهم المخبِر بها هم، أو غيرهم. بل غيرهم إذا أخبر بنبوتهم، وأظهر الله على يديه ما يدلّ على صدق هذا الخبر، كان أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم.

ليس من شرط دلائل النبوة اقترانها بدعوى النبوة أو التحدي بها، فقد تبيّن أنّه ليس من شرط دلائل النبوة؛ لا اقترانه بدعوى النبوة، ولا الاحتجاج به، ولا التحدي بالمثل[(٣)]، ولا تقريع من يخالفه. بل كلّ هذه الأمور قد تقع في بعض الآيات، لكن لا يجب أنّ ما لا يقع معه لا يكون آية، **بل هذا إبطالٌ لأكثر آيات الأنبياء؛ لخلوها عن هذا الشرط**»[(٤)].

---

(١) النبوات ٣/٦٠٣.

(٢) انظر: النبوات ٣/٥٨٠ ـ ٦٥٥.

(٣) كما يقوله أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة. انظر: المغني لعبدالجبار الهمداني ١٥/١٩٩، ٢١٥. وشرح الأصول الخمسة له ص٥٦٩ ـ ٥٧١. والبيان للباقلاني ص٤٥ ـ ٤٨. والإرشاد للجويني ٣١٢، ٣٢٤، والمواقف للإيجي ٣/٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٤) النبوات ٣/٦٠٤.

kolasa-borhan

هـ ـ الدليل يستلزم وجود المدلول:

قال شيخ الإسلام: «ثمّ هو شرطٌ بلا حجة؛ فإنّ الدليل على المدلول عليه؛ هو: ما استلزم وجوده. وهذا لا يكون إلا عند عدم المعارض المساوي، أو الراجح. وما كان كذلك، فهو دليلٌ؛ سواءٌ قال المستدلّ به: ائتوا بمثله، وأنتم لا تقدرون على الإتيان بمثله، وقرعهم وعجزهم. أو لم يقل ذلك.

فهو إذا كان في نفسه مما لا يقدرون على الإتيان بمثله؛ سواءٌ ذكر المستدلّ هذا، أو لم يذكره؛ لا بذكره يصير دليلاً، ولا بعدم ذكره تنتفي دلالته.

وهؤلاء قالوا: لا يكون دليلاً إلا إذا ذكره المستدل. وهذا باطلٌ.

وكذلك الدليل، هو دليلٌ؛ سواءٌ استدلّ به مستدلّ، أو لم يستدلّ. وهؤلاء قالوا: لا يكون دليل النبوة دليلاً، إلا إذا استدلّ به النبيّ حين ادّعى النبوة؛ فجعل نفس دعواه، واستدلاله، والمطالبة بالمعارضة، وتقريعهم بالعجز عنها؛ كلها جزءاً من الدليل.

وهذا غلطٌ عظيمٌ. بل السكوت عن هذه الأمور أبلغ في الدلالة، والنطق بها لا يُقوِّي الدليل. والله تعالى لم يقُل: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤]. إلَّا حين قالوا: افتراه؛ لم يجعل هذا القول شرطاً في الدليل، بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل». اهـ[(١)].

٢ ـ أنَّ التحدّي شرط من شروط المعجزة:

وهذا شرط كسابقه: أن شرط النبوة هو دعوى المعجزة. إذ ليس له دليل شرعي، وإنما مبناه على العقل، ولذا فقد ردّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على اشتراط المتكلمين لهذا الشرط؛ فقال: «وآيات النبوة وبراهينها تكون في حياة الرسول، وقبل مولده، وبعد مماته، لا تختصّ بحياته، فضلاً عن أن

(١) المصدر السابق ٣/٦٠٥.

kolasa-borhan

تختصّ بحال دعوى النبوة، أو حال التحدّي؛ كما ظنّه بعض أهل الكلام». اهـ[١].

وقد ردّ ابن حزم أيضاً على من اشترط هذا الشرط؛ فقال: «ومن ادّعى أنّ إحالة الطبيعة لا تكون آية إلا حتى يتحدى فيها النبيّ ﷺ النّاس، فقد كذب، وادّعى ما لا دليل عليه أصلاً؛ لا من عقل، ولا من نص قرآن ولا سنّة.

وما كان هكذا فهو باطلٌ، ويجب من هذا أنّ حنين الجذع[٢]، وإطعام النفر الكثير من الطعام اليسير حتى شبعوا، وهم مئون من صاع شعير[٣]، ونبعان الماء من بين أصابع رسول الله ﷺ[٤]، وإرواء ألف وأربعمائة من قدح صغير تضيق سعته عن الشبر[٥]، ليس شيء من ذلك آية له عليه السلام؛

(١) انظر: الجواب الصحيح ٦/٣٨٠، ٤٠٨، ٤٩٦.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجمعة باب الخطبة على المنبر (٩١٨)، وكتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام. من حديث ابن عمر وجابر رضي الله عنهما (٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٥). وحديث حنين الجذع متواتر مفيد للقطع. وانظر تحفة الطالب لابن كثير ١٨٤ وفتح الباري ٢/٤٠٠.

(٣) يشير إلى حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: (أطعم رسول الله ﷺ يوم الخندق من صاع شعير وعناق ـ الأنثى من أولاد المعز ـ ألف رجل حتى تركوا وانحرفوا ـ مالوا عن الطعام ـ، وأن البرمة لتغط كما هي وأن العجين ليخبز) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب من تكلم بالفارسية والرطانة (٢٩٠٥) وفي كتاب المغازي باب غزوة الخندق (٣٨٧٥ ـ ٣٨٧٧)، ومسلم في الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ذلك (٢٠٣٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الطهارة باب الوضوء من التور (٢٠٠) وكتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٧٩). ومسلم كتاب الفضائل باب في معجزات النبي ﷺ (٦٠٨٠ ـ ٦٠٨١ ـ ٦٠٨٢).

(٥) يشير إلى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضؤوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم). أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة (١٦٧) وانظر (١٩٢، ١٩٧، ٣٣٧٩ ـ ٣٣٨٢)، ومسلم كتاب الفضائل باب في معجزات النبي ﷺ (٢٢٧٩). =

kolasa-borhan

لأنّه عليه السلام لم يتحدّ بشيء من ذلك أحداً». اهـ[١].

٣ ـ أنَّ الطريق إلى معرفة النبوة هو المعجزة:

وهذا عند القول به يستلزم المسائل السابقة:

- أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة.
- هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟
- هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة؟
- أن ظهور ذلك عن النبي ﷺ، يُعلم ضرورة.

وإليك بيان أصلها والجواب عنها:

أصل المسألة هو: أنَّ «نبوة الأنبياء أو رسالة الرسل بم تَحْصُل؟ وكيف يُعْرَفُ صدقهم؟ وما الفرق ما بين النبي والرسول وبين عامة الناس، أو من يَدَّعِي أَنَّهُ نبي أو رسول، أو من يأتي بالأخبار المغيبة، أو يجري على يديه شيء من الخوارق؟

والجواب عن ذلك: أنَّ المتكلمين في العقائد نظروا في هذا على جهات من النظر.

أ ـ طريقة إثبات نبوة الأنبياء وإرسال الرسل للناس فيه مذاهب[٢]:

● **المذهب الأول:** أنَّ الرسل والأنبياء لديهم استعدادات نفسية راجعة

= وحديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة ـ أي أناء صغير من جلد ـ يتوضأ فجهش الناس نحوه ـ أي تجمعوا ـ قال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٨٣) وانظر (٣٩٢١ ـ ٣٩٢٣، ٤٥٦٠، ٥٣١٦).

(١) المحلى لابن حزم ١٣٦. وانظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل له ٥٢/٦. وستأتي بقية الآيات في ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٢) بدأت بقول المخالفين، ثمَّ بينت قول السلف - أهل السنة والجماعة في هذه المسألة العظيمة ليتضح الفرق في الاستدلال.

إلى القوى الثلاث والصفات الثلاث؛ وهي: السمع والبصر والقلب، فإنه يكون عنده قوة في سمعه، فيسمع الكلام؛ كلام الملأ الأعلى، وعنده قوة في قلبه، فيكون عنده تخيلات أو يتصور ما هو غير مرئي، وعنده بصر أيضاً قوي يبصر ما لا يبصره غيره.

وهذه طريقة باطلة، وهي طريقة الفلاسفة الذين يجعلون النبوة من جهة الاستعدادات البشرية، لا من جهة أنها وحي وإكرام واصطفاء من الله جل جلاله[(١)].

● **المذهب الثاني**: قول من يقول إنَّ النبوة والرسالة طريق إثباتها والدليل عليها هو المعجزات.

وهذا قول المعتزلة والأشاعرة وطوائف من المتكلمين، وتبعهم ابن حزم وجماعة، وجعلوا الفرق ما بين النبي وغيره هو أنَّ النبي يجري على يديه خوارق العادات.

فمنهم من التزم ـ وهم المعتزلة وابن حزم ـ في أنَّه ما دام الفرق هو خوارق العادات وهي المعجزات فإذاً لا يُثْبَتُ خارقٌ لغير نبي.

فأنكروا السحر والكهانة، وأنكروا كرامات الأولياء، وأنكروا ما يجري من الخوارق؛ لأجل أن لا يلتبس هذا بهذا، وجعلوا ذلك مجرد تخييل في كل أحواله[(٢)].

(١) انظر: المضنون به على غير أهله ـ ضمن القصور العوالي ـ ١٤٣/٢، ١٤٩ ـ ١٥٠. وانظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس ١٥١؛ حيث سلك فيه طريقة الفلاسفة في النبوة، وأنّها ثلاث: قوة التخييل، وقوة العقل، وقوة النفس. وفي الصفدية لشيخ الإسلام ٢٣٠/١، نقل عن الغزالي: «أنّه قد يسمع نفس الخطاب الذي سمعه موسى». وانظر: سير أعلام النبلاء ٣٣٣/١٩ ـ ٣٣٤.

(٢) انظر شرح المقاصد في علم الكلام ١٧٩/٢.

kolasa-borhan

وأما الأشاعرة فجعلوا المسألة مختلفة ففرقوا بين المعجزات والكرامات وسائر الخوارق[(١)].

● **المذهب الثالث**: هو مذهب أهل السنة والجماعة والسلف الصالح فيما قرره أئمتهم، وهو: أنَّ النبوة والرسالة دليلها وبرهانها متنوع، ولا يُحصرُ القول بأنها من جهة المعجزات الحسية التي تُرى أو تجري على يدي النبي والولي[(٢)].

ب ـ من الأدلة والبراهين لإثبات النبوة والرسالة:

* **أولاً**: الآيات والبراهين.

* **ثانياً**: ما يجري من أحوال النبي في: خَبَرِهِ، وأمره، ونهيه، وقوله، وفعله؛ مما يكون دالاً على صدقه بالقطع.

* **ثالثاً**: أنَّ الله ﷻ ينصر أنبياءه وأولياءه ويمكِّن لهم، ويخذل مدعي النبوة ويُبيد أولئك ولا يجعل لهم انتشاراً كبيراً.

وهذه ثلاثة أصول:

● **الأول من الأدلة والبراهين**: فمعناه أنَّ من قَرَّرَ نبوة الأنبياء عن طريق المعجزات، فإننا نوافقهم على ذلك؛ لكنَّ أهل السنة لا يجعلونه دليلاً

(١) انظر: البيان للباقلاني ٤٨، ٩١، ٩٤ ـ ٩٦، ١٠٠، والإرشاد للجويني ٣١٩، ٣٢٨، وأصول الدين للبغدادي ١٧٤، والمواقف في علم الكلام للإيجي ٣٧٠، وشرح المقاصد للتفتازاني ٧٤/٥، وطبقات الشافعية للسبكي ٣١٧/٢، واليواقيت والجواهر لعبدالوهاب الشعراني ١٦١/١، وتفسير الرازي ٩٢/١٧،والأربعين للرازي ١٢٢ ـ ١٢٥، وتفسير النيسابوري ٥٩٠/٣، ودرء تعارض العقل والنقل ٣٣٠/٥ ـ ٣٣١، ٢٤٢/٧، ٣٣٣/٩ ـ ٣٣٤.

(٢) انظر بعض الفروق كما أوضحها شيخ الإسلام رحمه الله في: شرح الأصفهانية ٢٤٧٢ ـ ٤٧٧. وجملة من الفروق بين النبيّ، والمتنبئ في النبوات: ٢٦٣ ـ ٢٧٤، ٥٨٥ ـ ٦٤٢، ٦٧١ ـ ٦٧٤، ٧٢٨ ـ ٧٢٩. الجواب الصحيح ٦٤٠٠ ـ ٤٠١، ومفتاح دار السعادة ١١٥/٢، والصواعق المرسلة ١٤٣٧/٤ ـ ١٤٣٨.

kolasa-borhan

واحداً، لا يجعلونه دليلاً فرداً؛ بل يجعلونه من ضمن الدلائل على النبوة.

وهذا الدليل وهو دليل المُعْجِزَات ـ كما يُسَمَّى ـ يُعَبِّرْ عنه أهل السنة بقولهم الآيات والبراهين(١).

والآية والبرهان التي يؤتاها الرسول والنبي للدِّلالة على صدقه تكون معجزة للجن والإنس جميعاً. فما آتاه الله ﷻ محمداً ﷺ يكون مُعْجِزَاً للجن والإنس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

والفرق بين الآية والبرهان الدال على صدق النبي وما يؤتاه أهل الخوارق: أنَّه معجز لعامة الجن والإنس(٢)، فهو دليل الرسالة والنبوة.

فهذه الآيات والبراهين التي آتاها الله ﷻ محمداً ﷺ أنواع:

❖ **النوع الأول:** القرآن وهو حجة الله ﷻ وآيته العظيمة على هذه

(١) وذلك لأنَّ لفظ (المُعْجِزْ) لم يرد في الكتاب ولا في السنة، لفظ (المُعْجِزَة) وإنما جاء في النصوص الآية والبرهان ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء]. ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢]. وقال: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢]، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، ونحو ذلك من الآيات التي تدل على أنَّ ما يؤتاه الأنبياء والرسل إنما هو آيات وبراهين. وبعض أهل العلم جعل لفظ المُعْجِزْ نتيجة في أنَّ آية النبي وبرهان النبوة مُعْجِزْ، لكن لفظ الإعجاز فيه إجمال. وذلك لأنه مُعْجِزٌ لمن؟ فيه إجمال وفيه إبهام؟؟!!

فإذا قلنا مُعْجِزْ لبني جنسه فهذا حال، مُعْجِزْ لبني آدم فهذا حال، معجز للجن والإنس فهذا حال، معجز لكافة الورى فهذا حال.

ولهذا جعل المعتزلة والأشاعرة في الخلاف ما بينهم في المعجزات جاءت من هذه الجهة: أَنَّ لفظ معجز اختلفوا فيه، معجز لمن؟ وعدل أهل السنة والجماعة عن لفظ الإعجاز إلى لفظ الآية والبرهان. وانظر شرح الطحاوية للشيخ: صالح آل الشيخ.

(٢) أما إعجاز بعض الإنس دون بعض، أو الإنس دون الجن، فهذا هو الذي يدخل في الخوارق ويدخل في أنواع ما يحصل على أيدي السحرة والكهنة وما أشبه ذلك.

الأمة، فتَحَدَّى الله ﷻ به الجن والإنس، ولم يستطيعوا ذلك مع أنهم متميزون في الفصاحة والبلاغة وأشباه ذلك. فالآية والدليل الأول هو القرآن العظيم وهو الحجة الباقية[١].

❖ **النوع الثاني**: آيات وبراهين سمعية[٢]، ومن ذلك: تسبيح الحصى[٣]، وتسبيح الطعام على عهده كما روى ابن مسعود ﷺ قال: (كنا نسمع تسبيح الطعام ونحن نأكل مع رسول الله)[٤].

❖ **النوع الثالث**: آيات وبراهين بصرية[٥]؛ فهي آية وبرهان على عجز الثقلين عن ذلك، مثل نبع الماء ما بين أصابعه[٦]، ومثل حركة الجمادات[٧]، وأشباه ذلك.

---

(١) قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت]. وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**» صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي (٤٩٨١) وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم (٧٢٧٤)، ومسلم كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٢).

(٢) يعني تكون دالة من جهة ما يُسمع.

(٣) من حديث أبي ذر قال: (كنا جلوساً مع النبي ﷺ فأخذ حصيات في كفه فسبحن، ثم وضعهن في الأرض فسكتن، ثم أخذهن فسبحن). أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٩٩/٨، والأصبهاني في الدلائل ٤٣٢، وقال الحافظ في الفتح ٤٠٤/٧: «وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها».

(٤) أخرجه البخاري: كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩).

(٥) راجعة إلى البصر وهو ما يُبْصَر من أشياء لا تحصل لغيره.

(٦) سبق تخريجه ص٢٣٧.

(٧) منها أن الله قاد له الشجر؛ عن جابر ﷺ قال: (سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به فإذا شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «**انقادي عليَّ بإذن الله**». فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من =

أغصانها فقال: «**انقادي عليَّ بإذن الله**». فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما ـ يعني جمعهما ـ فقال: «**التئما عليَّ بإذن الله**». فالتأمتا قال جابر فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد ـ وقال محمد بن عباد: فيتبعد ـ فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق) الحديث، أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل (٧٧٠٥).

ومنها أن الله تعالى سخر الشجرة لنبينا ﷺ حتى جعلها آية لنبوته، وشهدت له الشجرة بالنّبوّة في بعض الرواية. عن أنس بن مالك قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وهو خارج من مكة قد خضبه أهل مكة بالدماء - فقال: مالك؟ قال: خضبني هؤلاء بالدماء، وفعلوا وفعلوا، قال: تريد أن أريك آية؟ قال: نعم، قال: ادع تلك الشجرة، فدعاها رسول الله ﷺ، فجاءت تخط الأرض حتى قامت بين يديه، قال: مرها فلترجع، قال: فارجعي إلى مكانك فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: «**حسبي**». أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١٥٤/٢، باب مبتدأ البعث والتنزيل، وما ظهر عند ذلك من تسليم الحجر والشجر، وتصديق ورقة ابن نوفل إياه. والدارميّ في السنن ١٢/١ ـ ١٣ باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ، والمواهب اللدنية ٥٣٩/٢، ومسند أحمد ٥٥٥/٣ ـ ٥٥٦، حديث (١١٧٠٢).

وعن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ إلى شعاب مكة ـ وقد دخله من الغم ما شاء الله من تكذيب قومه إياه ـ فقال: رب أرني ما أطمئن إليه ويذهب عني هذا الغم، فأوحى الله إليه: أدع أي أغصان هذه الشجرة شئت، فدعى غصناً فانتزع من مكانه، ثم خدّ في الأرض حتى جاء رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: ارجع إلى مكانك، فرجع الغصن فخدّ في الأرض حتى استوى كما كان، فحمد رسول الله ﷺ وطابت نفسه ورجع. دلائل: ١٤/٦. قال البيهقي: وهذا المرسل لما تقدم من الموصول شاهد.

وعن ابن عمر: قال رجلٌ لرسول الله ﷺ: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة، فدعاها رسول الله ﷺ وهي على شاطئ الوادي، فأقبلت تخدّ الأرض خدّا، فقامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت له كما قال ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه فقال: إن يتبعوني آتيك بهم، وإلا رجعت إليك فكنت معك. دلائل: ١٤/٦ ـ ١٥.

ومنها أن الله تعالى سخر العذق شاهداً له عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: أرأيت لو دعوت هذه العذق من هذه النخلة، فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط في الأرض، ثم جعل ينقر حتى أتى =

❖ **النوع الرابع**: أدلة وبراهين فيها نُطْق ما لم يَنْطِق وهذه تشمل الأول المسموعة، وتحرك ما لم يتحرك بالعادة ويشمل حركة الجمادات، وشعور من لا يُعرف بشعورِهِ وهذه إنما يُخْبِر عنها نبي وتحصل للرسل والأنبياء، مثل (حنين الجذع)[(١)]. وتسليم الحجر[(٢)]. وأشباه ذلك.

هذا نوع وهو الآيات والبراهين.

● **الثاني من الأدلة والبراهين**: أنَّ الرسول يأتي بخبر وأمر ونهي وللرسول قول وفعل، فهذه خمسة أشياء. وهذا النوع من الدلائل أهم من الدلائل التي ذُكِرَت ـ عدا القرآن فهو أعظم الأدلة؛ وذلك أنَّ محمداً ﷺ جاء بأخبار:

ـ جاء بخبر عن الله ﷻ، وهذا الخبر: منه ما يتعلق بالماضي، ومنه ما يتعلق بالحاضر، ومنه ما يتعلق بالمستقبل.

ـ وجاء بأمر ونهي، وهذا الأمر والنهي هو ما يدخل في الشريعة، والأوامر متنوعة والنواهي متنوعة.

ـ وجاء بأقوال هو قالها في التبليغ، وأفعال له.

وكل هذه بمجموعها تدل للناظر على أنَّ من قال وأَخْبَرَ عن الله وفَعَلَ وأَمَرَ ونَهَى فإنه صادق فيما قال[(٣)]؛ لأنّ كلَّ مدَّعٍ للخبر والأمر والنهي ـ وله أقوال وله أفعال ـ وليس على مرتبة النبوة؛ فلاً بد أن **يظهر لكل أحد** كذبه

= النبي ﷺ، ثم قال له: ارجع، فرجع حتى عاد إلى مكانه، فقال: أشهد أنك رسول الله ﷺ وآمن. دلائل: ١٥/٦، والمستدرك: ٦٢٠/٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، (٢٤٧/٤٢٣٧). ورواه البخاري في التاريخ بلفظ (فرجع، فقال: يا بني عامر! ما رأيت أسحر من هذا) دلائل: ١٥/٦ ـ ١٦. وانظر البيهقي في دلائل النبوة: ١٤/٦ ـ ١٦. وإمتاع الأسماع ٣٦/٥ ـ ٣٧.

(١) سبق تخريجه ص٢٣٧.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٦٠٧٨).

(٣) وهذه تَصْدُقْ على جميع النبوات والرسالات.

فيما ادعاه، وتناقضه في أقواله وأفعاله، وضَعْفُ أمْرِهِ ونَهْيِهِ وعدم إِصلاحِهِ وأشباه ذلك.

ولهذا محمد ﷺ جعل الله ﷻ له الكمال فيما أخبر به، وفيما أمر به، وفيما نهى، وفي أقواله وأفعاله، فَجَعَل إتِّباعه في الأقوال والأفعال إتِّباعاً مأموراً به ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وجعل ما يخبر به الرسول، كخبر الله ﷻ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى[(١)]، ونحو ذلك.

فاستقام أمره ﷺ في هذه الأمور الخمسة، ولم يُعْرَف أنَّ أحداً طعن في شيء من هذه الأشياء واستقام على طعنه ولم يستسلم؛ بل كُلُّ من طعن في واحد من هذه الأشياء فإنه آل به أمره إلى الاستسلام، أو أن يكون طعنه مكابرة دون برهان.

لهذا نقول إن هذا الدليل من أعظم الأدلة التي تُفَرِّق ما بين الرسول والنبي الصادق؛ وما بين مُدّعي النبوة، فإنّ الرسول له أحوال كثيرة يُسْمَعْ في أقواله، يُرَى في أفعاله، أوامره ونواهيه جاءت بماذا؟ أخباره جاءت بماذا؟

ونبينا محمد ﷺ أَخْبَرَ عن أشياء حدثت في الماضي لم يكن العرب يعرفونها، وجاء تصديقها من أهل الكتاب ـ وما كان يقرأ ﷺ كتب أهل الكتاب، وجاء بأخبار عما سيحصل مستقبلاً، وجاء بأخبار عما سيحصل بين يدي الساعة وحصلت بعده ﷺ شيئاً فشيئاً، منها ما حصل بعد موته سريعاً،

(١) قال ابن حزم: «إن القرآن لما كان هو الأصل الذي يرجع إليه في معرفة الإسلام وجدنا فيه وجوب طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ ووجدناه ﷻ يقول فيه واصفاً لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ على قسمين: أحدهما وحي متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن، والثاني وحي مروي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وهو المبين عن الله ﷻ مراده منا». الإحكام في أصول الأحكام ٩٣/١.

ومنها ما يحصل شيئاً فشيئاً، ومنها ما سيحصل بين يدي الساعة، وكل هذه الأخبار في تصديقها دالة على أنه لا يمكن أن يُعْطَاهَا إلا نبي(١).

كذلك ما أمر به ﷺ وما نهى عنه فهو موافق للحكمة البالغة التي يعرفها أهل الدين ويعرفها أهل العقل الراجح، حتى إنَّ الحكماء شهدوا في الزمن الماضي وفي الزمن الحاضر بأن شريعة محمد ﷺ هي شريعة ليس فيها خلل لا من جهة الفرد في عمله ولا من جهة التنظير في المجتمع بعامة(٢).

---

(١) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما يحدثه من أشراط الساعة؛ كظهور الدجال، ويأجوج ومأجوج، وظهور الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، بل والنفخ في الصور، وغير ذلك؛ هو من آيات الأنبياء؛ فإنّهم أخبروا به قبل أن يكون، فكذّبهم المكذّبون، فإذا ظهر بعد مئين، أو ألوف من السنين، كما أخبروا به كان هذا من آيات صدقهم، ولم يكن هذا إلا لنبيّ، أو لمن يخبر عن نبيّ. والخبر عن النبيّ: هو خبر النبيّ. ولهذا كان وجود ما أخبر به الرسول من المستقبلات من آيات نبوّته إذا ظهر المخبَر به كما كان أخبر. وخبره عمّا مضى آية لمن عرف صدقه فيما أخبر به إذ كان هذا. وهذا لا يمكن أن يُخبر به إلا نبيّ، أو من أخذ عن نبيّ. وهو لم يأخذ عن أحدٍ من الأنبياء شيئاً؛ فدلّ على نبوّته. ولهذا يحتج الله له في القرآن بذلك؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع». اهـ. النبوات ٣٩٥ ـ ٣٩٦ وانظر ١٦٦ ـ ١٧١. وعقد فصلاً عن أخباره ﷺ بكثيرٍ من الغيوب في الماضي، والحاضر، والمستقبل، ودلالتها على نبوته. انظر الجواب الصحيح ٦/٨٠ ـ ١٥٨.

(٢) **أولاً**: وصف الله كتابه العزيز بالحكمة فقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود] أي أحكمت وفصلت بجميع ما يحتاج إليه من الدلائل على توحيده ﷻ، وإثبات نبوة الأنبياء وختمهم بنبينا محمد ﷺ، وبيان شرائع الإسلام. فالقرآن الكريم كله محكم متقن، فمعانيه متفقة وإن اختلفت ألفاظه وهو متشابه في الأحكام والإتقان، متماثلة في الأوامر والنواهي يصدق بعضه على بعضٍ ويفسر بعضه بعضاً.

ثانياً: السنة هي الحكمة كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤] قال أبو عثمان النيسابوري: «من أمَّر السنة على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالبدعة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤]». الفتاوى ١٤/٢٤١. «فمن قام بما جاء به الكتاب والسنة أشرف على علم الأولين والآخرين وأغناه الله بالنور الذي بعث به محمداً عمَّا سواه». الصفدية ١/٢٦٠. «وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ =

وكذلك ما في أفعاله ﷺ فكان ﷺ له المقام الأكمل في التخلص من الدنيا والبعد عن الرَّفْعَة ـ أي: الترفع على الناس ـ بل كان ﷺ أكمل الناس في هديه وفي تواضعه وفي قوله وفي عمله ﷺ، وكان أكمل الناس في عبادته، وكلُّ دعوى لمن ادَّعَى النبوة فلا بد أن يظهر فيها خلل في هذه الأشياء(١).

= ﴿أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم]، وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطناً وظاهراً، فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق في نقيضه، وحينئذ من اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلاً، والاعتقاد الباطل لا يكون علماً، وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه، فمن نهى عنه فقد نهى عن العدل، ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم؛ فإن ضد العدل الظلم، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلاً وظلماً وظناً وما تهوى الأنفس». الفتاوى ١٣/٦٤.

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل] قال أبو السعود: «رد لقولهم إنما أنت مفتر وقلب للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وإنما وسط بينهما قوله تعالى ولقد نعلم الآية لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الأول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفتري هو الذي يكذب بآيات الله ويقول إنه افتراء ومعلم من البشر أي تكذيبها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة لأن حقيقته الكذب والحكم بأن ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى في كونه كذباً وافتراءً كالحكم بأن ما ليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة في بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه أعني قوله لا يؤمنون وقيل المعنى إنما يفتري الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لأنه لا يتقرب عقاباً عليه ليرتدع عنها وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من عدم الإيمان بآيات الله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ على الحقيقة أو الكاملون في الكذب إذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل والسر في ذلك أن الكذب الساذج الذي هو عبارة عن الإخبار بعدم وقوع ما هو واقع في نفس الأمر بخلق الله تعالى أو بوقوع ما لم يقع كذلك مدافعة لله تعالى في فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه في فعله وقوله المنبئ عنه معاً أو الذين عادتهم الكذب لا يزعهم عنه وازع من دين أو مروءة». إرشاد العقل السليم ٥/١٤٢. و«لما كان ﷺ أكمل البشر في القوتين النظرية والعملية وقد بعث ليتم مكارم الأخلاق، وجب أن يكون أكمل الناس خلقاً وذلك من فضل الله ورحمته على =

kolasa-borhan

أيضاً هو ﷺ تحدّى الناس في قوله فيما أتى به، وأخذ يدعو كما يظهر لك من قصة هرقل مع أبي سفيان وسؤالات هرقل لأبي سفيان(١)، وأخذ يدعو غير ملتفت لخلاف من خالف، والناس يزيدون وأعداؤه ينقصون، وهذا مع تطاول الزمن ونصرة الله ﷻ له، فإنَّ هذا دليل على صدقه فيما أخبر وفي أمره ونهيه وقوله وفعله ﷺ(٢).

● **الثالث من الأدلة والبراهين**: أنَّ الله ﷻ هو صاحب الملكوت وهو ذو الملك والجبروت، وهو الذي يَنْفُذُ أمره في بريته، فمحال أن يأتي أحد ويَدَّعِي أنه مرسل من عند الله، ويصف الله ﷻ بما يصفه به، ويذكر الخبر عن الله وأسمائه ونعوته، ثم هو في مُلْكِ الله ﷻ يستمر به الأمر إلى أن يُشَرِّع ويأمر وينهى وينتشر أمره ويغلب من عاداه ويسود في الناس ويُرفع ذكره دون أن يعاقب!!

= الناس». غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/٢٩٢. ولذا قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧) وحديث (٢٩٣٦) و(٤٢٧٨) و(٧١٩٦)، ومسلم كتاب الجهاد باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ليدعوه إلى الإسلام (٤٦٣٠).

(٢) وهذه الآيات والمعجزات لا شك أنها حجة قاطعة على صدق رسالته ونبوته؛ لأن خرق العادة ومخالفة قانون الطبيعة، وتغير ناموس الحياة لا يمكن أن يفعله مخلوق، بل لا يكون إلا من الخالق للعادة سبحانه، والله تعالى لا يخرق العادة لكاذب، بل إنما يؤيد بها مرسليه للتدليل على صدقهم في دعوتهم، كما حصل من قلب النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وقلب عصى موسى إلى أفعى، وإحياء الموتى لعيسى، وغير ذلك من الآيات؛ لذلك كان القوم إذا أرسل إليهم أحد، أو ادعى النبوة قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٧] ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ﴾ [يونس: ٢٠]. «وأما إثبات نبوة الأنبياء بما فعله بهم وبأتباعهم من النجاة والسعادة والنصرة وحسن العاقبة وما جعله لهم من لسان الصدق وما فعله بمكذبيه ومخالفيه من الهلاك والعذاب وسوء العاقبة وإتباعهم اللعنة في الدنيا مع عذاب الآخرة فهذا يدل مع صدق الأنبياء على الرغبة في إتباعهم، والرهبة من مخالفتهم ففيه العلم بصدقهم». الجواب الصحيح ٧/٦٨.

ولهذا قال ﷻ في بيان هذا البرهان: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]، لو كانت الدَّعْوَةُ في ملك الله ﷻ وهذا يَدَّعِي أنه مُرْسَلٌ ونبي ويأتي بأشياء يقول هي من عند الله، فإنّ مالك الملك لا يتركه وحاله بل ربما جعل ذلك ابتلاءً وامتحاناً للناس، ولكن لا يُنْصَرْ وتكون شريعته هي الباقية ويكون ذكره هو الذي يبقى، ويكون خبره عن الله وعن أسمائه وصفاته ودينه وشرعه وعن الأمم السالفة وعما يحصل هو الذي يبقى في الناس، فإنَّ هذا مخالف لقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]، والمشركون لما كذّبوا النبي ﷺ قالوا: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، لأنّ السُّنَّةَ ماضية عند العقلاء أن الذي يَدَّعِي عن الله ﷻ فإنما يُتَرَبَصُ به الهلاك والإفناء. ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، فجاء البرهان ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور]، لأنّ هذا برهان صحيح، فتربصوا ﴿فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور]، وقد صدقتم في هذا البرهان لأنه لو كان كما تقولون كاذب فإنه يُتَرَبَصُ به ريب المنون وأن يُهْلِكَهُ الله ﷻ وأن يجعله مخلياً وأن يجعله عبرة لمن اعتبر.

فالنبي ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين جعلهم الله ﷻ حملةً لرسالته وشَرَّفَهُم ورَفَعَ ذِكْرَهُمْ ونَصَرَهُم بين الناس، ولهذا تجد أنَّ الرسالات هي الباقية في الناس: رسالة موسى ورسالة إبراهيم ورسالة عيسى عليهم الصلاة والسلام، ورسالة محمد ﷺ[1]، وأتباع محمد ﷺ هم الذين حفظهم الله ﷻ وجعل منهم طائفة ظاهرين بالحق يقومون به إلى قيام الساعة[2].

(١) وكل واحدة من الرسالات السابقة دخلها من التحريف ما دخلها، فأتباع إبراهيم حرَّفُوا في دينهم حتى أصبحوا على غير ملة إبراهيم، وأتباع موسى من اليهود الآن على غير دين موسى، وأتباع عيسى عليه السلام الآن على غير دين عيسى.

(٢) انظر: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل: مذكرة مفرغة من شرح للشّيخ صالح آل الشيخ، بتصرف واختصار.

الخاتمة

بعد هذا العرض السريع لمجمل آراء الإمام الباقلاني حول إعجاز القرآن الكريم، وصلنا إلى التالي:

النتائج:

- قوة الإمام الباقلاني العلمية، وأهليته للتدريس والتأليف في علم إعجاز القرآن، فجاء كتابه جامعاً لمسائل الإعجاز ومؤصلاً لها، ولا تقل كتبه الأخرى عن تلك الجودة فيما تناولته من مسائل الإعجاز.
- بروز شخصية الإمام الباقلاني العلمية، مع نزاهته في قبول الحق والاحتجاج له، ودفاعه عنه وعن أهله.
- حسن سيرة الإمام، مع بروز شخصيته العلمية والعملية، وورعه وتقواه لربه، وحسن تنسكه وإخلاصه؛ فكانت تلك عوامل نجاح تآليفه ومنفعة الأمة بها.
- أن مسألة إعجاز القرآن مسألة مهمة فلها صلة بمبحث دلائل النبوة في التوحيد؛ فإذا ثبت أن القرآن معجز؛ فذلك دليل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وأن القرآن منزل من عند الله. ولها صلة بمبحث كلام الله جل وعلا وهو أن القرآن لا يشبه كلام البشر، وأن كلام الله جل وعلا ليس ككلام البشر.

kolasa-borhan

- أن الكلام على مسائل الإعجاز ليس مقتصراً عند الإمام الباقلاني في كتابه الموسوم بذلك، بل تطرق لها بتوسع في كتبه الأخرى، وأشهرها ممّا بقي لنا منها: «هداية المسترشدين».

- أن الإمام الباقلاني متبع لمن قبله من العلماء في مسائل الإعجاز، وقد برز في جمعها وتأصيلها وشرحها، مع العناية بنفي القول بالصرفة وجهاً، وكذا نفيه اشتمال القرآن على الشعر أو السجع على حدٍ سواء.

- مع ترجيح الإمام لوجه عموم الإعجاز؛ إلَّا أن نظم القرآن طغى على كتابه في البيان والشرح والتأصيل، وكذا بيان بلاغته وتفرده بها.

- لعل الباقلاني استعجل بأمور قد خالفه عامّة أهل العلم فيها، ومنها:

  - القول بنفي السجع.
  - والقول بنفي البديع تبعاً لذلك في غالب أنواعه.
  - ومقارنته بين كلام العرب وأشعارها والقرآن ممّا حدا به للغض والتنقص بتكلف أحياناً للبليغ الفريد من كلامهم.

- محاولة الباقلاني إقحام عقيدته الأشعرية في مسائل الإعجاز لم يكن موفقاً، بل أبان عن عوار تلك الاعتقادات وفسادها، ولو سلك منهج أهل السنة لكان أسلم وأصح منطقاً وأثراً، ولله الأمر من قبل ومن بعد، نسأل الله لنا وله المغفرة.

- أن أعظم باب اختلط فيه أمر الأشاعرة خصوصاً والمتكلمين عموماً؛ هي مسائل إثبات النبوة وعلاقتها بالتحدي والمعجزة، والفرق بين الخارق للعادة في النبوة ومُنَاقِضِها من السحر والكهانة والشعوذة.

التوصيات:

١. دراسة مسائل إعجاز القرآن في كتبه الأخرى، دراسة علمية متأنية

ليكتمل منهج الإمام الباقلاني في باب إعجاز القرآن، ولينتفع بها الناس، فهم اليوم أحوج ما يكونون للارتباط بكتاب ربهم؛ وتوثيق الصلة به عن يقين وعلم.

٢. اختصار وترتيب كتاب إعجاز القرآن الكريم، عبر برنامج علمي؛ يحفظ أصالة الكتاب، وبهجة أسلوبه، ورصانة مسائله، مع تسهيله للدارسين، وتخليصه من التكرار والزوائد.

٣. جمع مسائل إعجاز القرآن وترتيبها وفق خطة محكمة من خلال كتب الأئمة الأعلام المتقدمين، ووفق منهج أهل السنة والجماعة.

٤. عقد الدروس والندوات في تعليم مسائل إعجاز القرآن ومدارستها، حفاظاً على سلامة الفهم والاعتقاد من الخلل أو الخطأ، والذي لا بد أن ينشأ عندما يغفل الناس الكلام على مسائل الإعجاز، ويشتغلون بما هو أقل منه من دقائق المسائل وتفريعاتها، لا سيما في زمان ضعفت فيه اللغة العربية وندر متذوقوا أسلوب القرآن العظيم.

هذا باختصار شديد أهم ما وصلت إليه عن منهج الإمام الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل الإعجاز، فما كان في عملي من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان.

أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجبر تقصيرنا ويعفو عن خطأنا. وأسأله سبحانه أن يجزي خيراً كل من ساعدني في هذا البحث أو أسدى إلي نصيحة، أو صحح لي معلومة، أو ساعدني على استخراجها. والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يبارك في صوابه، وأن ينفع به كل طالب للحق وللطريق المستقيم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

kolasa-borhan

فهرس مراجع المُحَقِق
د.السيد أحمد صقر

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (حجازي ١٣٦٠هـ).
٢. أخبار أبي تمام للصولي (لجنة التأليف ١٣٥٦هـ).
٣. أخبار أبي نواس لابن منظور (الجزء الثاني. بغداد).
٤. أدب الكاتب لابن قتيبة (الرحمانية ١٣٥٥هـ).
٥. أساس البلاغة للزمخشري (دار الكتب المصرية ١٣٤١هـ).
٦. أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني (المنار).
٧. الإصابة في أسماء الصحابة لابن حجر (السعادة ١٣٢٣هـ).
٨. الأصمعيات (ليبسك ١٩٠٢م).
٩. الأضداد لابن الأنباري (الحسينية ١٣٢٥هـ).
١٠. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (بولاق ١٢٨٥هـ).
١١. الاقتضاب لابن السيد البطليوسي (الآداب ببيروت ١٩٠١م).
١٢. أمالي القالي (دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ).
١٣. أمالي المرتضى (السعادة ١٣٢٥هـ).
١٤. إمتاع الاسماع للمقريزي (لجنة التأليف ١٩٤١م).
١٥. الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي (لجنة التأليف ١٩٤٢م).
١٦. البداية والنهاية لابن كثير (السعادة ١٣٥١هـ).
١٧. البديع لابن المعتز (مصطفى الحلبي ١٣٦٤هـ).
١٨. البصائر والذخائر للتوحيدي (لجنة التأليف ١٣٧٣هـ).
١٩. بغية الوعاة للسيوطي (السعادة ١٣٤٩هـ).
٢٠. البيان والتبيين للجاحظ (لجنة التأليف ١٣٦٩هـ).

٢١. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (عيسى الحلبي ١٣٧٣هـ).
٢٢. تاريخ الاسلام للذهبي (القدسي ١٦٧هـ).
٢٣. تاريخ الامم والملوك للطبري (الحسينية ١٣٢٣هـ).
٢٤. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (السعادة ١٣٤٩هـ).
٢٥. التاريخ الكبير للبخاري (حيدر آباد).
٢٦. التشبيهات لابن أبي عون (لندن ١٩٥٢م).
٢٧. تفسير ابن جرير الطبري (بولاق ١٣٢٩هـ).
٢٨. التمهيد للباقلاني (دار الفكر العربي ١٣٦٦هـ).
٢٩. تهذيب التهذيب لابن حجر (حيدر آباد ١٣٢٥هـ).
٣٠. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي (حيدر آباد).
٣١. جمهرة أشعار العرب لأبي زيد (بولاق ١٣٠٨هـ).
٣٢. جمهرة أنساب العرب لابن حزم (المعارف ١٩٤٨م).
٣٣. جمهرة اللغة لابن دريد (حيدر آباد ١٣٥١هـ).
٣٤. حماسة البحتري (الكاثوليكية ببيروت ١٩١٠م).
٣٥. حماسة ابن الشجري (حيدر آباد ١٣٤٥هـ).
٣٦. الحيوان للجاحظ (مصطفى الحلبي ١٣٦٤هـ).
٣٧. خاصة الخاص للثعالبي (الخانجي ١٩٠٨م).
٣٨. خزانة الأدب لابن حجة الحموي (الخيرية).
٣٩. خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادي (بولاق ١٢٩٩هـ).
٤٠. الخصائص لابن جني (دار الكتب المصرية).
٤١. خلاصة تذهيب الكمال للخزرجي (الخيرية ١٣٢٢هـ).
٤٢. دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني (المنار ١٣٦٧هـ).
٤٣. دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (حيدر آباد. أولى).
٤٤. ديوان الأخطل (بيروت ١٨٩١م).
٤٥. ديوان الأعشى (فينا ١٩٢٧م).
٤٦. ديوان الأفوه الأودي (ضمن الطرائف الادبية، لجنة التأليف ١٩٣٧م).
٤٧. ديوان امرئ القيس (الرحمانية ١٩٣٠م).
٤٨. ديوان البحتري (بيروت ١٩١١م).
٤٩. ديوان أبي تمام (بيروت).
٥٠. ديوان جرير (الصاوي ١٣٥٣هـ).

٥١. ديوان حسان بن ثابت (الرحمانية ١٣٤٧هـ).
٥٢. ديوان الحطيئة (التقدم ١٣٢٥هـ).
٥٣. ديوان الخنساء (الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦م).
٥٤. ديوان ابن الدمينة (القاهرة ١٣٣٧هـ).
٥٥. ديوان أبي ذؤيب الهذلي (ضمن شعر الهذليين. دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ).
٥٦. ديوان ذي الرمة (كمبردج ١٩١٩م).
٥٧. ديوان ابن الرومي (القاهرة ١٩١٧م).
٥٨. ديوان زهير بشرح الأعلم الشنتمري، ديوان زهير بشرح ثعلب (دار الكتب المصرية ١٣٦٣هـ).
٥٩. ديوان سحيم عبد بني الحسحاس (دار الكتب المصرية ١٩٤٩م).
٦٠. ديوان السري الرفاء (القدسي).
٦١. ديوان الشماخ (السعادة ١٣٢٧هـ).
٦٢. ديوان طرفة بن العبد (فازان ١٩٠٩م).
٦٣. ديوان عبيد بن الأبرص (ليدن ١٩١٣م).
٦٤. ديوان علقمة الفحل (المحمودية ١٣٤٣هـ).
٦٥. ديوان عمر بن أبي ربيعة (التجارية).
٦٦. ديوان الفرزدق (الصاوي ١٣٥٤هـ).
٦٧. ديوان كثير عزة (الجزائر ١٩٢٨م).
٦٨. ديوان كشاجم (بيروت).
٦٩. ديوان المتنبي بشرح البرقوقي (الرحمانية ١٣٤٨هـ).
٧٠. ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (القدسي ١٣٥٢هـ).
٧١. ديوان ابن المعتز (بيروت ١٣٣٢هـ).
٧٢. ديوان النابغة الذبياني (بيروت ١٣٤٧هـ).
٧٣. ديوان أبي نواس (واصف ١٢٩٣هـ).
٧٤. الذخائر والأعلاق (القاهرة).
٧٥. ذيل أمالي القالي (دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ).
٧٦. الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري (الخانجي ١٣٥٧هـ).
٧٧. زهر الآداب للحصري (الرحمانية ١٩٢٥م).
٧٨. الزهرة لابن أبي داود (س).
٧٩. سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (الرحمانية ١٣٥٠م).

٨٠. سنن الدارمي (دمشق).
٨١. سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي (المصرية).
٨٢. سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي (المؤيد ١٣٣١هـ).
٨٣. شرح أدب الكاتب للجواليقي (القدسي ١٣٥٠هـ).
٨٤. شرح الحماسة للتبريزي (التجارية ١٣٥٧هـ).
٨٥. شرح الحماسة للمرزوقي (لجنة التأليف ١٣٧١هـ).
٨٦. شرح سنن الترمذى للمباركفوري (الهند).
٨٧. شرح شواهد الشافية للبغدادي (حجازي ١٣٥٩هـ).
٨٨. شرح شواهد المغني للسيوطي (البهية ١٣٢٢هـ).
٨٩. شرح القصائد العشر للتبريزي (السلفية ١٣٤٣هـ).
٩٠. شرح المعلقات للزوزني (الرافعي).
٩١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (الحلبي ١٣٢٩هـ).
٩٢. الشعر والشعراء لابن قتيبة (عيسى الحلبي ١٣٧٠هـ).
٩٣. الصاحبي لابن فارس (السلفية ١٣٢٨هـ).
٩٤. الصناعتين لأبي هلال العسكري (الآستانة ١٣٢٠هـ).
٩٥. طبقات الشافعية للسبكي (الحسينية).
٩٦. طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (المعارف ١٩٤٢م).
٩٧. الطبقات الكبرى لابن سعد (ليدن ١٣٢٢هـ).
٩٨. عبث الوليد للمعري (الترقي بدمشق ١٣٥٥هـ).
٩٩. العقد الفريد لابن عبد ربه (لجنة التأليف ١٣٥٩هـ).
١٠٠. العمدة لابن رشيق (التجارية ١٣٤٣هـ).
١٠١. عيون الاثر لابن سيد الناس (القدسي ١٣٥٦هـ).
١٠٢. عيون الاخبار لابن قتيبة (دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ).
١٠٣. غرر الخصائص الواضحة للوطواط (الأدبية ١٣١٨هـ).
١٠٤. الفائق للزمخشري (عيسى الحلبي ١٣٦٦هـ).
١٠٥. فتح الباري لابن حجر (بولاق).
١٠٦. فهرست ابن النديم (التجارية ١٣٤٨هـ).
١٠٧. الكامل للمبرد (مصطفى الحلبي ١٣٥٦هـ).
١٠٨. الكتاب لسيبويه (بولاق ١٣١٧هـ).
١٠٩. اللآلي شرح الأمالي للبكري (لجنة التأليف ١٣٥٤هـ).

١١٠. لسان العرب لابن منظور (بولاق ١٣٠٨هـ).
١١١. المؤتلف والمختلف للآمدي (القدسي ١٣٥٤هـ).
١١٢. ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن الكريم للمبرد (السلفية ١٣٥٠هـ).
١١٣. مبادئ اللغة للخطيب الإسكافي (الخانجي ١٣٢٥هـ).
١١٤. المجازات النبوية للشريف الرضى (مصطفى الحلبي ١٣٥٦هـ).
١١٥. مجمع الأمثال للميداني (القاهرة ١٣٥٢هـ).
١١٦. مجمع البيان للطبرسي (صيدا ١٣٥٤هـ).
١١٧. مختارات ابن الشجري (الاعتماد ١٩٢٥م).
١١٨. مروج الذهب للمسعودي (السعادة ١٣٦٧هـ).
١١٩. مصارع العشاق للسراج (الجوائب ١٣٠١هـ).
١٢٠. مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني (الميمنية ١٣٢٤هـ).
١٢١. المفضليات (المعارف ١٩٥٢م).
١٢٢. المعارف لابن قتيبة (القاهرة ١٣٥٣هـ).
١٢٣. المعاني الكبير لابن قتيبة (حيدر آباد ١٣٦٨هـ).
١٢٤. معاهد التنصيص للعباسي (السعادة ١٣٦٧هـ).
١٢٥. معجم الأدباء لياقوت (رفاعي ١٣٥٧هـ).
١٢٦. معجم البلدان لياقوت (الخانجي ١٣٢٣هـ).
١٢٧. معجم الشعراء للمزرباني (القدسي ١٣٥٤هـ).
١٢٨. المعمرين لأبي حاتم السجستاني (السعادة ١٣٢٣هـ).
١٢٩. مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (الأول. السعادة ١٣٢٣هـ).
١٣٠. المنتظم لابن الجوزي (حيدر آباد ١٣٥٨هـ).
١٣١. الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي (حجازي ١٣٦٣هـ).
١٣٢. الموشح للمرزباني (السلفية ١٣٤٣هـ).
١٣٣. ميزان الاعتدال للذهبي (السعادة ١٣٢٥هـ).
١٣٤. الميسر والقداح لابن قتيبة (السلفية ١٣٤٣هـ).
١٣٥. نثار الأزهار لابن منظور (الجوائب).
١٣٦. نزهة الألبا في طبقات الأدبا لابن الأنباري (حجر ١٢٩٤هـ).
١٣٧. نظام الغريب للربعي (أمين هندية).
١٣٨. النقائض بين جرير والفرزدق (ليدن ١٩٠٥م).
١٣٩. نقد الشعر لقدامة بن جعفر (الجوائب ١٣٠٢هـ).

١٤٠. النكت في إعجاز القرآن للرماني (دهلي ١٩٣٤م).
١٤١. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي (الآداب والمؤيد).
١٤٢. نهج البلاغة جمع الشريف الرضى (الاستقامة).
١٤٣. نوادر أبي زيد (بيروت ١٨٩٤م).
١٤٤. نوادر القالي (دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ).
١٤٥. يتيمة الدهر للثعالبي (حجازي).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فهرس مراجع المُخْتَصِر

١ ـ ابن تيمية ومنهجه في التفسير، د.ناصر بن محمد الحميد ـ رسالة دكتوراه جامعة الإمام بالرياض ـ مخطوط.

٢ ـ إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: مركز خدمة السنة والسيرة، بإشراف د. زهير بن ناصر الناصر، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (بالمدينة) ـ ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية (بالمدينة)، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٣ ـ الأحاديث المختارة للضياء المقدسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش. نشر: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠هـ.

٤ ـ أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي، نشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ شارع جواد حسني ـ القاهرة، ودار الباز للنشر والتوزيع بمكه المكرمة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٥ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، نور الدين علي بن محمد بن سلطان المشهور بالملا علي القاري، تحقيق: محمد الصباغ، نشر: دار الأمانة، ومؤسسة الرسالة ـ بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٦ ـ أطراف الغرائب والأفراد للدارقطني، أبي الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي ـ تحقيق: جابر بن عبدالله السريِّع ـ نشر: دار التدمرية ـ ط١، ١٤٢٨هـ.

٧ ـ إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية، ـ رسالة ماجستير ـ محمد بن عبدالعزيز العواجي ـ الجامعة الإسلامية ـ (١٤١٤هـ). نشر دار المنهاج بالرياض.

٨ ـ إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني/ تحقيق د.السيد أحمد صقر. نشر دار المعارف ـ القاهرة، الطبعة ٥ (١٩٨١م).

٩ ـ إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني/ تحقيق عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣ (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

١٠ ـ الانتصار لصحة نقل القرآن، للقاضي أبي بكر الباقلاني (محمّد بن الطيب الباقلاني ت ٤٠٣هـ): مخطوط نسخة من الجزء الأول منه في مكتبة مصطفى باشا ـ إستانبول.

١١ ـ الانتصار للقرآن، للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ (١٤٢٥هـ).

١٢ ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، نشر عزت العطار ـ القاهرة ـ (١٣٦٩هـ/١٩٥٠م).

١٣ ـ الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن: دراسة تحليلية نقدية، د. عبدالرؤوف مخلوف، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ (١٩٧٨م).

١٤ ـ البحر المحيط، محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي، دار الفكر ـ بيروت ط٢ (١٤٠٣هـ).

١٥ ـ البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٩١هـ.

١٦ ـ البيان عن الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين والحيل والكهانة والسحر والنارنجات، للقاضي أبي بكر محمّد بن الطيب الباقلاني ت ٤٠٣هـ، تحقيق: يوسف مكارثي اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت ـ لبنان، ١٩٥٨م.

١٧ ـ تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي ـ تحقيق: مجموعة من الأساتذة ـ مطبعة حكومة الكويت.

١٨ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، نشر: دار صادر ـ بيروت.

١٩ ـ تاريخ دمشق، ابن عساكر: علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبدالله الشافعي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٠ ـ تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٤ (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).

٢١ ـ **تاريخ الإسلام في وفيات المشاهير والأعلام**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ (١٤١٠هـ).

٢٢ ـ **تاريخ الأمم والملوك**، محمد بن جرير الطبري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٧هـ.

٢٣ ـ **تاريخ المدينة المنورة**، ـ ابن شبة النميري البصري ت٢٦٢هـ حققه فهيم محمد شلتوت ـ من منشورات دار الفكر.

٢٤ ـ **التعريفات للجرجاني**، علي بن محمد بن علي الجرجاني ـ تحقيق: إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ (١٤٠٥هـ).

٢٥ ـ **التفسير البسيط**، علي بن أحمد الواحدي ـ مجموعة رسائل علمية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ـ ط١ ـ (١٤٣٠هـ).

٢٦ ـ **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ـ تحقيق حكمت بشير ياسين ـ دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ـ ط١ (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

٢٧ ـ **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ـ تحقيق سامي بن محمد السلامة ـ دار طيبة للنشر والتوزيع ـ ط١ (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٢٨ ـ **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ـ دار المعرفة للنشر والتوزيع ـ بيروت ـ (١٣٨٨هـ/١٩٦٩م).

٢٩ ـ **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ دار الرشد ـ سوريا ـ ط١ (١٤٠٦هـ).

٣٠ ـ **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ـ تحقيق: حسن عباس قطب ـ نشر: مؤسسة قرطبة ـ دار المشكاة للبحث العلمي ـ ط١ (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٣١ ـ **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل** ـ للقاضي أبي بكر الباقلاني (محمّد بن الطيب الباقلاني ت ٤٠٣هـ)، المكتبة الشرقية ـ بيروت ـ، عام (١٩٥٧م)، وطبعة أخرى بتحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة (١)، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت، (١٤٠٧هـ).

٣٢ ـ **التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة**، للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني. الطبعة الأولى، بتحقيق د. محمد عبدالهادي أبو ريدة، والأستاذ محمود محمد الخضيري، ط. لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م. الطبعة الثانية: بتحقيق رتشرد يوسف مكارثي ـ بيروت، (١٩٥٧م).

٣٣ ـ جامع البيان عن تفسير آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ـ مركز البحوث والدراسات الإسلامية ـ القاهرة ـ ط١ (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٣٤ ـ جامع الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي ـ بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ (١٤١٩هـ/١٩٨٩م) ـ اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٣٥ ـ الجامع الكبير، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عباس أحمد صقر، وأحمد عبدالجواد، بيروت، دار الفكر، ١٩٦٤م.

٣٦ ـ . الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

٣٧ ـ الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د.علي بن حسن بن ناصر وآخرون، نشر دار العاصمة ـ الرياض، ط١ (١٤١٤هـ).

٣٨ ـ الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، تحقيق: د. مازن المبارك، نشر: دار الفكر المعاصر ـ بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٣٩ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالمحسن التركي ـ مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية والعربية ـ القاهرة ـ ط١ (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٤٠ ـ دراسة نقدية في: المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، رسالة، عبدالسلام بن محسن آل عيسى، نشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٤١ ـ دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، القاهرة، دار الريان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.

٤٢ ـ رسالة القول في بيان الإعجاز، حمد بن محمد الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط٤.

٤٣ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط. رابعة، ١٣٩٨هـ.

٤٤ ـ سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني ـ بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ (١٤١٩هـ/١٩٨٩م) ـ اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

٤٥ ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني ـ بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ (١٤١٩هـ/١٩٨٩م) ـ اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
٤٦ ـ سنن الدارمي، الدارمي، تحقيق: السيد المدني، وفيصل إياد، الرياض، رئاسة إدارة البحوث العلمية، ١٤٠٤هـ.
٤٧ ـ السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: محمد عطا، دار الكتب.
٤٨ ـ سنن النسائي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ (١٤١٩هـ/١٩٨٩م) ـ اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
٤٩ ـ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي ـ بإشراف شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٣ (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
٥٠ ـ السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، ط. أولى، الرياض، ١٤١٦هـ.
٥١ ـ السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام، تحقيق: مصطفي السقا وآخرون، بيروت، دار القلم، الرياض، دار طيبة، ومكة المكرمة، دار الخير، بيروت/ دمشق، ١٤١٢هـ.
٥٢ ـ شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية، تحقيق حسنين بن محمد مخلوف، دار الكتب الإسلامية ـ القاهرة.
٥٣ ـ شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، حققه: جماعة من العلماء، وخرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط ٧، ١٤٠٣هـ.
٥٤ ـ شرح معاني الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق: محمد زهدي النجار، ط. ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ.
٥٥ ـ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري ـ بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ (١٤١٩هـ ـ ١٩٨٩م) ـ اعتناء أبو صهيب الكرمي.
٥٦ ـ صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني ـ تعليق وفهرسة زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٣ (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
٥٧ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي بيروت، لبنان ـ ط٣ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
٥٨ ـ صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني ـ تعليق وفهرسة زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
٥٩ ـ صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني ـ تعليق وفهرسة زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٦٠ ـ صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني ـ تعليق وفهرسة زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٦١ ـ صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني ـ تعليق وفهرسة زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٦٢ ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ـ بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ ١٤١٩هـ/١٩٨٩م ـ اعتناء أبو صهيب الكرمي.

٦٣ ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري ـ بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ (١٤١٩هـ/١٩٨٩م) ـ اعتناء أبو صهيب الكرمي.

٦٤ ـ ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٦٥ ـ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الزهري ـ تحقيق/ إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ (١٩٦٨م).

٦٦ ـ العجاب في بيان الأسباب، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر، تحقيق: عبدالحكيم محمد الأنيس، نشر: دار ابن الجوزي ـ الدمام، ط١، ١٩٩٧م.

٦٧ ـ العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٨م.

٦٨ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ـ ط١ (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

٦٩ ـ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، نشر: دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

٧٠ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم الظاهري ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

٧١ ـ فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، ط. خامسة، دمشق، دار القلم، ١٤١٤هـ.

٧٢ ـ في علم الكلام ـ الأشاعرة ـ، د.أحمد محمود صبحي، دار النهضة العربية، بيروت ـ لبنان، ط٥، ١٤٠٥هـ.

٧٣ ـ قاعدة في المعجزات والكرامات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق حماد سلامة، مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ، ط١ (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

٧٤ ـ كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ دار ومكتبة الهلال ـ تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي.
٧٥ ـ لسان العرب، ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.
٧٦ ـ مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي ـ دار الريان للتراث ودار الكتب العلمية ـ القاهرة، بيروت.
٧٧ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ابن قاسم، طبعة خادم الحرمين الشريفين بإشراف رئاسة شؤون الحرمين، (١٤٠٤هـ).
٧٨ ـ المحيط في اللغة، الصاحب الكافي الكفاة أبي القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، نشر: عالم الكتب ـ بيروت/ لبنان ـ ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٧٩ ـ المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري ـ تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ (١٤١١هـ/١٩٩٠م).
٨٠ ـ مسند أبي يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي ـ تحقيق: حسين سليم أسد ـ دار المأمون للتراث ـ دمشق ـ ط٢ (١٤١٠هـ).
٨١ ـ مسند الإمام أحمد، بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١ (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
٨٢ ـ مسند البزار (البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبدالخالق البزار ـ تحقيق د.محفوظ الرحمٰن زين الله ـ نشر مؤسسة علوم القرآن بيروت ـ ومكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة (١٤٠٩هـ).
٨٣ ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت ـ دار الفكر ـ بيروت ـ (١٩٨٣م).
٨٤ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: (١٧) رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري، نشر: دار العاصمة، ودار الغيث ـ السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ
٨٥ ـ معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ط١ (١٤١١هـ).
٨٦ ـ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ـ مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل ـ ط٢ (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

٨٧ ـ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبدالرحمٰن بن محمد السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، نشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٨٨ ـ **مناقب عمر بن الخطاب**، ابن الجوزي، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

٨٩ ـ **مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا**، عبدالرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تحقيق: سمير القاضي ط. الأولى ١٤٠٨هـ ـ بيروت.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

فهرس الموضوعات
خلاصة البرهان في اختصار وترتيب إعجاز القرآن

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
أسباب الاختصار والترتيب	٨
منهج الاختصار والترتيب	٨
تمهيد في ذكر طرف من ترجمة الإمام الباقلاني	١١
اسمه	١١
شيوخه	١١
تلاميذه	١٢
ثقافته	١٢
صفاته، ووفاته، ومصنفاته	١٣
مصادر ترجمته	١٤
مقدمة الكتاب	١٥
أسباب الاهتمام بالإعجاز	١٦
موقف الناس من البحث في الإعجاز	١٦
تقصير الناس في الكتابة في الإعجاز	١٧
منهج كتاب إعجاز القرآن	١٨
هدف الكتاب وغايته	١٩
شروط الكلام في الإعجاز	١٩

الموضوع	الصفحة
فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن	٢٠
الفرق بين القرآن وسائر المعجزات	٢٠
طريق المعجزة النظر والاستدلال	٢٠
دلالة القرآن على أنه حجة النبي ﷺ	٢١
هل تحتاج الحجة لحجة أخرى	٢٦
الفرق بين القرآن وسائر معجزات الأنبياء عليهم السلام	٢٦
فصل في [بيان وجه] الدلالة على أن القرآن معجز	٢٧
١ ـ أن النبي ﷺ هو الذي جاء بالقرآن	٢٧
٢ ـ وقوع التحدي به	٢٨
نتيجة التحدي	٢٩
فصل في التحدي	٣١
هل بلغ التحدي جميعهم؟	٣٣
أسباب ضبط القرآن	٣٤
شبهات أعدائه	٣٤
الإخبار بعجزهم هل يؤثر في التحدي إليه	٣٥
حال من إدعى معارضته	٣٦
فصل في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن	٣٨
حال الأعجمي	٣٨
حال غير البليغ من أهل اللسان العربي	٣٨
وصف من يتهيأ له إدراك الإعجاز	٣٩
تفاوت الناس في إدراك إعجازه	٣٩
هل مجرد العجز عنه آية	٤٠
شواهد أن عجزهم عن القرآن حجة	٤١
لماذا تأخر إسلام بعض الفصحاء	٤٢
فصل عموم التحدي لأهل الأعصار المتتابعة	٤٤
القول بالصرفة: والجواب عليه	٤٥
الردّ على القول بالصرفة صيغة أخرى	٤٨

الموضوع	الصفحة
الردّ على قول أنّهم عارضوه ولم ينقل إلينا	٥٠
فصل في قدر المعجز من القرآن	٥٢
الفرق بين إعجاز القرآن وغيره	٥٥
فصل في جملة وجوه إعجاز القرآن	٥٨
بديع نظمه، المتضمن للاعجاز وجوه	٦٢
إعجاز القرآن في الأحرف المقطعة	٦٨
العلل العقلية وهل تصلح أن تكون وجهاً في الإعجاز	٧١
تكرار القصص ووجه الإعجاز فيه	٧٢
فصل في شرح ما بينا من وجوه إعجاز القرآن	٧٣
خروج القرآن عن نظام كلام العرب المعتاد	٧٣
ليس القرآن خارجاً عن لغة العرب	٧٤
فصاحة وبلاغة وبراعة القرآن متميزة عمّا يتصنعه الناس	٧٤
نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه	٧٦
إعجاز القرآن في أسمائه وأوصافه وأثره	٧٧
إعجاز القرآن في بديع نظم آياته وكلماته	٨٠
إعجاز القرآن في بديع نظم قصصه	٨٢
العيوب التي تقع في كلام الآدميين	٨٣
كمال أسلوب القرآن	٨٤
إعجاز القرآن في بديع ما تضمنه المعنى	٨٤
ترابط المعاني مع اختلاف الأساليب	٨٦
دراسة المثال تكفي في وصف الإعجاز	٨٦
إعجاز القرآن في بديع نظم سوره	٨٨
وجه الوقوف على شرف الكلام	٨٨
إعجاز القرآن في بديع نظم الأحكام التي تضمنها	٩١
إعجاز القرآن في تأثيره في النفوس	٩٢
إعجاز القرآن في بديع بلاغة إفراده وتركيبه	٩٣
إعجاز القرآن في ائتلاف وتشابه نظمه	٩٤

الموضوع	الصفحة
إعجاز القرآن في الكلام المغلق والاشارات	٩٧
خلاصة الباب	٩٩
فصل في وصف وجوه من البلاغة	١٠١
علم البيان وعلاقته بالإعجاز	١٠١
استفادة إعجاز القرآن من وجوه البيان	١١٤
إعجاز البيان في القرآن والتمثيل له	١١٤
نقد الباقلاني لكلام الرماني	١١٥
بلاغة القرآن في علم المعاني وتصوير الكلام	١٢٢
فصل في ذكر البديع من الكلام	١٢٤
استفادة الإعجاز من وجوه البديع	١٣١
فصل في نفي الشعر من القرآن	١٣٤
ليس في القرآن شيء من الرجز	١٣٩
ليس القرآن من المزاوج متساوي الضروب	١٤٠
الفرق بين البيان والسجع في الإعجاز	١٤١
موافقة القرآن لغة العرب هل يدل على أنها توقيفية	١٤٢
باب أيهما أبلغ النظم أم النثر	١٤٤
أمثلة مفارقة القرآن للأسلوب المعتاد ـ من النظم	١٤٥
نقد قصيدة إمرئ القيس أفضل الشعر العربي في العصر الجاهلي	١٤٥
نقد قصيدة البحتري أفضل الشعر العربي في العصر العباسي	١٤٨
هل في بلاغات العرب ما هو بقدر المعجز من القرآن	١٥٢
فصل في حقيقة المعجز	١٥٤
فصل في كلام النبي ﷺ، وأمور تتصل بالإعجاز	١٥٦
خاتمة المصنف لكتابه	١٦١

قائمة المصادر والمراجع
الإيجاز بمنهج الإمام الباقلاني في الإعجاز

١ ـ **إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل**: مذكرة مفرغة من أشرطة شرح الطحاوية لمعالي الشّيخ: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ.

٢ ـ **اجتماع الجيوش**: لابن القيم. دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة ١ (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٣ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**: أبو محمد علي بن حزم الظاهري، ت٤٥٦هـ، مطبعة العاصمة بالقاهرة.

٤ ـ **إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود)**: أبي السعود محمد بن محمد العمادي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥ ـ **الإرشاد**: لأبي المعالي الجويني، حققه د.محمد يوسف موسى، وعلي عبدالمنعم عبدالحميد، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ (١٣٦٩هـ).

٦ ـ **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**: أحمد المقري، طبع برعاية صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية، ودولة الإمارت العربية المتحدة سنة ١٩٧٨م.

٧ ـ **أستاذ السائرين الحارث ابن أسد المحاسبي**: للدكتور عبدالحليم محمود.

٨ ـ **أصول الدين**: لعبدالقاهر البغدادي، دار الباز، مكة المكرمة، (١٤٠٠هـ).

٩ ـ **إعجاز القرآن**: للإمام الباقلاني، تحقيق د.السيد أحمد صقر. نشر دار المعارف ـ القاهرة، الطبعة ٥ (١٩٨١م).

١٠ ـ **إعجاز القرآن**: للإمام الباقلاني، تحقيق عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣ (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

١١ ـ **الإعجاز في دراسات السابقين**: عبدالكريم الخطيب، دار المعرفة ـ بيروت، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

kolasa-borhan

١٢ ـ **الأعلام**: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٨ (١٩٨٩م).
١٣ ـ **الإكمال**: الأمير الحافظ ابن ماكولا، تحقيق، عبدالرحمٰن بن يحيى المعلمي، نشره محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.
١٤ ـ **الانتصار لصحة نقل القرآن**: للقاضي أبي بكر الباقلاني (محمّد بن الطيب الباقلاني ت٤٠٣هـ): مخطوط نسخة من الجزء الأول منه في مكتبة مصطفى باشا ـ إستانبول.
١٥ ـ **الانتصار للقرآن**: للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ (١٤٢٥هـ).
١٦ ـ **الأنساب**: السمعاني، عبدالكريم بن محمد، ت٥٦٢هـ، حيدر آباد ـ الهند ١٩٧٦م.
١٧ ـ **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**: للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، نشر عزت العطار ـ القاهرة ـ (١٣٦٩هـ/١٩٥٠م).
١٨ ـ **إيضاح المكنون**: إسماعيل باشا، ت١٣٣٩هـ استانبول ١٩٤٥م. إيضاح المكنون ٦٩١/٢.
١٩ ـ **الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن**: دراسة تحليلية نقدية، د.عبدالرؤوف مخلوف، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ (١٩٧٨م).
٢٠ ـ **البداية والنهاية**: لابن كثير، دار الريان للتراث ـ القاهرة ـ، ط١ (١٤٠٨هـ).
٢١ ـ **البيان عن الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين والحيل والكهانة والسحر والنارنجات**: للقاضي أبي بكر الباقلاني (محمّد بن الطيب الباقلاني ت٤٠٣هـ): مخطوط يوجد قسم في مكتبة تينجن ـ ألمانيا. وطبع بتحقيق يوسف مكارثي اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت ـ لبنان، ١٩٥٨م.
٢٢ ـ **تاريخ آداب العرب**: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٤ (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).
٢٣ ـ **تاريخ بغداد**: للخطيب البغدادي، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٢٤ ـ **تاريخ قضاة الأندلس**: أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، نشر دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ط٥ (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
٢٥ ـ **التبصير في الدين**: للإسفراييني، تحقيق كمال يوسف، طبعة عالم الكتب ـ بيروت، ط١ (١٤٠٣هـ).

kolasa-borhan

٢٦ ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري: لابن عساكر ـ ط القدسي بالقاهرة.

٢٧ ـ تذكرة الحفاظ: الذهبي شمس الدين، ت ٧٤٨هـ، حيدر آباد الدكن ١٣٧٦هـ.

٢٨ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك: للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق: أحمد بكير محمود، مكتبة الحياة ـ بيروت.

٢٩ ـ تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): الفخر الرازي، محمد بن عمر، ت ٦٠٦هـ مط التهية المصرية.

٣٠ ـ تفسير النيسابوري: (غرائب القرآن ورغائب الفرقان): نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٣١ ـ تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: للقاضي أبي بكر الباقلاني (محمّد بن الطيب الباقلاني ت ٤٠٣هـ)، المكتبة الشرقية ـ بيروت ـ، عام (١٩٥٧م)، وطبعة أخرى بتحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة ١، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت، (١٤٠٧هـ).

٣٢ ـ التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة: للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني. الطبعة الأولى، بتحقيق د. محمد عبدالهادي أبو ريدة، والأستاذ محمود محمد الخضيري، ط. لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ـ، (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م). الطبعة الثانية: بتحقيق رتشرد يوسف مكارثي ـ بيروت، (١٩٥٧م).

٣٣ ـ تهذيب تاريخ دمشق: علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر، هذبه ورتبه: عبدالقادر بدران، الطبعة الثانية، دار المسيرة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣٤ ـ التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبدالرؤوف المناوي، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٣٥ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، (الطبعة بدون)، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٣٦ ـ الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د.علي بن حسن بن ناصر وآخرون، نشر دار العاصمة ـ الرياض، ط١ (١٤١٤هـ).

kolasa-borhan

٣٧ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم ط مكتبة الخانجي ١٣٥٢هـ.
٣٨ ـ دائرة المعارف الإسلامية: للمستشرقين، الطبعة الجديدة. (في عام ١٩٩٩م ظهرت النسخة الإلكترونية على شبكة الانترنت وعلى أقراص مدمجة).
٣٩ ـ درء تعارض العقل والنقل: لابن تيمية، تحقيق د.محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.
٤٠ ـ دلائل النبوة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وثق أصوله وخرّج أحاديثه د. عبدالمعطي قلعجي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٤١ ـ دلائل النبوة: أبو نعيم الأصفهاني، تحقيق: محمد رواس قلعجي، وعبدالبر عباس، ط٢، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م.
٤٢ ـ دول الإسلام: للحافظ الذهبي، المطبوع بالهيئة المصرية العامة سنة ١٩٧٤م، بتحقيق فهيم شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم في جزئين.
٤٣ ـ دولة السلاجقة: د.علي بن محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ ـ القاهرة، ط١ (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
٤٤ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي ـ ط دار الكتب العلمية بيروت.
٤٥ ـ رسالة الحُرّة: المطبوعة باسم: «الإنصاف فيما يحب اعتقاده ولا يجوز الجهل به» تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، ـ القاهرة، عام (١٣٦٩هـ).
٤٦ ـ سنن الدارمي: عبدالله بن عبدالرحمٰن بن الفضل بن بهرام الدارمي، (الطبعة بدون)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (التاريخ بدون).
٤٧ ـ السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ. سنن البيهقي.
٤٨ ـ سير أعلام النبلاء: للذّهبي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، (١٤١٣هـ).
٤٩ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: للشيخ محمد محمد مخلوف، دار الفكر.
٥٠ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٩هـ.
٥١ ـ شرح الأصول الخمسة: لعبدالجبار الهمداني المعتزلي، تحقيق: د.عبدالكريم عثمان، طبع مطبعة الاستقلال الكبرى، نشر مكتبة وهبة ـ القاهرة، ط١ (١٣٨٤هـ).
٥٢ ـ شرح العقيدة الأصفهانية: لابن تيمية، تحقيق حسنين بن محمد مخلوف، دار الكتب الإسلامية ـ القاهرة.

kolasa-borhan

٥٣ ـ **شرح المقاصد في علم الكلام**: سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني نشر دار المعارف النعمانية باكستان ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٥٤ ـ **صحيح البخاري**: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ.

٥٥ ـ **صحيح مسلم**: مسلم بن الحجاج، ت٢٦١هـ، تح محمد فؤاد عبدالباقي، البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥م.

٥٦ ـ **صفة الصفوة**: جمال الدين ابن الجوزي، حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، خرج أحاديثه: د. محمد ابن رواس قلعجي، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٥٧ ـ **الصفدية**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٥٨ ـ **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**: خلف بن عبدالملك ابن بشكوال تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، القاهرة وبيروت.

٥٩ ـ **الصواعق المرسلة**: ابن قيم الجوزية ـ تحقيق: علي محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض.

٦٠ ـ **الطبقات**: للسلمي، مطابع الشعب القاهرة ١٣٨٠هـ.

٦١ ـ **طبقات الشافعية**: أبو بكر بن أحمد بن محمد ابن قاضي شهبة، صححه وعلق عليه: د. عبدالعليم خان، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٨٨هـ/١٩٧٨م.

٦٢ ـ **طبقات الشافعية**: السبكي، تاج الدين، ت ٧٧١هـ، تحقيق الحلو والطناحي، البابي الحلبي بمصر ١٩٦٤م.

٦٣ ـ **طبقات الفقهاء**: الشيرازي، ابراهيم بن علي، ت ٤٧٦هـ، تحقيق د.إحسان عباس، بيروت ١٩٧٠م.

٦٤ ـ **طبقات المفسرين**: جلال الدين عبدالرحمٰن السيوطي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٦٥ ـ **العبر في خبر من غبر**: الحافظ الذهبي، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، توزيع دار الباز، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

kolasa-borhan

٦٦ ـ العقل والنقل عند ابن رشد: د.محمد أمان الجامي، ط٣، ١٤٠٤هـ، الجامعة الإسلامية. ومنشور بمجلة الجامعة الإسلامية ع٤١.
٦٧ ـ فتاوى ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه: تحقيق الدكتور عبدالمعطي أمين قلعجي، الطبعة الأولى، طبعة دار الوعي حلب سوريا سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٦٨ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.
٦٩ ـ الفهرست: ابن النديم ـ طبع في الاستقامة ـ القاهرة، ١٣٤٨هـ.
٧٠ ـ في علم الكلام ـ الأشاعرة ـ: د.أحمد محمود صبحي، دار النهضة العربية، بيروت ـ لبنان، ط٥، ١٤٠٥هـ.
٧١ ـ قاعدة في المعجزات والكرامات: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق حماد سلامة، مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ، ط١، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
٧٢ ـ قوت القلوب: أبو طالب المكي، تقديم: عبدالمنعم الحفني، القاهرة، دار الرشاد، ١٩٩١م.
٧٣ ـ الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري، (الطبعة بدون)، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٧٤ ـ الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.
٧٥ ـ اللباب في تهذيب الأنساب: لابن الأثير ـ نشر القدسي بالقاهرة.
٧٦ ـ لسان الميزان: للحافظ ابن حجر، ط أولى، دائرة المعارف العثمانية ١٣٢٥هـ.
٧٧ ـ اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع: لأبي الحسن على بن إسماعيل الأشعري تقديم الدكتور محمود غرابة، طبعة مطبعة مصر، القاهرة سنة ١٩٥٥ م.
٧٨ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، القاهرة، دار السعادة، بيروت، ط٣، دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ.
٧٩ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: جمع ابن قاسم، طبعة خادم الحرمين الشريفين بإشراف رئاسة شؤون الحرمين، (١٤٠٤هـ).
٨٠ ـ المحلى لابن حزم: تحقيق أحمد شاكر، دار الآفاق الحديثة ـ بيروت.
٨١ ـ المختصر في أخبار البشر: الملك المؤيد إسماعيل أبي الفداء، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

kolasa-borhan

٨٢ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان: عبدالله بن أسعد اليافعيّ اليمنيّ المكّيّ. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات الإسلامية، حلب ـ سوريا، ط٢ (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).
٨٣ ـ مسند الإمام أحمد، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١ (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرناؤوط.
٨٤ ـ المضنون به على غير أهله، مطبوع ضمن القصور العوالي.
٨٥ ـ معارج القدس في مدارج معرفة النفس: أبو حامد الغزالي، لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، الآفاق الجديدة، ١٩٨٢ م.
٨٦ ـ المعتزلة وأصولهم الخمسة: لعواد بن عبدالله المعتق، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٨٧ ـ معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة.
٨٨ ـ المغني في أبواب العدل والتوحيد: لعبدالجبار الهمداني المعتزلي، تحقيق د.عبدالحليم محمود، ود.سليمان دنيا، طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة.
٨٩ ـ مفتاح دار السعادة: ابن القيم، بيروت، دار الكتب العلمية.
٩٠ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن الأشعري. تحقيق هلموت ريتر، ط٣، دار إحياء التراث العربي. بيروت.
٩١ ـ الملل والنحل: الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم، ت ٥٤٨هـ، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل، القاهرة ١٩٦٨م.
٩٢ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: أبو الفرج عبدالرحمٰن بن علي بن الجوزي، الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن ـ الهند، ١٣٥٨هـ.
٩٣ ـ المنقذ من الضلال: لأبي حامد الغزالي ـ مع أبحاث في التصوف للشيخ عبدالحليم محمود. ط٨ دار الكتب الحديثة. مصر. ١٣٩٤هـ.
٩٤ ـ المواقف للإيجي: عضدالدين عبدالرحمٰن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د. عبدالرحمٰن عميرة، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة١ (١٩٩٧م).
٩٥ ـ المواهب اللدنية: القسطلاني، بيروت، دار الكتب العلمية.
٩٦ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي ط٥ الرياض ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٩٧ ـ موقف ابن تيمية من الأشاعرة: د.عبدالرحمٰن المحمود، مكتبة الرشد ـ الرياض، ط١ (١٤١٥هـ).

kolasa-borhan

٩٨ ـ **النبوات**: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د.عبدالعزيز الطويان، ط الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط٢ (١٤٢٧هـ).

٩٩ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، (الطبعة بدون)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (التاريخ بدون).

١٠٠ ـ **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**: للدكتور علي سامي النشار طبعة دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٦٩هـ.

١٠١ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: للشيخ أحمد بن محمد المقرّي التلمساني، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الفكر، طبعة ١٤٠٨هـ.

١٠٢ ـ **نكت الانتصار لنقل القرآن**: القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) تحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف ـ الإسكندرية، (١٩٧١م).

١٠٣ ـ **هداية المسترشدين والمقنع في معرفة أصول الدين**: للباقلاني، مخطوط في مكتبة الأزهر الشريف.

١٠٤ ـ **هدية العارفين**: إسماعيل باشا، دمشق ١٩٨٢م.

١٠٥ ـ **الوافي بالوفيات**: الصفدي، نشر ريتر ١٩٣١.

١٠٦ ـ **وفيات الأعيان ابن خلكان**: شمس الدين أحمد بن محمد، ت٦٨١هـ، تحقيق د.احسان عباس، دار الثقافة ـ بيروت.

١٠٧ ـ **يتيمة الدهر**: عبدالملك الثعالبي، تحقيق مفيد محمد قمحية (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣).

١٠٨ ـ **اليواقيت والجواهر**: للشيخ عبدالوهاب الشعراني، طبع مصطفى الحلبي ـ مصر، ١٣٧٨هـ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

kolasa-borhan

فهرس الموضوعات
الإيجاز بمنهج الإمام الباقلاني في الإعجاز

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١٧١
أسباب اختيار الموضوع	١٧٣
خطة البحث	١٧٤
المبحث الأول: ترجمة موجزة للإمام الباقلاني	١٧٥
اسمه	١٧٥
شهرته	١٧٥
مولده	١٧٦
طلبه العلم	١٧٦
شيوخه	١٧٦
تلاميذه	١٧٧
عبادته وصلاحه	١٧٧
منزلته العلمية	١٧٨
حفظه واستيعابه	١٧٩
فصاحته	١٨٠
مناظراته وقوة حجته بالحق	١٨٠
عقيدته	١٨٧
أعماله	١٨٩

kolasa-borhan

الموضوع	الصفحة
اهتمامه بتآليفه ومراجعته لها	١٨٩
أشهر مصنفاته	١٩٠
وفاته	١٩١
المبحث الثاني: جولة موجزة مع الإمام الباقلاني في الإعجاز	١٩٢
أولاً: سبب تأليفه إعجاز القرآن	١٩٢
ثانياً: أبرز المسائل التي ناقشها الإمام الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن	١٩٤
المبحث الثالث: أبرز عناصر تقييم العلماء لمنهج الباقلاني في إعجاز القرآن	١٩٩
المطلب الأول: أبرز عناصر تميز منهج الباقلاني في إعجاز القرآن	١٩٩
أن الباقلاني وقف حياته على التدريس والتأليف	١٩٩
اهتمامه بمسألة النبوات والقرآن وهما محور الحديث عن الإعجاز	٢٠٠
جمال التأليف مع حسن العرض والترتيب	٢٠١
إكثاره من استدعاء الشواهد	٢٠١
أنه يحكي أقوال من سبقه من العلماء في الميدان	٢٠١
جمع بين الكلام على وجه الإعجاز، والكلام على مسائل الإعجاز	٢٠١
أنه يتصف ببعض الأصالة في مناقشته للبيان والمعجز	٢٠١
يستشهد بالأدلة النقلية	٢٠٢
من العلماء الأفذاذ المشهورين ذا باع في العلم والعمل	٢٠٢
المطلب الثاني: أبرز العيوب التي أشار إليها العلماء في منهج الباقلاني	٢٠٢
تأثر مسائل الإعجاز بمذهب الأشاعرة عند الباقلاني	٢٠٢
دفاعه عن فكرة نفي السجع من القرآن	٢٠٢
بالغ في تسفيه شعر العرب مبالغة عظيمة	٢٠٣
طول الكتاب وكثرة استطرادات المؤلف عموماً	٢٠٣
نقده الزائد لمعلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري	٢٠٣
مسبوق بالآراء التي يقول بها في وجوه الإعجاز	٢٠٣
المطلب الثالث: العلاقة بين الباقلاني وغيره	٢٠٤
موقف الباقلاني من الجاحظ	٢٠٤
العلاقة بين الباقلاني والرماني	٢٠٤

kolasa-borhan

الموضوع	الصفحة
موقف الباقلاني من ابن المقفّع	٢٠٤
موقف الباقلاني من النظّام	٢٠٥
المبحث الرابع: إعجاز القرآن عند الباقلاني في كتبه الأخرى	٢٠٦
المبحث الخامس: العلاقة بين الإعجاز والمذهب الأشعري عند الباقلاني	٢١٠
المطلب الأول: تأثر مسائل الإعجاز بمذهب الأشاعرة عند الباقلاني	٢١٠
المطلب الثاني: الجواب عن هذه المسائل	٢١٤
نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة	٢١٤
سبب الغلط عند المعتزلة والأشاعرة في دليل النبوة	٢١٥
تعريف الدليل	٢١٦
كرامات الأولياء من آيات الأنبياء	٢١٧
الدليل ما يستلزم وجود المدلول	٢١٨
جعل التحدّي شرطاً من شروط المعجزة	٢١٨
الطريق إلى معرفة النبوة هو المعجزة	٢٢٠
إنَّ طريقة إثبات نبوة الأنبياء وإرسال الرسل للناس فيه مذاهب	٢٢٠
الأدلة والبراهين لإثبات النبوة والرسالة	٢٢٢
الآيات والبراهين التي آتاها الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وسلم أنواع	٢٢٣
الخاتمة	٢٣٢
نتائج البحث	٢٣٢
توصيات الباحث	٢٣٣
فهرس ومراجع المحقق د. السيد أحمد صقر	٢٣٥
فهرس مراجع المختصر	٢٤١
فهرس موضوعات خلاصة البرهان	٢٤٩
قائمة المصادر والمراجع	٢٥٣
فهرس موضوعات الإيجاز	٢٦١

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑